

موسوعة الحضارة الإسلامية

١٠

رحلة حياة

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

مع باب جديد مهم عن

الإسرائيليّات والجمود

وعرّب أعلّنها على الجبّتين



تأليف

الدكتور أحمد رشدي

الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة ١٩٩٠ مع تعديلات مهمة وإضافات واسعة

الناشر: دار النهضة المصرية ٩ شارع عدلي - القاهرة



Bibliotheca Alexandrina



0003826

موسوعة النظم والحضارة الإسلامية

رحلة حياة

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

١٤٨٣ هـ

تأليف

الدكتور أحمد رشدي

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبرج
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بمدرسة دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة ١٩٨٢ مع تذييلات مهمة وانتقادات واسعة



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع مصطفى
القاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٩٧٣

الطبعة الثانية ١٩٧٨

الطبعة الثالثة ١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا وأليك أنبنا

الحضارة الاسلامية
منحة الاسلام لهداية البشرية

دكتور أحمد شلبي

كتب المؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسهم بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ - الجزء الأول : (الطبعة الماثرة)

— مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامى — علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
— تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
— المسيحية النثرية المباشرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة — الدعوة الاسلامية وفلسفتها — عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثاني : (الطبعة السادسة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة السابعة)

الخلافة السياسية مع اهتمام خاص بالعصر السبلى الاول ، وبدور المسلمين في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة السادسة)

— القتلوس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .
— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا — من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .
— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
— الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها .
— الاجر لمارية المملوكية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن :

- دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
- مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .
- الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي :
- غانة — مالي — صنفى — دول الهوسا — برنو — باجـرمى — واداي — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .
- الدول الاسلامية الحالية :
- موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر .
- نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتي .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .
- العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن :

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :

- ايران — أفغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا
- الأندلس الاسلامية في الهند والصين وروسيا والفلبين . .

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الثانية)

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر محمد نجيب وعصر جمال عبد الناصر (عصر الاطام والهزائم) .

١٠ — الجزء العاشر :

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر أنور السادات .
- (ترجمت أكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، وتشمل :

١١ — الجزء الاول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الثانية)

مناهج التعليم في صدر الاسلام — انحرافاتهما في عصور الظلام — وجوب تصحيحها .

١٢ — الجزء الثاني : الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره (الطبعة السادسة)

١٣ — الجزء الثالث : السياسة (الطبعة الخامسة)

في التفكير الاسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ — الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة الخامسة)

في التفكير الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة .

ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ — الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة مثل شهادات الاستثمار والايذاع بالبنوك ...

٢ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامي فيها .

٣ — خطر الشيوعية على الاديان والانسان والدول .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة السابعة)
نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولناهج التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السادسة)
أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
في التفكير الإسلامي

— في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

— وفي نطاق المجتمع : كالأقراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الثانية)
وتاريخ النظم القضائية في الإسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
في التفكير الإسلامي

بحث علمي يبرز موقف الإسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الإسلام في مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق الجهاد ، والخديعة في الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

كتب المؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيطة والعمق وتشمل :

٢١ — الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لثنى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
إبراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بني إسرائيل ، عقيدة بني إسرائيل ،
يهوه اله بني إسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت والهيكل ،
الكهنة والقرايين ...

— مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء
صهيون .

— اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاشتبالي ، التجسس ،
البابية والبهاية .

— من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ — الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة السابعة)

— المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن
خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المذاهب ،
طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، خرافة
ظهور العذراء في كنيسة الزينون ، رتبة الإصلاح الديني وفتانجها ونقدها .

٢٣ — الجزء الثالث : الإسلام : (الطبعة السابعة)

— الله في التفكير الإسلامي ، النبوة في التفكير الإسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الإسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الإسلام ، الرق وموقف الإسلام
منه ، السياسة والاقتصاد في الإسلام .

٢٤ — الجزء الرابع : آديان الهند الكبرى : (الطبعة السادسة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ،
كيتا .

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة
الوجود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة
(الطبعة الخامسة عشرة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
باللغة الانجليزية :

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٢٧ — History of Muslim Education
مكتبة النهضة المصرية

وباللغة الاندونيسية والماليزية :

	Negara dan Pemerintahan Dalam Islam	— ٢٨
	Masjarakat Islam	— ٢٩
	Hukum Islam	— ٣٠
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam I	— ٣١
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam II	— ٣٢
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam III	— ٣٣
	Perbandingan Agama (Jahudi)	— ٣٤
	Perbandingan Agama (Masihi)	— ٣٥
	Perbandingan Agama (Islam)	— ٣٦
Pustaka National (Singapore)	Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)	— ٣٧
	Sadjarah Pendidikan Islam	— ٣٨
	Politik dan Ekonomi Dalam Islam	— ٣٩
	Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam	— ٤٠
	Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi	— ٤١
	Perang Salib	— ٤٢
	Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah	— ٤٣
	Pengajian Al Quraan	— ٤٤
	Sedjarad Kehakiman Dalam Islam	— ٤٥

كتب للمؤلف

خامسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثالثة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ،
فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة
في القراءة والحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من
الفكر الاسلامي والعربي اختيرت من امهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب
مناسب ، مع أسئلة وتمارين مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الثالثة)
عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لاهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفذت ولن يعاد طبعا

- ٤٨ — في قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٤٩ — مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥٠ — الحكومة والدولة في الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

كتب للمؤلف
سادسا : المكتبة الاسلامية المصوّرة
لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ومن التاريخ والحضارة وقصص القرآن
للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

- | | | |
|----|---|---|
| ١ | ج | محمد قبل البعثة |
| ٢ | ج | من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة) |
| ٣ | ج | الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات |
| ٤ | ج | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها |
| ٥ | ج | الرسول الداعية ومربي الدعاة |
| ٦ | ج | الرسول في بيته : ازواجه — اولاده واحفاده — خدمه |
| ٧ | ج | الرسول في بيته : مشكلات الحياة في بيت الرسول وكيف عالجها |
| ٨ | ج | الرسول بين أصحابه — الرسول يربي الفرد المسلم ويربى المجتمع الاسلامي |
| ٩ | ج | الرسول يربي القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام |
| ١٠ | ج | الرسول والشباب — الرسول والعمل |
| ١١ | ج | توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرّمات للرسول — الرسول والمتناقضون |
| ١٢ | ج | الرسول والنصارى — الرسول واليهود |
| ١٣ | ج | الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم احداث غزوة بدر |
| ١٤ | ج | غزوة احد والهزيمة التي اخافت المنتصر — غزوة الاحزاب وكلمة عن سلمان الفارسي |
| ١٥ | ج | صلاح الحبيبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء |
| ١٦ | ج | فتح مكة — غزوة حنين والطائف — الصراع ضد الروم — الفترة الأخيرة في حياة الرسول |
| ١٧ | ج | ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها |
| ١٨ | ج | عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة الاسلامية |
| ١٩ | ج | عثمان بن عفان والفتنة في عهده |
| ٢٠ | ج | علي بن ابي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي واجهها |
| ٢١ | ج | العشرة المبشرون بالجنة |
| ٢٢ | ج | المرأة في الاسلام ونماذج من خيرة المسلمات |
| ٢٣ | ج | الدولة الاموية : تاريخ يحتاج الى انصاف |
| ٢٤ | ج | الدولة الاموية : مواهب فريدة : الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز |
| ٢٥ | ج | الدولة الاموية : التوسع الاسلامي العظيم في عهدها |
| ٢٦ | ج | الدولة الاموية : نشاط الشيعة خلالها وقصة استشهاد الامام الحسين . |
- (الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٩ — ٢٢
مقدمة الطبعة الثالثة	٢٣

القرية المصرية

قرية « عليم »	٢٧
كلمة عن الاسرة والنسب	٢٨
القرية المصرية وضرورة اعادة تخطيطها	٣٤

الأزهر

مكانة الأزهر ومكانة علومه	٣٩
حساسية الأزهرين	٤١
في معهد الزقازيق	٤٢
الأزهر والامتحان في المقروء	٤٧
احداث وطرف بالمعهد	٤٨
الزقازيق : الناس والمدينة	٥٣
تطوير الأزهر	٥٦
القانون ١٠٣ (سنة ١٩٦١) يدمر ولا يطور	٦٠
مضايا ازهرية اخرى	٦٥
الأزهر بالخارج	٦٥

في كلية دار العلوم

مكانة دار العلوم بين مراكز الفكر الاسلامى	٦٩
دار العلوم في عهدنا	٦٩
دار العلوم بين الأزهر والجامعة	٧٠
مستوى الكلية عبر نصف قرن	٧٢
اساتذة الكلية في المحيط العالى	٧٣
طلاب الكلية من عهد الى عهد	٧٤
مشكلة النحو والصرف وتهديد الطالب	٧٨

الموضوع الصفحة

- « المودات » والمساحيق للطلاب والطالبات . . . ٨٠
مع الكلية بين الماضي والحاضر . . . ٨٣

مع الشعر

- الأدب والشعر ٨٧
طريف حول الشعر ٨٨
لحظات من شعر ضاح ٩١

نمساذج من الشعر :

- الزجرة النبوية الشريفة ٩٤ إليها . . . ٩٦
يقظة وداع . . . ٩٨ حب صامت . . . ١٠٠
وسدر الالهام . . . ١٠١ هند . . . ١٠٢
بالبحر . . . ١٠٤ لقاء . . . ١٠٦
ايالة . . . ١٠٨ صراع . . . ١١٠
سيرة . . . ١١١ لخواطر . . . ١١٥
الشرق بين الماضي والحاضر ١١٧ نشيد الجلاء . . . ١١٨
السلامة . . . ١١٩

البعثة العلمية لأوروبا

والعمل بالجامعة بعد العودة من البعثة

- مقدمة ١٢٣
التدرج وبعثة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية . . . ١٢٣
الطية الاداب وبعثة التاريخ الاسلامي . . . ١٢٤
مستويات بأوروبا وتذليلها ١٢٦
بين لندن ونكوردج ١٢٦
خولة عمل والولاية المدى ١٢٧
مستكملت ما بعد العودة لمصر ١٣٠

مع ثورة ٢٣ يوليو

- مقدمة ١٣٥
الحكم بمصر قبل الثورة ١٣٥
ثورة او تسلط ١٣٧

الصفحة	الموضوع
١٣٩	صرخة ضد حكم الجيش
١٤٠	كلمة عن الإخوان المسلمين
١٤١	قرار مجلس قيادة الثورة بفصل من الجامعة
١٤٣	جهاد من أجل لقمة العيش
١٤٤	الشيوعية تحاول اجتذابى
١٤٥	معروف لاينسى
١٤٨	العمل بالصحافة
١٤٨	العمل بالمؤتمر الاسلامى وظروفه وتجاريه
فى اندونيسيا	
١٥٥	مطلع العلاقة باندونيسيا
١٥٥	السجان يطلق السجين خطأ
١٥٧	مسقط الرأس
١٥٩	الاعارة لاندونيسيا والرحلة لها
١٥٩	الايام الاولى بالعاصمة السياسية (جاكرتا)
١٦٠	لمحة عن جمال اندونيسيا
١٦٤	فى العاصمة الفكرية (جوكجا كرتا)
١٦٧	اللغة الاندونيسية
١٧٠	٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤ و ١٩٥٥ : دراسة مقارنة
١٧١	فى محيط الجامعات
١٧٤	فى محيط الجماهير
١٧٧	العرب فى اندونيسيا
١٧٩	الامتداء الثلاثى على مصر
١٨٠	العودة للعمل فى الحكومة
١٨١	الديبلوماسية والسلك السياسى المصرى
١٨٧	سوكارنو وحتى
١٨٧	الى اندونيسيا مرة اخرى
١٨٨	نحن والشرق الاقصى
١٨٩	الفرق بين الداعية والمدرس
١٩٣	خطبة جمعة فى تايلاند
١٩٥	كوريا وانتشار الاسلام

الموضوع الصفحة

- ١٩٦ الفيليبين والخطر على الاقليات الاسلامية بالشرق الاقصى
٢٠٠ تقارير من اندونيسيا عنى

في ادارة الوافدين والمبعوثين

- ٢٠٧ مصر والروتين
٢٠٩ ضرورة اختيار الوافدين

العودة للجامعة

- ٢١٣ العودة او اللاعودة
٢١٧ الجامعة والمجتمع
٢٢٢ الرشوة .. وفي الجامعة
٢٢٨ مشكلة الكتب الجامعية من زوايا لا يعرفها الناس . . .
٢٣٣ اللجان الدائمة للترقية
٢٣٧ اقتراحات لحل مشكلة الكتاب الجامعى
٢٤٠ استاذ الجامعة وشكواه المالية
٢٤٧ الدراسات العليا بالجامعة

في السودان

- ٢٥٣ الروابط بين مصر والسودان
٢٥٧ الاستعمار والتبشير
٢٥٩ الدول العربية ونكسة ١٩٦٧
٢٦١ قضية الاعارة للخارج
٢٦٥ موقف مصر من الدول العربية

مسائل عامة

- ٢٧٠ زوجة الكاتب
٢٧٧ اولادى
٢٧٨ صورة شبابى
٢٧٩ وفرة الانتاج العلمى وتفسيره ■ ■ ■ ■ ■
٢٨٣ الترشيح لمجلس الشعب

الموضوع	الصفحة
ذكاء الناخب بالريف وتكريم العلم	٢٨٤
كيف نتعرف على المرشحين بالمدن ؟	٢٨٦
طلاب الجامعات من ريفنا وحياتهم في بيتنا	٢٨٨
الديمقراطية والثوابع	٢٩٠
نحن واسرائيل	٢٩٣
مصر والاستيراد	٢٩٦
استيراد الأشخاص ولغير ضرورة	٢٩٧
العرب الآن وعرب الاندلس	٢٩٨
قدر العرب واحد ومن الجهل ان نتناسى ذلك	٢٩٩
اقتراح عملى لمشاركة العرب فى المعركة	٣٠٢
اسلحة اقوى من الفانتوم	٣٠٢
اعداء مصر يتظاهرون بالود لها	٣٠٣
مراكز الفكر الاسلامى بمصر ينبغى ان تهيد النظر فى جهودها	٣٠٥
الازهر وما يرمى منه	٣٠٦
كلية دار العلوم بين اللغويات والعلوم الاسلامية	٣٠٧
معهد الدراسات الاسلامية	٣٠٧
معهد الامامة محاولة طيبة	٣٠٨
المجلس الاعلى للشئون الاسلامية	٣١٠
المجلس وموسوعة جمال عبد الناصر للفقہ الاسلامى	٣١٤
جمعية « الشبان المسلمين »	٣٢٣
الجمعية الشرعية	٣٢٤
<hr/>	
ثلاثون عاما مع ثورة يوليو	٣٢٩ — ٣٣٣
<hr/>	
وماذا بعد ؟	٣٣٤

مقدمة

(م ٢ - رحلة حياة)

أدركت منذ كنت طالبا بجامعة كمبردج وحين كنت أستاذا بجامعة
اندونيسيا فراغا ضخما في بعض أركان المكتبة العربية والاسلامية :

فلم يكن بالمكتبة العربية على الاطلاق دراسة في مقارنة الأديان ، وكأن
الأقلام بعد الشهرستاني وابن حزم ... قد توقفت عن الخوض في هذا
الميدان •

وكان هناك تعبير « الحضارة الاسلامية » ولكن دون مدلول واضح ،
وكان هذا التعبير يتجه لتصوير حضارة المسلمين بالاندلس من عمارة ونهضة
علمية ويقنع تقريبا عند هذا الحد •

ولم يكن التاريخ الاسلامي متكاملا في المكتبة العربية ، فقد اتجه
المؤرخون المحدثون الى التعمق في نقاط معينة وتركوا الكثير دون ايضاح
وتدوين •

ولظروف خاصة ، شرحتها في مكانها في هذا الكتاب وفي سواه ،
القرمتُ بكتابة هذا المنهاج الطويل المضني ، وكان ضمن ما كتبت كتابي
« المجتمع الاسلامي : أسس تكوينه — أسباب ضعفه — وسائل نهضته »
وفي أحد فصول هذا الكتاب تحدثتُ عن « دراستي في الأزهر » واستلزم
هذا الحديثُ أن أسرد فكرة عن بعض ظروف حياتي ، ولم يكن الحديث
عن حياتي مقصودا لذاته ، وإنما جاء عرضا وأنا أدرس فترة عاصرتها
في الأزهر •

وصدر بعد ذلك كتاب « مفكرون وأدباء من خلال آثارهم » للباحث
الفاضل الأستاذ أنور الجندي ، وقد تفضل فكتب عني ضمن من كتب عنهم ،
واعتمد في جلِّ ما كتب على ما سجلته عن نفسي بكتابي السابق ، وهناك
مقالات اتخذتني موضوع حديثها ، واذاعاتُ أَلِّمت بخطواتٍ من تاريخ
حياتي ، واتخذتُ هذه كلُّها حديثي السابق أساسا لما ذكَّرتُه عني •

وقد أدركت لذلك ضرورة أن أدوّن مزيداً من التفصيل عن حياتي ،
فمن يدري ؟ قد يحتاجها باحثون آخرون في مستقبل الأيام كما احتاج
الباحثون المعاصرون الى ما دونته في كتابي « المجتمع الاسلامي » .

وكان ذلك أساساً للتفكير في وضع هذا الكتاب .

ثم تطورت الفكرة ونمت فاذا بالموضوع يصبح أكثر خطورة وأكثر
استقلالاً ، فلم يعد الهدف منه أن أقدم شذرات يستفيد بها من قد يحاول
الكتابة عني ، وإنما أصبح الهدف تقديم زادٍ علمي في موضوعات مختلفة ،
ووصفاً لتجارب ومشاهد ذات أهداف مهمة تحمل في أعطافها اتجاهات
حضارية ، وبحوثاً متناثرة ذات بال . ثم ان كثير من المفكرين عنوا بتدوين
سيرتهم الذاتية ، وتصوير حياتهم ونجد فيما دونوه متعة واسعة وفائدة
جمة ، فالحياة الخاصة تنعكس على الانتاج وعلى الحياة العامة .

ومما قوى عزمي على السير في هذا العمل أن هناك اتجاهات يميل
للدراسات الخفيفة المتنوعة ، ويراهن كالبستان اذا كثرت زهوره وتعددت
أنواع الثمار فيه ، لأن هذا يتيح للانسان أن ينتقل من لون الى لون ومن طعم
الى طعم ، وهذا الكتاب من هذا النوع .

وساعدني على تنفيذ هذا الاتجاه أن حياتي لم تسر كما تسير حياة
معظم الناس رتيبةً سهلة ، وإنما كانت حياتي حافلة بالنجاح والمزالق ،
عرّفت القمم والأغوار ، وذاقت الرخاء وعانت الجوع أو التهديد به ،
فقدمت بذلك مادة وغيرة يجد فيها القارئ سلوى وعزاء لما يصادف من
أحداث ، وكيف بحياة يصبح الانسان فيها أستاذاً قبل أن يصبح أستاذاً
مساعداً ، ويخطو برغبته وهو في قمة النجاح من أستاذ الى مدرس ، وكيف
برجل يدخل وظيفة مدرس بالجامعة وهو في الدرجة السادسة ، ثم يعود

فيدخلها نفسها وهو في الدرجة الثانية وعلى وشك أن ينال الأولى • وهكذا مفارقات مختلفة الأنواع تحكى كل منها قصة ذات معنى •

وكيف برجل عاش في الأزهر وأخلص للحياة فيه ، وللطلاب في الأزهر وبخاصة في جيلنا حياة أهم ما تمتاز به التقشف والخشونة والانغلاق ، ثم بعد فترة ليست بالطويلة رأى نفسه طالبا بجامعة من أعرق جامعات الدنيا سمى جامعة كمبريدج ، وحاول أن يعيش مع الأمراء وأحفاد المجد بها كواحد منهم أو ليس بعيدا عنهم ، وعقب حصوله على الدكتوراه بفترة ليست طويلة رأى نفسه بين الدبلوماسيين بالخارج يشغل منصبا مرموقا له كثير من المزايا المادية والأدبية ، ولكن الأهم من ذلك هو أن هذا المنصب وضعه بين الدبلوماسيين العرب والأجانب ، وللدبلوماسيين العرب قصة حافلة بالعجائب لست اعتقد أن الظروف ستسمح لى برواية كل ما أعرفه عنها ، وانتهى على دل حال استطيع أن أشير الى الأحداث ولون الحياة التي يحيها هؤلاء ، لعل في هذا بعض العظة والتذكير •

ولمحات في السياسة الداخلية والخارجية ، ونظرات الى الدواوين والروتين والأخلاق ، بعضها رأيته أنا ورأيت فيه جوانب تدعو للعجب فرويته في هذا الكتاب ، وبعضها يراه الناس معى وكل دورى فيه أن أدوّنه وأعلق عليه مما يجعل هذا الكتاب في كثير من الأحوال تعبيرا عما يجول بنفوس الناس •

* * *

ولهذا العمل ملامح ينبغي أن أوضحها ونحن على عتبة الدخول فيه :

أولا : في رحلة حياتى لن أذكر الأشياء الشخصية التي لا تهم القارئ ، فقد أخذتُ نفسى أن أقدم للقارئ أحداثا لها أهداف ، أقدم تجاربى ومشاهداتى مع التعليق أحيانا ، وبدونه اذا كان الحدث لا يحتاج الى تعليق ، وكل ما أطمع فيه أن يدرك كل انسان أن عيوننا ترقبه وتدوّن تصرفاته من حيث لا يدري ، فيرى الله ويخشى أسنة الأقلام •

ثانيا : لن أكتب أسماء الذين باشروا الأحداث الا قليلا ، وسأدعهم يقرءون عن أنفسهم ، ويقرأ عنهم الناس ، ويكفى أن يرى الانسان نفسه فيخجل ان كان في تصرفه ما يدعو للخجل ، على أن المربين يرون ان الكتابة عن ظالم دون ذكر اسمه تخيف كل الظالمين ، وكذلك الكتابة عن المرتتين والمنافقين ... ولهذا فقد تركت الأسماء غالبا حتى لا يكون في هذا الكتاب أى محاولة للتشهير ، وحتى يكون أوسع دائرة وأعظم اثرا .

ثالثا : ترتبط هذه الأحداث مع « رحلة الحياة » التى هى أساس العمل . فكل مرحلة من مراحل هذه الحياة مشاهدتها وتجاربها ولكن مع ملاحظة أننى عندما أمسك الخيط وأطرق قضية من القضايا أظل معها حتى أستكمل دراستها ، وذلك مثل حديثى عن الأزهر الذى ارتبطت به فى مطلع حياتى . فقد ظلت أدرس مشكلات الأزهر كما أراها حتى الآن ، فتخطيت بها حدود الزمن وقدمتها كاملة .

رابعا : ليس كل ما يعرف يقال ، ولو تعرض انسان فى مثل ظروفنا ليقول كل ما يعرف لكان صعبا أن ترى كلماته النور ، ومع هذا ففيما نذكر بعض الغناء ان لم يكن كل الغناء .

خامسا : اننى أدرك أن الحديث عن النفس غير مستطاب ، ولكن طبيعة العمل الذى نقوم به هنا يستلزم الحديث عن النفس من حين لآخر ، وبعض ما يبدو على أنه مفاخر هو فى الواقع حقائق لا يمكن تجاهلها لتأثيرها فى مجرى رحلة الحياة ، فأرجو ألا ينسى القارئ ذلك حتى يغفر لى ما يخلنه حديثا عن النفس .

وفى ختام هذه المقدمة أدعو الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وهو نعم المجيب .

دكتور أحمد شلبى

فى الثالث من يوليو سنة ١٩٧٣

مقدمة الطبعة الثالثة

كان اقبال القراء على هذا الكتاب عظيما ومشجعا ، ولم يكتف كثير من القراء بالقراءة ، بل كتبوا الى يعلقون على أحداثه ، أو يطلبون مزيدا من التفصيل عن بعضها ، وبعض الجمعيات الاسلامية التي لم يرد ذكرها في الطبعة الأولى كتبت لى عاتبة لأنى لم اضعها بين مراكز الفكر الاسلامى التي كتبت عنها ...

وقد نفذت الطبعة الأولى والثانية منه منذ مدة ولم أقدمه للطبعة الثالثة عقب نفاذ الثانية مباشرة ، بل انتظرت فرصة لأعيد النظر فيه رجاء ان أحقق بعض ما طلبه القراء أو كله .

ويسرنى اليوم أن أقدم هذه الطبعة بعد أن أضفت لها الكثير وأرجو ان تكون أوفى وأشمل ... وبالله التوفيق ،،،

المؤلف

فى الثالث من يوليو سنة ١٩٨٢

مطلع الحياة

قرية عليم :

برزت الحياة في قرية صغيرة اسمها « عليم » بين مدينتي (أبو حماد) والزقازيق بمحافظة الشرقية ، وهي أقرب الى (أبو حماد) ، ولعل أحداً لم يحاول أن يتعرف على أساس هذه التسمية ، وهل هي اشتقاق من العلم أو لها به صلة ؟ لست أدري •

والذي يرى هذا الاسم « عليم » سيقروء بفتح العين ، ولكن النطق الشائع هو بكسر العين ولعله تحريف للاسم الصحيح ، وعلى كل حال فإن ربط اسم هذه البلدة بالعلم شيء لا يعززه التاريخ ، فقد كنت أول الأفواج التي خرجت من هذه القرية تطلب العلم وتسعى لتحصيله •

وكان طلب العلم في مطلع هذا القرن قليل الانتشار ، ومع هذا فإن المنطقة المحيطة بنا عرفت العلم وأقبلت عليه ، ففى القرى المجاورة لنا تسكن أسر عرفت المدن والغنى والعلم منذ أنشئت المدارس ، ولكن هذا الاتجاه لم يدق باب قريتنا الفقيرة ، وقنعت بأن ترسل قلة قليلة من أبنائها « ليجاوروا » فى الأزهر أو مساجد القاهرة مدة عام أو عامين للتعرف على شيء من الفقه الإسلامى ، ثم يعودون للقرية بعد أن يحمل كل منهم لقب « شيخ » كفاء طلبه العلم هذه الفترة بالأزهر أو ملحقاته •

وقريتنا مع فقرها طيبة هادئة مسالمة تتوزع الثروات فيها بشكل أقرب الى المساواة فلا يوجد غنى متخم ولا فقير مدقع ، فالثروات الواسعة والنفوذ العريق الذى تتمتع به بعض الأسر المجاورة لا وجود له فى قريتنا ، ومع اختفاء هذا الغنى اختفى الصراع والتنافس والحقد ، وحل بقريتنا خلق التعاون والود غالباً ، والقرية تمثل أسرة كبيرة ، فالقراية والمصاهرة تربط الجميع ، ولا يكاد يوجد فرد لا يمت للآخرين بصلة من صلات النسب أو القربى •

كلمة عن الأسرة والنسب :

في هذه القرية وُلِدَتْ في العقد الثاني من هذا القرن (القرن العشرين) ، ولكن صلة أجدادي بها غير معروفة التاريخ . فمتى انحدرنا الى هذه المنطقة ؟ لا ندري ، وهناك أقوال أشبه عندي بالأساطير سمعتها من السابقين ، بعضها يرى أن الأسرة تنسب الى حاكم تركي أرسلته الخلافة العثمانية لحكم تونس ، فلما انتهت مدة حكمه تراجع الى مصر واتخذها وطناً له ، وانساب أولاده في عدة نواح بها (١) ، وكان أحد أعمامى المعمّرين يؤكد أن الأسرة عربية تنحدر من ذرية سيدنا أبى بكر ، وفدت الى مصر في عهد الامام على الذى جعل ولاية مصر لمحمد بن أبى بكر . وعندما واجهت عمى بالراى الأول قال أن فروعاً من الأسرة انتقلوا الى تركيا من مصر عقب دخول الأتراك مصر ، وأوفد منهم بعد ذلك هذا الحاكم الى تونس ، ولا يزال بعض فروع الأسرة في تركيا حتى الان ، وهو بهذا يوثق بين الرأيين .

هل هذه أساطير ؟ هل هذه حقائق ؟ لا أستطيع أن أجزم برأى .

واذا كانت هذه الأخبار قد غطى عليها ضباب التاريخ فأوشك أن يحجب عنها الحقيقة فانه ليس من المهم أن نكثر بها ، فخير للانسان أن يتطلع لحاضره ومستقبله من أن يتسلق نحو الماضى .

على أن هناك أخباراً عن أجدادنا هي سليمة أو الى السلامة أقرب ، فيروى أنه كان للأسرة نوع من الثراء ومساحات واسعة من الأرض ، فجاءت

(١) يذكر زامباور في كتابه « معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى » أن من دايات تونس حاكماً اسمه أحمد جلبى (١٠٩٣ — ١٠٩٧ هـ) ولقد سمعت عن محاولات لربط أسرتنا به ، ولكن ليس لدى ما يؤكد ذلك ، وان كان لا يوجد ما ينفيه .

« السلطة » إبان حفر قناة السويس وفي مطلع الاحتلال المبريطاني ، وكان على أصحاب الأتبان أن يقدموا أفراداً منهم ليلخدموا دون أجر فيما يسمى « السخرة » لحراسة الطرق والجسور ، وتخلصا من ذلك استأجر أجدادنا بعض الناس وأطلقوا عليهم اسم الأسرة « شلبى أو جلبى » ليكونوا ممثلين لها أو نائبين عنها فى القيام بهذه السخرة ، ومر الزمن وأصبح هؤلاء معدودين من الأسرة فعلا ، وضاق أجدادنا بمطالب « السلطة » فتركوا أرضهم وتشعبت اتجاهاتهم ، وكان ذلك سبب وجود غروع من الأسرة فى عدة نواح •

واتجهت الأسرة بعد ذلك الى التجارة ، وقد أحرزت الأسرة عن طريق التجارة مالا وغيروا جداً رآه أجدادنا الأقربون وذكروا لنا أن هذه الأموال كانت لكثرتها تقسم لا بالعد بل بالكيل ، وكان الطربوش التركى يستعمل فى كيل الذهب عند قسمته •

واذا كنا قد سمعنا عن هذا الذهب فاننا لم نر آثاره اللهم الا بعض مظاهر البذخ التى شهدناها والتى يمكن أن تكون كفيلا بضياع ثروات يؤخذ منها ولا يضاف لها ، فان التجارة كسدت رويدا رويدا فتلأشى ما كان أو كاد •

أبى :

وكان أبى أرشد أبناء أبيه ، وقد عمل فى تجارة مستقلة عن تجارة الأسرة ، وحقق نجاحاً وغيروا ، واستطاع أن يشتري أرضاً زراعية مساحتها ١٨ فداناً مع تجارته التى كانت تتسع وتتوسع ، فتشمل القطن والقماش والحبوب وأنواع البقالة ، وبأشر أبى الاشراف على زراعة أطيانه واستلزم هذا شراء مجموعة من المواشى وأدوات الزراعة ، ونجحت تجارته وزراعته الى حصد كبير •

ثم مات أبى فى فترة شبابه وأنا طفل فى الرابعة من عمرى ، فضحفت التجارة وانكسرت ولم يبق منها الا بصيحه كان ينتظرنى لأواصل العمل الذى بدأه أبى ، ولكن الظروف اتجهت بى اتجاهات أخرى كما سنرى فيما بعد .

لقد ترك أبى لى ثروة عشت فى رحابها بشىء من الكفاية ، ولكنه ترك لى شيئاً أهم وأعظم من الثروة ، هو الذكر الطيب ، فقد اتسع صدر أبى الى كثيرين من معاصريه فدفعهم للعمل تحت اشرافه ، وساعدهم بماله ومكانته ، وكسب هؤلاء عن هذا الطريق وسائل حياتهم ، وقد رأيت كثيرين من هؤلاء وسمعتهم يتغنّون بالثناء والشكران له ولأياديه ، وقبيل وفاء أبى راح يوزع ثروته بشكل يدعو للاعجاب حقاً ، فقد منح أباه وأخاه وأخته حوالى ثلث أطيانه أو ربعها وترك لى ولأخواتى الباقي ، والحق أنه من النادر أن يعنى انسان بإخوته مع وجود أبناء له ، ولكنى أرى ذلك نوعاً من البر أحاول دائماً أن أحذو حذوه .

التجارة وهل تورث ؟ :

ولنعد لتجارة أبى وللتجارة على العموم لنحدث عنها قليلاً ، ونسأل : هل تورث البراعة فى التجارة ؟ اعتقادى أن التجارة صنعة ككل الصناعات وخبرة ككل الخبرات ، فلا أستطيع أن أكون حداداً أو نجاراً أو معلماً اذا لم أعد لهذا العمل ، وبعض الناس يجهلون هذه الحقيقة ، ويرون التجارة بيعاً وشراءً ويتناسون ما بها من حس وذوق وغن وصناعة ، فتفشل تجارتهم دون ابطاء ، وأمامى صور كثيرة لتجار ماتوا وتركوا تجارات واسعة ولكنهم لم يتركوا أفراداً مؤهلين للاستمرار فى ادارة هذه التجارة ، وكانت النتيجة أن ضاعت هذه التجارة دون أن يشعر مصيرها ، وخير لورثة التاجر الذى يموت دون أن يكون له وريث يجيد التجارة أن تصفى تجارتها فى الحال ، وأن تصبح مالا أو أرضاً زراعية ، والا ضاعت هذه التجارة يوماً بعد يوم حتى تفنى دون أن يشعر مصيرها .

ولقد كانت تجارة أبى من هذا النوع ، كانت واسعة جدا ، رأيت من آثارها الخزائن الحديدية والحوانيت الواسعة ووسائل الكيل والوزن والقياس ، أما التجارة نفسها فقد أخذت تنكمش ، واتجهت الأسرة للحفاظ على هذه التجارة حتى أشب فأتسلمها ، ولكنى عندما نفضت الطوق تطلعت الى ميدان آخر غير التجارة ونفذت تطلعاتى ، وكان ذلك ايذانا بتوقف المحاولة ، وكانت التجارة نفسها قد انكمشت وضمّرت ، ثم زالت نهائيا دون أن نعرف لرأس المال أى مصير . ولولا أن أبى كان قد اقتطع من ثروته بعض المال القليل نسبيا ، واشترى به تلك الأرض الزراعية لكان مصيرنا مؤلما مريرا .

وبعد هذه الالمامة عن الأسرة ، تلك الالمامة التى امتدت من الأساطير الى الواقع الملموس ، بعد هذا نصل الى كاتب هذه السطور وهو يصارع الحياة فى العقد الأول والثانى من حياته :

طفولة الكاتب :

لقد سرت فى العقد الأول فى المجال الذى سار فيه أطفال القرية ، التحقت بالكتاب ، وحفظت القرآن الكريم ، وعرفت تجويده ، وعرفت شيئا من الكتابة وشيئا من الحساب ، وكانت الميول تتجه بى كما أشرت آنفا لاعدادى لأبشر التجارة التى خلفها أبى ، ولم تكن لى رغبة أعبّر عنها قبولا أو رفضا ، فلما بدأ العقد الثانى من عمرى رأيت بعض « الأفندية » فى القرى المجاورة الذين كانوا قد التحقوا بمدارس الزقازيق وعادوا بعد ثلاث سنوات مدرسين بالمدارس الأولية ، وكان هؤلاء أملا لى ومثلا أعلى ، فبدأت أتطلع لمثل هذه المكانة ، وقررت أن أنصرف تماما عن الاتجاهات التى كانت تدفعنى لأزاول التجارة ، وساعدنى على ذلك أن الأيدى التى أسند لها أن تسيّر زورق التجارة لم تنجح فى تسيير هذا الزورق ، فأخذ يهبط نحو القاع ، واتجهت بكل جهدى نحو التعليم .

ولكن مشكلات جمة اعترضت طريقي نحو العلم ، فأنا الابن الوحيد لأبى ، وقد وجدت أمى وأخواتى أن من المستحيل أن أغترب إلى الزقازيق ، فإن ذلك يعرّضنى لأخطار الغربة كما كانوا يتصورونها ، ولم يكن فى قريتى من يستطيع أن يأخذ بيدي لأخطو نحو معاهد التعليم ، ومن هنا حملتُ العبء كله ، وكان يبدو لى ثقيلًا ولكن لذيذاً ، فقد ذهبت أتحنس الطريق لمعاهد العلم وأتساءل عن الأوراق اللازمة ، وأقدم طلباً لشهادة ميلاد ، وأحصل على استمارة التحاق ، وأبحث عن يملأ لى هذه الاستمارة ، وأضل الطريق فى الزقازيق وأنا متجه نحو هذا المكان أو ذاك .

وكان الله معى فى هذه المرحلة القاسية التى تحدّد فيها خطّ حياتى ، فقد كانت مدارس المعلمين هى كل أمنيّتى أو هى الهدف الوحيد أمامى ، فطهرت بابها ، ودخلت امتحان القبول ، ولكن بضاعتى لهذا الامتحان كانت قليلة ، واستعدادى له كان معدوماً ، وأنسى لى أن أعرف المواد التى سيؤدّى فيها الامتحان ، أو الكتب التى ينبغى أن أقرأها لذلك ؟ ومن أجل هذا لم يكن من الممكن أن أنجح فى هذا الامتحان ، ولم يبق أمامى الا باب واحد سمعت الطلاب الذين دخلوا الامتحان معى يتهامون به ، هو معهد الزقازيق ، فأتجهت له على مضض ، لأنه طريق طويل ، ولأن المتخرجين منه آنذاك كانوا — بعد دراسة خمسة عشر عاماً — يتقاضون نفس المرتب الذى يتقاضاه خريج المعلمين الأولية الذى يمضى فى دراسته ثلاث سنوات فقط ، ولم يكن الا المال مقياساً للتفكير ، أما العلم والفكر فكانا أبعد ما يكون عن مستوى تفكيرنا ، ولندع الأزهر الآن فلنا معه حديث طويل فيما بعد ، ولنواصل التعرف على أحداث قريتنا وما سجلته الذاكرة من هذه الأحداث :

من نفوذ الأغنياء بالريف :

قلت فيما سبق ان حياتنا الاقتصادية ارتبطت بالأطيان التى خلّفها لنا أبى ، ولكن هذا المورد هددته القوة العاشمة ، وأنا فى مطلع الصبا ،

س ط ف

فهذه الأرض الزراعية ومساحتها بالضبط ١٧ ٥ ١٢ كانت تحيط بها من كل جانب أطيان واسعة يملكها اقطاعى اسمه حنا ميرهم ، وهو شقيق رجل سياسى شهير اسمه الاستاذ عزيز ميرهم ، وكان حنا بك هو الذى يدير هذه الأطيان ، ولم يكن متزوجاً وبالتالي ليس له أولاد ، ومع هذا فقد وهب المال جهده ، واستحوذ المال على نشاطه وعقله ، ورأى حنا بك أن أرضنا عقبة فى وسط عزبته الفسيحة ، ونتوءاً ينبغى أن يزول ، وقد أوسعنا الرجل اىذاء وعدوانا ، ولم يكن لنا أن نشكو ، فان نفوذ الرجل كان ممتدا الى أقسام البوليس والى كل باب يمكن أن نطرقه ، ولم نجد وسيلة للتخلص منه الا بالخضوع لرغبته واجراء بدل معه ، نترك له أرضنا ونأخذ أرضاً بدلا منها فى مكان آخر ، وتم للرجل ما أراد ، فأزيلت معالم أرضنا ، وابتلعتها مساحته ، وقبعتنا فى الأرض التى أعطيناها ، ولم تكن هذه الأرض جيدة بل كانت رديئة التربة ، لا تقاس من قريب أو من بعيد بأرضنا التى تركناها . وانخفض مستوى معيشتنا الى حد كبير ، ولكن نفقاتنا كانت محدودة فاستطعنا أن نعيش على أى حال . ولم يسمع الرجل لتوسلاتنا ولا لوساطة الآخرين ليعيد لنا أرضنا ، وأذكر أن أحد أعيان البلاد المجاورة هدده بالمستقبل ، وذكر له مكانة أبى وكيف كان مهيب الجانب ، وأن الابن الصبى سيصبح رجلا مكان أبيه ، ومن الأجدر ألا ننتظر هذا المستقبل ، لأن هذا المستقبل سيحمل فى طياته صراعاً لن يكون حنا بك منتصراً فيه لظلمه . ولكن حنا بك ابتسم ساخراً لهذا التهديد .

ومر الزمن ، وجاء دور شبابى وأخذت أطوى العقد الثانى من العمر ، والتحقّت بكلية دار العلوم وكنت أستمع بشخصية قوية وصحة جيدة ، وأخذت من العلم قدرا لا بأس به ، كما كان لى نشاط فى المجال السياسى ، وكنت وفدى النزعة والنشاط ، وعرفت فى هذا المجال السياسى مكانة الاستاذ عزيز ميرهم فى صفوف الوفد ، وتقدمت بكل هذه الطاقات اليه والى حنا ميرهم أطلب الغاء هذا البديل الجائر ، وهددت باثارة المسألة على مستوى عال يصل لزعماء الوفد ، وهددت بوسائل أخرى قانونية ، وكان

عزيز ميرهم مهذباً يخاف على سمعته ، وكان حنا ميرهم ذكياً فوجد من الأوفق ألا ينزل هذا الصراع فوافق سنة ١٩٤٠ على الغاء هذا البذل ، وعدنا من جديد الى أرضنا الطيبة .

وفي مجموعة القرى التى نعيش بها ظهر نوع آخر من الطغيان كان مريـر النتائج ، فلقد كان للأسر الكبيرة المحيطة بنا « محاسيب » بالقرى الصغيرة ، وكانت الأسر الكبيرة تؤيد هؤلاء المحاسيب ان عدلوا أو جاروا ، وقد ترتب على ذلك أن ظلم أناس ، فهبوا يدافعون عن أنفسهم ، فقتلوا وموا بقسوة ، فقتلوا حاقدين يضربون باليمين وبالشمال ، وتعاضمت الأحداث ، ولست أحب أن أسجل فى هذا المجال شيئاً ، فقط أرجو أن يتذرع الناس بالعدل ، فكل ظلم مآله الزوال والدمار ، ولا يحق للقوى أن يخلق لنفسه عداوات ، ولا للعظماء أن يدفعوا الناس الى الاجرام والخطايا .

القرية المصرية وضرورة إعادة تخطيطها :

وقبل أن ندع قريتنا الصغيرة الى الزقازيق نقرر آسفين أن الزمن مر ، وأوشكنا أن نطوى القرن العشرين ، ولكن قريتنا ككل القرى المصرية تزداد تخلفاً وسوءاً ، لقد دخلت المياه النقية قريتنا كأكثر القرى استمراراً لمشروعات بدأت قبيل نهاية النصف الأول لهذا القرن ، وأوشك النور أن يدخل قريتنا وبعض القرى المجاورة ، ولكن هذا وذاك طلاء ضئيل ، أما القرية نفسها بشوارعها الضيقة القذرة ، كثيرة الالتواء ، وأما المنازل الخائفة قليلة النظام ، وأما المصاطب التى تعترض السيارات والمشاة ، وأما أكوام السباح والقاذورات التى تملأ الشوارع وتقف عملاقة فى مداخل كل قرية تستقبل الوافدين والخارجين بروائحها الكريهة ومناظرها الاليمة ، وأما البرك والمستنقعات التى يربى فيها الناموس والديدان والذباب فقد زادت اتساعاً وعمقا ، وكل هذا وسواه يطالعك فى القرية

المصرية لا على النحو الذى شاهده في العشرينات بل على أسوأ وأسوأ مما كان .

ولو عمل تخطيط لاعادة بناء القرية المصرية ، وكان هذا التخطيط بطيئاً طويلاً المدى ، ولو خمسين قرية في العام لأصبح أكثر قرى مصر جيدة التخطيط جيدة البناء ، ولكن المشكلة أن القرية مهمة تماماً ولا يفكر فيها أحد ، تركت نائمة مع مر العصور وتقدم الفكر ، ويحس الانسان بحسرة وأسف عندما يقارن قرانا بقرى اسرائيل التي تصفها الشعارات بأنها « اسرائيل المزعومة » ولم تفعل ثورة الجيش شيئاً على الاطلاق للقرية المصرية للأسف ، وتركتها كما تركت المدن تعيش في ظلام العصور الوسطى .

وانتشر التعليم في قريتنا كما انتشر في أكثر القرى ، وقامت على أثر ذلك بالقرى منازل نظيفة بل « فيلات » فخمة أحياناً ، ولكن هذا قليل تراه متناثراً هنا وهناك ، أما المجموع فلا يزال يرزح تحت أعباء السفين ، وقد يبنى المتعلم بيتاً فخماً ، ولكن سرعان ما يحس أنه غريب في القرية لأن طريقه الى هذا البيت صعب مدمر ، ولأن المناظر الكريهة تحيط بمنزله من كل جانب ، فلا يلبث أن يدع البيت والقرية الى غير رجعة .

لقد أهملت الدولة القرية تماماً ، وأهملت المحافظات القرية كذلك ، ونحن نعتب على المسؤولين هنا وهناك ونذكرهم بذلك ، ولكن أهل القرية أيضاً يتجه لهم بغض العتب ، فطالما تعاونوا لبناء مسجد واعداد أضرحة ، فهل يظنون أن هذا هو الاسلام فحسب ؟ لا . ان عمارة الدنيا من أهم ما دعا اليه الفكر الاسلامي واقتضته الحياة الكريمة التي يجب أن يستمتع بها المسلمون ، ولهذا يتحتم على أهل القرية أن يتعاونوا لتنظيمها وتحسينها وتذليل الطريق اليها .

وقد زرت قريتنا مرة وكنت أنوى أن أقضى بين أهلى ورفاق صباى أسبوعاً أو أسبوعين ، ولكن الليلة الأولى كانت مريرة فانتظرت الصباح

بصبر أو شك أن ينفذ ، وفي مطلع الصباح شددت الرحال عائدا الى القاهرة ، لماذا ؟ لقد كان الناموس يمثل جيشا من الأعداء هاجمنا بقسوة ، فلم نستطع أن نجلس أو أن ننام ، ولم يتجدد معي أى دواء ولم تنجح الكله « الناموسية » فى حمايتنا ، فودعنا البلدة آسفين ، وبعد أسبوعين اتصل بى أهلى بالقرية ودعونى لزيارتها وأكدوا أن الناموس قد اختفى تماما ، وأسرعت فكلبتيت الرغبة ، ووجد الناموس قد اختفى فعلا ، فتنساءلت عن السبب ففيل لى : ان وزارة الزراعة قامت بعملية رش للقطن فأهلك الدواء الناموس ، وهكذا كانت عناية الدولة بسلامة القطن أكثر ألف مرة من عنايتها بسلامة البشر والمواطنين الذين ينتجون هذا القطن وسواه .

دعوة حارة فيها كثير من الطموح ولكنه طموح ضرورى ، هو أن نعيد بناء القرية المصرية ونعيد تنظيمها ، وأن نشترك الجهود الحكومية وجهود المحافظات وجهود الأفراد فى ذلك ، كل بقدر طاقته العلمية والمالية والجسدية .

وكلمة ختامية أرجو أن تبعث الغيرة فى نفوس المصريين ، هى أن القرية فى السودان أجمل جداً من القرية المصرية وأدق تنظيماً ، وهى كذلك شديدة النظافة ، أما اسرائيل عدوتنا اللدود فقد أعادت بناء القرى والمدن فى أكثر فلسطين ، فلنتجه لهذا الهدف ، وليس شئ بصعب على من يحاول العمل بجهد واصرار .



والآن هيا بنا نشد الرحال الى الزقازيق لنبدأ جولة مع الأزهر الشريف ، ولنتابع رحلة الحياة فى هذا المعهد العريق منذ دقت بابه حتى نظرنا نحوه عند كتابة هذه السطور .

الأزهر

مكانة الأزهر ومكانة علومه :

الأزهر هو ذلك المنار العملاق الذي ترغرف رايته على الكون منذ أكثر من ألف عام ، حرس الفكر الاسلامي في كل الظروف وأمام كل القوى ، وارسل أتبعته عبر البلاد وعبر البحار دون أن يعوقه عائق ، فكان طيلة عدة أجيال المكان الوحيد في العالم الاسلامي الذي سطع فيه نور العلم يوم خبا ذلك النور في كل مكان ، ثم كان الملاذ الذي اختير منه المبعوثون لدراسة الطب والهندسة وغيرها من العلوم المدنية يوم بدأت النهضة في مصر لاهياء هذه العلوم .

فلنعش مع الأزهر ردحا من الزمن لنراه وهو يكبو ويفيق من كبوته ، ولنراه وهو يصارع الزمن ليظل يخدم الاسلام في مختلف الأرجاء .

وقد كانت خطوتى الأولى نحو التعليم هي دخول معهد المرقازيق ، أحد فروع الأزهر الشريف ، وكان ذلك في مطلع الثلاثينات ، ومنذ ذلك الحين لم تنقطع صلتى العلمية بالأزهر ، عشت فيه طالبا فترة طويلة وتلقيت فيه علوما لم أكن أحس يومها أنها علوم تخدم الاسلام ، وإنما كانت مزيجا من الفكر ، النحو والصرف والعروض والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والحساب ... وكانت في مجموعها تسلم الطالب من فرقة الى فرقة ، ويرجى أن تسلمه في النهاية الى وظيفة يتعيش منها .

واذا كان الطابع الروحي قد اختفى من دراستنا ، فانه قد وجد في زينا ، زى الشيوخ الذين كان عليهم ، بحكم هذا الزى ، وبحكم الانتماء الى الأزهر بشكل عام أن يكونوا من المتحمسين للاسلام والنقطة فيه .

وكان علوم الأزهر كانت بذورا عاشت في نفسى مدة طويلة ، فلما هطل عليها وابل الفكر فيما بعد بدأت تتردهر وتنمو ، وكانت خير عون لى عندما هياتنى الظروف للتعرف الحقيقى على ديننا الحنيف من خلال دراسة « الحضارة الاسلامية » و « مقارنة الأديان » فقد وجدت أن رصيذا ضخما

من دراساتي بالأزهر يمكن أن يَنْتَفَع به ، وأخذ هذا الرصيد يتحرك
فأمدّني بكثير من الوسائل التي حملتني الى الغايات التي بدأت أتطلع لها
لخدمة الدين ، وخدمة الانسانية عن طريق هذا الدين .

لقد درست في الفقه موضوع تعدد الزوجات وموضوع الطلاق ونظام
الميراث والرق ، وحفظت رأي الاسلام في هذه الموضوعات وما مائلها ،
ولكني لم أعرف شيئاً قط عن فلسفة الاسلام تجاه هذه الدراسات ، ولم
يفكر الشيوخ ولا المراجع القديمة كلمة واحدة عن أسباب اتجاه الاسلام
نحو تعدد الزوجات أو اباحة الطلاق ، أو الأخذ بهذا النظام في الميراث
أو الرق ، ولم يكن في طوقى بناء على ما تعلمته في الأزهر أن أدافع عن
الاسلام اذا هاجمه من يرى أن تعدد الزوجات بلاء ، وأن الطلاق تدمير
للبيوت ، وأن من الظلم ألا نساوى المرأة بالرجل في الميراث ، وأن نجيز
الرق ، فلما بدأت فيما بعد أدرس تشريعات الأديان الأخرى ، وأقارن
بينها وبين الاسلام ، ولما بدأت أدرس فلسفة التشريع الاسلامي اتضح
لي ما لم أعرفه في الأزهر ، ولكن علوم الأزهر كانت على كل حال أساساً لكل
ما عرفت فيما بعد .

من أجل هذا تجدني شديد الوفاء للأزهر ، شديد الحرص على خدمته ،
سعيداً بالارتباط به ، وأنا أعرف أن كثيرين من الناس الذين لهم جذور
أزهرية يخفون هذه الجذور ، ويضيعون بذكرها ، ولست من هؤلاء ، فان
أول جملة تقرؤها في التعريف بي على ظهر غلاف هذا الكتاب وسواه من
كتبي أننى تلقيت علومى في الأزهر .

ولكن الصورة الحقيقية لانتفاعى بالأزهر يمكن أن تتضح اذا تصورت
أنك زرت يوماً صديقاً لك فأعطاك قطعة من حجر ، لم يوضح لك قيمتها ربما
لأنه هو نفسه لا يعرف قيمتها ، وبالتالي لم تعرف أنت لها قيمة ، وألقيتها
في متاعك غير حريص عليها ، ومرت الأيام فقابلت رجلاً صناعاً علمك
القدرة على التعرف على الأحجار الثمينة وعلى أن تصوغ منها أجمل حلى
وأنفعة ، وتحسست الحجر الذى أخذته يوماً من صديقك فوجدته ثميناً

جدا ، ورحلت تخرج منه حلياً تخبب الأنظار ، وكان من الوفاء أن ترداد حبا لصديقك الذى منحك هذا الحجر ، وأن يعيش ذكره الطيب فى خلدك •

فالذين اعترفوا بصلتهم القديمة بالأزهر واغتخروا بها هم الذين تعرفوا على قيمة الأحجار الثمينة التى أخذوها منه ، أما الذين لم يتعرفوا على قيمتها فقد تنكروا للأزهر وربما ألقوا بهذه الأحجار بعيدا عنهم لأنهم لم يروا فيها الا ثقلا ترزح به حقائبهم •

حساسية الأزهرين :

وفاؤنا للأزهر الذى يدفعنا لتخصيص مساحة كبيرة للحديث عنه فى هذا الكتاب ، يجعلنا حريصين على الصراحة معه وعلى الرغبة فى أن نجعله كما ينبغى أن يكون ، ولكن شيئا مهما يعيش فى الأزهر وتتعمق جذوره فيه ذلك هو « الحساسية الشديدة » فأى نقد للأزهر يثير ثائرة الكثيرين من الأزهرين ويغضبهم ، ولست أدري هل يرى هؤلاء فى الأزهر أنه وصل الى درجة الكمال فليس فيه موضع نقد ؟ لا أظن أن أحدا فى الأزهر يرى هذا الرأى ، فالكمال لله وحده •

هل يجب الأزهريون أن يبقى الأزهر بعيوبه دون اصلاح ؟ •

لا أظن ، فمن الوفاء للدين وللأزهر أن نعرض عيوبه ونحاول اصلاحها •

الذى أعتقد أنه الأزهرين رأوا أزهرهم هدفا لنقد غير موضوعى أحيانا ، ولنقد غير بناء أحيانا ، ورأوا كذلك محاولات للنيل من الأزهر على أن ذلك وسيلة للنيل من الاسلام باعتبار الأزهر أقوى حصن يخدم الاسلام ، ومن هنا أساء الأزهريون الظن بأى نقد يتجه للأزهر وتحمسوا للرد على ذلك النقد •

وفى حديث نشر لى بجريدة الأهرام فى مطلع عام (١٩٧٣) ذكرت

أن علم « مقارنة الأديان » لم يأخذ مكانة في الأزهر وكذلك دراسة « الحضارة الإسلامية » على النسق الجديد ، وقد قابلني عقب ذلك صديق أزهرى ، ووجدته غاضبا لذلك ، وذكر لى أن زملاءه ساءهم هجومى على الأزهر

وانا لم أهجم على الأزهر وانما أشيد بذكره في كل مجال ، ولكنى أريد له الخير والتطور ، ونقدي للدراسة فيه موضوعي بنّاء رجاء أن يلعب الأزهر دوره في كل العالم ، وأن يسترد مكانته في البقاع التي اهترت بها هذه المكانة .

واللهم أشهد أنني لا أريد الا الخير ، ولا يدفعني الا الصالح العام ، وسيكون حديثي عن الأزهر حديث عارف به ، طالبا فيه وأستاذا به ، حديث رجل ارتبط به من مطلع الثلاثينات ولا يزال على صلة به ، وتنمو هذه الصلة من يوم الى يوم ، وأدعو الاخوة الأزهريين الى دراسة ما أكتبه دون حساسية فليس فيهم من انتفع بالأزهر أكثر مما انتفعت ولا من يحبه أكثر منى .

والآن هيا بنا لدراسات عن الأزهر الشريف ، فيها حقائق وذاكرات ونقد وأمل .

في معهد الزقازيق :

من الناس من يؤمنون بالقدرية ومنهم من يتنكرون لها ، ولكنهم جميعا لو تدبروا أمرهم برفق وأناة لرأوا القدر يلعب في حياتهم دورا كبيرا ، وأنا آخذ بالوسائل والوسائط قدر الطاقة ، ولكنى أومن أن القدر يتصرف ، وأرضى بتصرفه عندما لا توصلنى وسائلى الى الغاية التي أرجوها ، وعندما ينصرف بي القدر الى غاية أخرى ، وكثيرا ما كانت الغاية التي أرادها لى القدر أنفع وأمثل .

لم يكن الأزهر في حسابى — كما قلت من قبل — يوم تطلعت الى العلم ،

وكانت أطماعى تقف بى عند مدارس التعليم الأولى ، وتصور الفرق الشاهق بين ما أردته لنفسى وما أراده لى القدر ، لقد كنت أقنع بتعليم يوصلنى الى مدرس بالتعليم الأولى ، ولكن الله تعالى فى سماه سدّ فى وجهى هذا الطريق ، وفتح لى طريقا آخر أفسح وأبعد مدى ، وكنت أرانى حزينا يوم لم أنل منأى ، ولم أكن أعرف أن ما ادخرته السماء لى كان أعظم وأعظم .

شكراً لله على ما منح عبده ولا يملك العبد الا شكر سيده .

على أن باب الأزهر لم يفتح لى ببسر يوم طرقتة ، حين لم يبق سواه أمامى وسيلة للعلم ، فقد ذهبت الى معهد الزقازيق صبيحة يوم سبت ومعى كل أوراقى ، ووقفت أمام الكاتب الذى يتلقى طلبات الراغبين فى الالتحاق ، ولكن الكاتب ردّنى قائلاً : ان موعد قبول الأوراق انتهى يوم الخميس الماضى .

يا لله .. لقد انتهى آخر خيط من الأمل فى العلم .

واتخذت ركنا وقفت فيه هنيهة ، وهناك قفزت دمة من عيني ، والحق أننى لم أدع الله أن يجعل لى مخرجاً ، فلم أكن أعرف آنذاك أن دعاء الله قد يفتح الأبواب المقفلة ويجعل المستحيل ممكناً .

ورأيت فى موقفى هذا شيخاً بدين الجسم ، يرغل فى ثياب فاخرة ، يتجه نحوى ويسألنى برفق عن سبب كآبتى .

ولنقف عند ذلك الشيخ وقفة ، انه الاستاذ الشيخ أحمد شفيع السيد ، عرفته فيما بعد ، وتوثقت صلتى به ، كان شاعراً ممتازاً ، مرهف الحس ، طيب النفس ، والشاعر المرهف الحس يشارك الناس آلامهم أكثر مما يفعل الآخرون ، ولذلك اندفع نحوى وسألنى عما يحزننى ويكيني ، فلما قصصت عليه قصتى ، قال : تعال معى الى شيخ المعهد لعله يجد حلاً لمشكلتك . وتصادف أن شيخ المعهد كان يخطر بمشية رزينة نحونا

فاندفعنا اليه ، وعرض عليه فضيلة الشيخ شفيع قضيتي فأصدر أمرا
للكاتب المختص أن يقبل أوراقى قائلًا : خذ أوراق هذا الطالب فقد يكون
انسانا نافعا • وتناول الكاتب الأوراق منى •

من الحق على أن أعطر هذا الكتاب باسم شيخ المعهد ، انه فضيلة
الاستاذ الشيخ عبد الحكيم عطا ، وكان رجلا مهيب الطلعة ، تقرأ الصفاء
في وجهه وتحس الاخلاص في كيانه ، انه من الهبات الخلقية والعلمية التي
لا تتكرر كثيرا جزاه الله عنى أحسن الجزاء •

ولنمش مع فضيلة الشيخ شفيع سطورا أخرى ، لقد نسي الرجل
معروفه الذى قدمه لوجه الله ، وتغير شكله بعد ذلك من صبي يلبس
الجلباب الى طالب يلبس الكاكولة والعمامة ، فلم يكن من اليسير على
الشيخ أن يميزنى بين مئات الطلاب ، وما كان هذا يعنيه ، ولكنى كنت
أعرفه تماما لأن شكله لم يتغير طبعًا ، ولما تقدمت بى السن ، وبدأت
أقرض الشعر وأجيده ، توثقت حسلتى به ، فقد كان رائد الشعراء من
الطلاب ، وكنت أعامله باجلال لا كمعلم فقط بل باسم العون الكبير الذى
قدمه لى ففتح لى بابا كان مقفلا ، ولم أخبره قط بتاريخه معى ، ولذلك
كان يدهش من شدة اجلالى له ومحاولتى تقبيل يده رغم كبرياء الشباب
تجاه هذه العادة •

الخير لا يخفى :

ومر الزمن ... ودخلت دار العلوم وسافرت الى بعثة وعدت دكتورا
مدرسا بكلية دار العلوم وأسرعت الى بيته أحياه وأسأل عنه ، وكان
يهش لذلك لأنه لا يعلم سبب كل هذا التقدير الذى لا عهد له بمثله من كل
تلاميذه ، وفى يوم تلقيت بطاقة منه يحملها طالب يريد الالتحاق بكلية دار
العلوم وكان مجموعه أقل قليلا من المجموع الذى حددته الكلية لمن يقبلون
بها ، ويقول شيخى فى البطاقة : ان هذا الطالب قريبى وأنا أتوسل بك أن
تساعده ما أمكن •

يا لله ... لقد هزنتى هذه البطاقة هزا عنيفا ، وقلت لنفسي : اليوم
آن الأوان أن أوفّي الدين ، وأسرع لأستاذنا الدكتور ابراهيم سلامة
رحمه الله وقصصت عليه القصة بكل دقة وكان يقوم بعمل العميد فضحك
وصفق وقال : ان الدين لا بد أن يقضى ، واتخذت الكلية قرارا بتخفيض
المجموع الذى اشترطته درجة أو درجتين لتفتح الباب لهذا الطالب ولكل
من يحمل مجموعه ، وسددت بذلك ديننا كان قد مضى عليه أكثر من
عشرين عاما .

ودعاء من الأعماق أن يرحم الله أولئك الذين يسروا سبيل العلم لى ،
وأن يجعل لهم ثوابا عن كل عمل أقوم به لخدمة الدين والوطن ، فما كنت
لولاهم بمستطيع أن أفعل شيئا .

وهمسة الى القارىء أن يعمل الخير حبا فى الخير غير مترقب له أى
جزاء ، وليتأكد أن الجزاء لن يضيع ، وصدق الله القائل « ان الله لا يضيع
أجر المحسنين » ورحم الله الشاعر العربى الذى قال :

لا يضيع العرف بين الله والناس

ولنعد الى أحداث الحياة بمعهد الزقازيق لأقرر أننى اتجهت الى
العلوم التى كانت تلقى لى بينهم ، كالظمان يصادف الرى ، وكالجائع
الضارى يحصل على الطعام ، ولقد أخلصت للعلوم كل الاخلاص ، وعنيت
بالدروس كل العناية ، فلم يحصل أننى تخلفت مرة واحدة عن درس ،
أو انصرفت لحظة واحدة عن معلم ، وكنت الى جانب ذلك حسن الصلة
بزملائى وشيوخى . وسرعان ما جنيت ثمار ذلك الجهد وهذا الاقبال ،
فقد دخلت امتحان النقل للفرقة الثانية الابتدائية ، وأعلنت النتيجة فكنت
الثالث بين مئات الناجحين ، ويعلم الله أننى الى أن تلقيت الشهادة بذلك لم
أكن أعلم أن هناك ترتيبا بين الناجحين ، وكانت حياتى الساذجة البسيطة

تخيّل لى أن المسألة نجاح أو رسوب فقط ، فلما تلقيت الشهادة بهذا الترتيب أحسست بعاملين متناقضين يعتوراننى ، العامل الأول السرور بهذا التقدم ، والعامل الثانى القلق والتساؤل : لماذا لم أكن الأول ؟ وبماذا يفضلنى الأول والثانى اللذان سبقانى ؟ وخطر ببالى أن الأول والثانى ربما كانا من الذين رسبوا فى العام الماضى ، فهم — بسبب بقائهم سنتين فى الفرقة الأولى — أقدر على العلوم من الذين أمضوا سنة واحدة ، وتساءلت عن امكان ذلك ، فقيل لى : ان الراسبين لا يطمعون الا فى النجاح ، والغالب أن مواهبهم لا تؤهلهم للسبق • وعدت للتساؤل عن سبب تأخرى عن سواى ، وأزمنت أمرا •

وفى الأعوام التالية بالقسم الابتدائى والثانوى حققت أمنيتى ، وأصبحت الأول دون منازع فى كل امتحان دخلت فيه بما فى ذلك الشهادة الابتدائية والشهادة الثانوية على كل معاهد القطر •

طرفة عن المنافسات :

ولم تخل منافساتنا البريئة من طُرف ، تحضرنى طرفة منها ، فقد كان لنا زميل لا يهتم بالترتيب أو قل لم يكن له نصيب فيه ، وحدث فى احدى الفرق أن قفز الى الخمسة الأوائل فأصبح الرابع وكان هذا فوق آماله ، فلم يتمالك نفسه وراح يلوح بشهادته وأنه الرابع ، ولا بد أن يكون الأول فى العام القادم •

لقد غفرنا له سروره بتقدمه لأن ذلك كان طرفة كبيرة بالنسبة له ، ولكن أطماعه فى أن يكون الأول فى العام القادم كانت — فى عالمنا — تحمل تهديدا لى ، بابعادى عن مركز أصبح بالنسبة لى حقا تاريخيا ، وأمام هذا التحدى أعلنت موقفى وهو أننى ملتزم بأن أبعد هذا المتنوع عن العشرة الأوائل جميعا ، واثارت بذلك عاصفة من الضحك بين الزملاء فاذا كنت أستطيع أن أحافظ على مكانتى كأول الناجحين فكيف لى بابعاده عن

التسعة التاليين للأول ؟ وأجبت بأننى سأتعاون مع مجموعة من الزملاء لأضمن لهم السبق عليه •

وتعاونت فعلا ، ولكن الزميل كفانا مئونة المشقة فانحدر الى حيث كان بعيدا بعيدا عن الصفوف الأولى •

أزهرنا لم يعرف الامتحان في المقروء :

ولم يكن فى أزهرنا الآفة التى ظهرت فيما بعد وعششت فى الأزهر واستقرت فيه ، وهى ما يسمى « الامتحان فى المقروء » أنها آفة مريرة عرّفت طريقها للأزهر فحرمت الطلاب من الفكر والثقافة ، وأصبحوا يحضرون الدروس فترات قصيرة يضربون بعدها عن الحضور للمذاكرة ، وينادون بأن الامتحان فى المقروء ، والمقروء قليل ، ويضيع العلم من عام الى عام حتى يتخرج الطالب بحصيلة ضئيلة من الفكر والعلم •

وقد كان أزهرنا مثال النظام والذقة ، وكانت الدراسة لا تتوقف الا قبل الامتحان بأسبوع أو أسبوعين حين تعلن الادارة ذلك لاعداد الأمكنة للامتحان ، وكانت المواد موزعة على الفرق ، يسلم بعضها الى بعض بحيث لا يبقى باب بدون دراسة • فقد درسنا الفقه مثلا فى القسم الابتدائى مرتين ، وفى القسم الثانوى مرتين من أول باب الطهارة الى آخر باب الرق والوقف ، درسناه مجملا فى الفرقة الأولى الابتدائية اعتمادا على كتاب أبى شجاع الذى حفظناه وفهمناه مستعينين بشرح ابن قاسم عليه ، ودرسنا الفقه كله بكثير من التفصيل فى الفرق الثلاث التالية : الفرقة الثانية والثالثة والرابعة فاستوعبنا خلال هذه السنوات شرح كفاية الأخيار على أبى شجاع •

وفى القسم الثانوى درسنا الفقه كله بمزيد من التفصيل فى الفرق الثلاثة الأولى ، ثم شرحنا أهم قضاياها فى الفرقتين الرابعة والخامسة •

والذى حدث فى الفقه حدث فى النحو والصرف والتفسير
والحديث ، شمول " لأبواب المادة كلها ، والتطور بدراستها من مرحلة
الى مرحلة •

وعرفنا قسطا كبيرا من العلوم المدنية : الحساب والجبر والكيمياء
والطبيعة والجغرافيا وغيرها •

ويمكن القول اننا خرجنا من معهد الزقازيق بثروة وفيرة فى كل
العلوم الاسلامية واللغوية ، ثروة لم نحتج بعدها لمزيد ، وكل ما احتجنا
له بعد ذلك هو حسن استعمالها والانتفاع بها وبعث الروح فيها ، وهو
ما حاولته بعد ذلك فى دار العلوم وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج وحتى
الآن •

أحداث بالمعهد :

وفى معهد الزقازيق حدثت لى أحداث يتحتم تدوينها ، وكان الحدث
الأول قبيل امتحان الفرقة الرابعة الابتدائية أى قبيل امتحان الشهادة
الابتدائية ، وكان لهذه الشهادة آنذاك مكانة ملحوظة ، فهى أول لقاء بين
طلاب المعاهد الأزهرية فى كل مكان ، وبهذا تبرز المنافسة بين المعاهد ،
ويحاول كل معهد أن يدفع من طلابه مجموعة لتكون بين الأوائل فى
الترتيب العام •

وتطلعت للسبق وأعددت نفسى له ، ولكن قبل الامتحان ببضعة
أسابيع حدث حادث عكر الصفوف ، وكاد يغير مجرى الحياة : فلنسر مع هذا
الحادث خطوة خطوة •

كان من وسائل اهتمامى بالاستعداد للشهادة الابتدائية أن التحقت
بالقسم الداخلى بالمعهد ، وكان للقسم الداخلى مشرف من ائمةاء ، وكان
هذا المشرف سمحا وصديقا للطلاب . وفى أمسية من الأمسيات كنت أجلس

مع بعض الرفاق نأكل بعض خيرات الريف البسيطة من البلح والفسول السودانى ... فدخل علينا الشيخ المشرف وتبسط معنا كعادته ، ودعونا ليشاركنا ، فاستجاب بكرم نفس وتناول بلحة أو بلحتين ، ودخلنا معه فى حديث حول خيرات الريف المصرى ، وقلنا له ان من الشرف لنا أن يقبل بعض هدايا من هذا النوع لأسرته موضحين أن ثمنها المادى لا قيمة له ، وأن قبولها سيجعلنا نحس بالذلة وود بيننا وبينه ، وأصر الرجل على أن نصرف النظر عن هذا الموضوع ، ولكننا تمسكنا به ، ولعلنا فى الأسبوع التالى — وكنت أسافر للبلدة كل أسبوع — أحضرت له هذه الهدية المتواضعة ، وفعل زميل آخر مثل ذلك ، وكانت القيمة المادية لكل هدية لا تتجاوز قروشاً تعد على الأصابع ، ولم يكن لنا عند الرجل حاجة على الإطلاق ، فالهدية هدية بكل معنى الكلمة وبسيطة بكل معنى الكلمة كذلك .

وبعد فترة برز خلاف بين شيخ المعهد « الشيخ أحمد مكي » وبين هذا المشرف ، وحاول شيخ المعهد غفر الله له أن يجمع هبات للمشرف ليوقع به ، وذكر له أحد المفراشين قصة البلح والفسول السودانى ، فاستدعانى شيخ المعهد وسألنى عن ذلك فأنكرت ، وأنكر زميلى الآخر كذلك ولكنى ، تحملت أكثر الضغوط ، وقابلته بانكار رزين ، فقد قدّرت أن من الظلم أن أتسبب فى عقوبة انسان برىء ، وأن تكون هذه البلحات سبباً فى تهديد مستقبل شيخ فاضل وتهديد مستقبل أسرته ، ولم يكن لنا مستقبل نحرص عليه .

وهددنى شيخ المعهد بالفصل من المعهد اذا لم أعترف ، فقلت « وليكن » وطردنى من المعهد ، فحملت متاعى على كتفى وعدت للقريّة ، وشجعنى أهلى جزاهم الله خيراً وفضلوا الفصل من المعهد على كلمة الشر ، وخيل الى اننى عدت من جديد لأبشر التجارة بالريف كما كان أبى يفعل أو لأبشر الزراعة .

ومر أسبوع وأسبوعان ثم ذهبت متسللاً الى المعهد لأتأكد من أن قرار الفصل قد صدر ، أو لألتمس عفواً ، وهناك عرفت أن هناك مراقبة عامة من خارج المعهد تشرف على امتحان الشهادة الابتدائية

(كونترول) وأن رئيس لجنة المراقبة اسمه الشيخ « جاب الله » فاندفعت له وسألته : هل أنا ممنوع من دخول الشهادة الابتدائية ؟ فأجاب دون تفكير : ليس بين طلاب الشهادة الابتدائية مَنْ هو ممنوع من الامتحان . وسألني عن اسمي ، وطلب الكشف ، وطمأنني بأن اسمي مدرج بالكشوف وليس هناك شيء ضدي . ولما عرف سبب سؤاله وعرف تفوقى ، هدأ من روعى وطمأننى وأكد لى أنه المسئول الوحيد عن الامتحان وليس لسواه سلطة على الاطلاق فى هذا الامتحان وعاد يسألنى عما اذا كنت مستعدا للامتحان كما ينبغى ، فذكرت له ان استعدادى هو استعداد من يطمع فى أن يكون أول الشهادة فى القطر . فابتسم ودعا لى .

ودخلت الامتحان التحريرى ولم يكن بالنسبة لى الا اغنية جميلة رحت فيها أنمق الاجابة وأجمّلها حتى استحققت النهايات الكبرى ربما فى كل المواد ، وفى أحد الامتحانات جاءنى شيخ المعهد مكفرا ، وطلب منى أن أقف ليفتشنى فقد تكون معى بعض المذكرات ، وسخرت منه لأنى أستطيع أن أكتب من الذاكرة أروع مما يوجد فى المذكرات ، وبعد لحظات رأيت الشيخ جاب الله يهرول نحوى ودفع شيخ المعهد أمامه وهو يقول : اتركه يا سيدنا الشيخ ، اتركه يا سيدنا الشيخ .

وجاء الامتحان الشفوى ، وكان يَحْسَبُ له كل حساب ، فحضر الشيخ جاب الله بنفسه ، وعرضت على اللجنة جهدى ، ففى النحو مثلا كانت ألفية ابن مالك هى المقررة ، وكنت أحفظها عن ظهر قلب ، وأعرف شرحها تماما ، بل ذهبت الى مدى أبعد ، فان ابن عقيل فى شرحه على الألفية كان أحيانا يختلف مع ابن مالك ، ويذكر شروطا غابت الألفية ، وكنت — وقد بدأت أنظم الشعر — أكمل ألفية ابن مالك بإضافة بعض أبيات أنظمتها على نسق الألفية تحتوى الشروط التى غابت ابن مالك ، وفى المحفوظات — كما كنا نسميها — قرأت لهم من شعري بالاضافة الى شعر الشعراء ، وكانت جلسة جميلة رائعة استحققت فيها تقدير الأساتذة واعجابهم ومنحونى

أرقى الدرجات ، وكنت أول الناجحين في الشهادة الابتدائية وبينى وبين الثانى أكثر من أربعين درجة .

أغلب الخن أن الذين أساءوا والذين أحسنوا فارقوا هذه الحياة الى رحمة الله ، ولكن الذكريات لا تموت .

في القسم الثانوى :

ودخلنا القسم الثانوى بالمعهد ، واعترانا شىء غير قليل من الزهو والغرور ، ونحن ننظر لطلاب القسم الابتدائى على أنهم صغار ونحن عمالقة ، وكان هؤلاء ينظرون لنا باعجاب وتقدير ، يحتذون حذونا ويرونا قادة وزعماء . وهناك طرفة توضح مكانة القسم الثانوى بالنسبة للابتدائى آنذاك . هى أنه كان بالقسم الثانوى فراش سودانى اسمه نور وكانت له بطاقة كتب عليها :

محمد نور

فراش ثانوى بمعهد الزقازيق

وفى القسم الثانوى بدأنا نتطلع للحياة ، وثابرننا على قراءة مجلة الرسالة والاسلام وتربى عندى ذوق أدبى كان قد بدأ ظهوره فى أواخر القسم الابتدائى ، وتعرفت على دواوين الشعراء ، ورحت أقرأها وألتهم ما بها من صور وفن وبخاصة شعر المتنبى وأحمد شوقى ، ولم يمض وقت طويل حتى كنت أحفظ أكثر الشوقيات وأكثر مسرحيات شوقى ، ورحت أقرأ للعقاد والمازنى وطه حسين وأحمد أمين ، ونما ما عندى من ذوق أدبى من عام الى عام . وأصبحت بين خطباء المعهد وشعرائه ، وكانت الحركة الوطنية تنمو واستطاع الشباب المتعلم أن يُلْزِم الزعماء بأن يتحدوا لتتم المفاوضة مع المستعمر الانجليزى تمهيدا للمعاهدة التى جاءت على أثر ذلك وهى معاهدة سنة ١٩٣٦ . والمهم أن هذا الاتجاه دفع بى الى جو الخطابة والى المجتمعات والسياسة . وقد تعلمت كثيرا من هذا الاتجاه . وكان من أهم ما تدربت عليه وقفات الخطابة بين الجماهير . والشعر الحماسى

الذى طالما أطلق الأكف بالتصفيق ، والشعر العاطفى الذى عبّر عن أحاسيس الشباب وخفقات القلوب •

وسنعود للحديث عن الشعر بعد قليل ، ولكن الذى يلزم أن أذكره هنا أن هذا الاتجاه الأدبى الجماهيرى لم يقلل اهتمامى بالتفوق العلمى فحافظت تماما على أن أكون الأول بين الطلاب طيلة القسم الثانوى •

وفى نهاية القسم الثانوى حدث لى حادث أثّر فى مستقبلى ، فقد كنت ابتداء من الفرقة الرابعة الثانوية أعددّ من أهم زعماء طلاب المعهد أو طلاب الزقازيق جميعا ان لم أكن قد أصبحت أهمهم ، وكنت أتزعم الحركات الوطنية للطلاب بهذه المنطقة ، وكنت بمعهد الزقازيق على صلة بباقى المعاهد الأزهرية ، وباللجنة العامة بالقاهرة ، وفى تلك الأثناء كانت هناك حركات سياسية قبيل الحرب العالمية الثانية وحركات تتصل بمستقبل الأزهر ، وكانت اللجنة العامة بالقاهرة ترسل لى خطابات عن الخطط التى تتبع ، أو تسأل رأى عن اتجاه الطلاب نحو نقطة ما ، وقد سمح شيخ المعهد الشيخ سليمان نوار لنفسه ، سامحه الله ، أن يفتح هذه الخطابات ويعرف ما بها ، فلما أعلننا مرة الاضراب متعاونين مع باقى الطلاب لخير مصر وخير الأزهر ثار الشيخ وأصر على الانتقام ، وكان يعتقد أن الانتظام فى الدروس هو فوق الوطنية وفوق الاصلاح ، وأنه قد ينيله حظوة عند بعض ولاية الأمور ، حظوة تقدير لحزمه على الأقل ، فأنزل بزعماء الطلاب عقوبات قاسية ، شملت الفصل من المعهد ، والحرمان من دخول الامتحان عاما أو الحرمان من دخول الدور الأول ، أو قطع بدل الجراية عن الطلاب بضعة شهور ، وقد شفع لى تقدمى ورضاء جميع الشيوخ عنى ، فكانت عقوبتى الحرمان من دخول الدور الأول ، وأمضيت صيفا مريرا أستذكر فيه وأعد نفسى للامتحان ، فى حين كان كثير من رفاقى قد نجح فى الدور الأول •

وقد قوت هذه العقوبة عزمى على مغادرة الأزهر ، فالتحقت بكلية

دار العلوم بعد نجاحى الفائق فى ثانوية الأزهر وحصولى على أكبر مجموع للدرجات فى هذا الامتحان •

الزقازيق : الناس والمدينة :

قبل أن أغادر الزقازيق الى كلية دار العلوم بالقاهرة لأبدأ مرحلة التعليم العالى ينبغى أن نقف وقفة مع الزقازيق ، فقد عشت فى هذه المدينة تسع سنوات من أهم سننى العمر ، دخلتها صبيا قليل التجربة قليل المعارف ، وعشت بها حتى عهد الشباب ونلت فيها قسطا من العلم عرفت فيما بعد أنه مادة طيبة جدا لما زاولته من دراسة وبحث •

وبالإضافة الى المادة العلمية التى حصلت عليها فى الزقازيق أجدنى تعلمت كثيرا من مجتمع هذه المدينة ، فالتناس بالزقازيق أميل الى الخير ، فيهم شهامة وكرم ، وفهيم بساطة لا تعرف الانحراف أو التعقيد ، فهم بذلك جديرون بلقب « الشراقة » الذى يقوله بعض الناس عنهم ويغمزونهم به باعتبار هذا اللقب يعنى شيئا من « العبط » والشراقة يرحبون بهذا اللقب ويؤثرونه مع ما فيه من الغمزات على اتجاهات المكر والغموض •

وانى لأذكر صباى فى الزقازيق ، وأذكر صور العون التى نعمت بها من كل مَنْ تعرفت عليهم من سكان هذه المدينة ، فأصحاب المنازل التى كنا ننزل بها كانوا كرماء ولم يكونوا قط مستغلين ، وأصحاب المتاجر التى كنا نتردد عليها كانوا يمتازون بالقناعة والسماحة ، وكذلك كان العمال الذين كنا نحتاج الى عملهم فى كل شيء مثل حياكة الملابس أو كياها ، أما غسيل الملابس فقد كنا نقوم به بأنفسنا ، وكان أساتذتنا وزملاؤنا وأكثرهم من الشراقة نماذج طيبة فى الصلابة مما جعلنى اخرج برصيد طيب من الأصدقاء خلال هذه الفترة •

من أجل هذا تجدنى أحتفظ بأجمل الذكريات لهذا العهد الطيب بمدينة

الزقازيق ، وأحاول أن أرد الجميل لأبناء الذين أكرمونا وساعدونا ، ولست أملك أن أفعل لهم شيئاً الا القليل الذى يرمز الى الاعتراف بالجميل ، فاذا دعيت الى أن ألقى محاضرة بالزقازيق استجبت بسرعة مهما كانت الشواغل كثيرة ، وقد حدث مرة أن التقيت فى حفل أقيم بمناسبة مولد الرسول بالمركز العام للشبان المسلمين بزميل كريم (أستاذ بجامعة القاهرة) ، وطلب منى هذا الزميل أن ألقى محاضرة فى كليته ، فرجوت تأجيل الموعد اذ كان وقتى مزدحماً بالعمل فى ذلك الحين • وفى نفس اللحظة اندفع نحونا الدكتور محمد مصطفى ميتكيس رئيس جمعية الشبان المسلمين بالزقازيق وقال لى ان الجمعية تدعونى لالقاء محاضرة هذا الأسبوع بالزقازيق فقبلت على الفور • قال زميلى : ما تعليل هذا التصرف ؟ تؤجل المحاضرة التى طلبتها منك وتستجيب دون تردد لدعوة أخرى دون تأجيل فأجبت : انها الزقازيق وهى فرصة أغتنمها لأسدد بعض الدين للذين أكرمونا فى أولى مراحل الحياة • ووافق زميلى الفاضل اذ رأى أن فى الاستجابة لونا من العرفان بالجميل •

وهناك محاضرات تنظمها وزارة الشؤون الاجتماعية وتصرف مكافأة لمن يلقونها ، ومن الطبيعى أننى لم أقبل قط أية مكافأة عن محاضراتى بالزقازيق وكنت أطلب دائماً أن توجه هذه المكافأة الى مكاتب تحفي القرآن الكريم أو أمكنة البر بالمدينة ، ثم أصبح هذا دستور حياتى كد دعيت لالقاء محاضرات بأمكنة أخرى •

ومحاضراتى بالزقازيق كثيرة وجمهورى بها كبير ، ولكن للأسف هذا مكان تمنيت أن أقف محاضراً به ، ولكننى لم أتل أمنيتى ، وقد ذهبت الى مدى لم أذهب اليه قط لأحقق هذه الأمنية ، فقد عرضت استعدادى ، ولكن لم أجد من يدعونى أو من يقبل أن أدعو نفسى لألقى هذه المحاضرة ، ما ه هذا المكان ؟ • انه معهد الزقازيق الدينى •••

اننى أتذكر صباى بالمعهد ، وأتذكر أحلام الصبا ، وانفعال الطلاب بأى زائر أكبر منهم سناً أو أوسع تجربة ، واعتقادى أن وقوفى بينه

محاضرا سيكون دفعة قوية لهم ، وسيبعث طاقات من الأدل في نفوسهم ، وسيجيب لهم الجد ، ولكنى لم أستطع أن أنال هذا الأمل لأخطو نحو هذا البناء العملاق منحنى الرأس اجلالا واكبارا لما نلت فيه من علم ومعرفة .

وبعد هذه العجالة بالنسبة للناس تعال بنا الى المدينة نفسها لنحدث عنها قليلا ، لقد فارقت الزقازيق سنة ١٩٣٩ الى القاهرة أى منذ مدة طويلة ، ولازلت أذهب للزقازيق من حين لآخر ، أجتازها في الطريق الى قريتي ، وازور بها بعض الأهل والأصدقاء وألقى بها بعض المحاضرات ولكن الشيء الذى يدهشنى بل قد يزعجنى أن المدينة تتخلف يوما بعد يوم فى نظافتها وتجميلها ومظهرها . لقد رأيت ميدان المنتزه وهو روضة جميلة ولكنه الآن مباءة أو أقرب الى المباءة ، ورأيت شارع « البوسطة » شارعا واسعا نظيفا وهو الآن مدمر كرية ، ورأيت ما كنا نسميه « وابور النور » منطقة انطلاق جميلة كنا نهرع اليها للاستذكار والمتعة وقرض الشعر فأصبحت لاشيء ، ورأيت مداخل الزقازيق من ناحية (أبو حماد) وهيا والمدرسة الصناعية ، وكانت مداخل معقولة ولكنها أصبحت الآن أسوأ اعلان عن المدينة ، وكلما دخلت الزقازيق من مدخلنا الذى يقود اليها وهو مدخل (أبو حماد) والتل الكبير أحسست أنى أجتاز منطقة خطيرة استعيز بالله ألف مرة كلما طرققتها ، ورأيت الحسينية وكفر النحال والحريرى وغيرها من الأحياء حيث كنا نعيش أنظف ألف مرة من حالها الآن . واكتفى هواة الخداع بمدخل جديد للمدينة من جهة منيا القمح ، وبعض ابنية شيدوها لاقامتهم ومتعتهم على رأس هذا المدخل ووجهوا الزائرين الى هذه المنطقة ليخدعوه عن الحقيقة . وعن المدينة الحقيقية التى تعيش فى الظلام واللام .

ولم يحدث مرة أن فكر المحافظون فى التعرف على أبناء الاقليم الذين يعملون بعيدا عنه والانتفاع بأفكارهم أو حتى بجهودهم فكاننا وقد قضى

الله علينا أن نعمل بالقاهرة مبعدون عن الزقازيق وليس لنا حق في التفكير فيها. *

ان الحكومة لا تستطيع أن تعمل كل شيء ، وينبغي أن يتعاون أهل كل قرية وكل مدينة للرقى بقراهم ومدنهم ، وليت هذا النداء يصل الى الأذان والقلوب .

ان في الزقازيق قصورا ضخمة وغيلات فخمة ، ولكن الطريق اليها قائم مملوء بالقاذورات ، ولو خصص كل غنى جزءا ضئيلا من نفقات قصره ليسهم به في تحسين الطريق الى هذا القصر لاستفاد الغنى واستفاد الفقير ، ولكن هذا لا يتم الا بتنسيق تشترك فيه كل الأطراف ، ونأمل أن يبرز هذا التنسيق للوجود ، انها دعوة نطلقها بالنسبة للقرية وبالنسبة للمدينة ونرجو ألا تكون صيحة في واد .

تطوير الأزهر :

كل شيء في الحياة يحتاج الى تجديد وتطوير ، ويبنى أى شيء بسرعة اذا لم تتجه له العناية بالتجديد والتطوير ، ولعل هذه القاعدة تصدق على كل شيء ، على الملابس والفراش ، وعلى المنزل والأثاث ، وعلى الأرض التى تزرع ، والنهر الذى يجدد حفره وتحرس جسوره ولكن صدق هذه القاعدة على العلم أبرز وأوضح ، فالكشف العلمى فى الطب والهندسة والجغرافيا يتجدد من يوم الى يوم ، والطبيب الذى لا يتابع الدراسات الحديثة يتخلف وينهار بسرعة عجيبة ، والعلوم النظرية ومنها العلوم التى يمثلها الأزهر كالدراسات الدينية والعربية متطورة بطبيعتها من يوم الى يوم كذلك ، وقد رأيت فى جامعة كمبردج كلية اللاهوت وهى فى تطورها تسرع الخطا أو تقفز فلا تلاحقها فى حركة التجديد أية كلية أخرى .

وتجديد الدراسات الأزهرية يمكن أن يكون من عدة نواح بأن تضاف علوم جديدة للمناهج كمقارنة الأديان والحضارة الاسلامية فى مفهومها

الجديد وكالفقه المقارن الذى يعرفنا مكانة التشريع الاسلامى بالنسبة للتشريعات الأخرى ، وملاحظة الصورة الشعرية فى الأدب ، ودراسة قضية الالتزام فى الأدب والتاريخ ... ويمكن ان يكون التجديد من ناحية اضافة فلسفة الفكر فلا يدرس الفقه الاسلامى وحده وانما تدرس أهدافه ، ويمكن أن يكون التطوير بحذف بعض الفروع التى لم يعد الفكر الحديث يتطلبها كالفروض المبالغ فيها التى أوردتها كتب الفقه فى باب الطلاق أو الطهارة أو حذف ما ازدحمت به كتب التفسير من أسرائليات ، ويمكن أن يكون من ناحية الأسلوب بأن تعاد كتابة هذه الدراسات بأسلوب العصر وصفائه •

ولست هنا على كل حال أحاول أن أرسم للتجديد فى الدراسات الأزهرية ، ولكنى أذكر امكان ذلك وضرورته ، فقد تعلمت الفقه الاسلامى بالأزهر فلم أحس أنه يدافع عن الاسلام أو يبرز جماله كما قلت من قبل ، وتلقيت محاضرات عن الفقه الاسلامى بأوربا فرأيتها بطبيعتها تدافع عن الاسلام لا عن قصد ، ولكن لأن طبيعة الدراسة اقتضت ذلك ، والأمثلة عن ذلك قد أشرت اليها من قبل ، وحسبك أن تقرأ باب الرق فى كتب الفقه وتقرؤه فى كتابى « الاسلام » الذى تأثر منهاجه بالدراسات الغربية •

ما أهم دعائم التطوير ؟ :

فى تقديرى أن أهم دعائم التطوير هى التطعيم الخارجى ، فالجزر النائية التى لا يطرقها الناس والتى يعيش بها أهلها دون اختلاط بغيرهم يصبح أهلها أقزاما ضعاف العقول والأجسام بمرور الزمن ، وهذا نفسه ينطبق على أية مؤسسة أو مصنع أو معهد لا يمسه التطعيم ولا تدخله دماء جديدة أو فكر جديد من حين لآخر •

والدماء الفكرية الجديدة معناها الاتصال بالتفكير العالمى والتأثير فيه والتأثير به ، فطبيعة الاجتماع بالآخرين تولد جديدا ، وقد يتحدد مصدر هذا الجديد ، بأن يكون من ابتكار فرد معين ، وقد لا يتحدد بأن يكون من

ابتكار المجموعة ، بأن أسهم كل فرد بإشارة أو خطوة بقصد أو بدون قصد ، فينتج عن ذلك جديد مفيد ، والأزهر الشريف قد أخذ بهذا الاتجاه فأرسل مبعوثيه للتعرف على ثقافة الغرب والاستفادة من مناهجها ، ولكن للأسف هناك حقيقة مهمة ومفجلة هي أن السادة الذين زاملونا في الخارج وحققوا أشواطاً من النجاح لم يعودوا لكليات الأزهر كي ينقلوا ما عرفوا وكى يتّمثوا معارفهم ، بل التقطتهم المكاتب والأعمال الإدارية ولم تأخذ المدرجات منهم نصيباً يذكر ، ولست أذكر هنا أسماء هؤلاء فهم من الشهرة بحيث لا نحتاج الى ذكرهم . ومن الزملاء من اشتغل بالتدريس ولكن للأسف غلبه القديم فراح يدور في دائرته لأنه لم يقو على الصراع بين القديم والحديث .

ولجأ الأزهر أحياناً للدماء الجديدة من خارجه ، بأن انتدب لكليات اللغة العربية والشريعة وأصول الدين أساتذة من الكليات المناظرة بالجامعات المصرية ، لكن عمر هذا الانتداب كان دائماً قصيراً ، وكان الأزهر ينتهي الانتداب أو كان الأساتذة يتوقفون عن الاستمرار في العمل ويعتذرون عن عدم السير فيه ، لأن الصراع كان يدور خفية أو علناً بين القديم والحديث ، ولا يستطيع الأساتذة المنتدبون أن يتخلوا عن فكرهم ، فتكون النتيجة هي الانفصال ، وقد كان لى دور في هذا المجال يتحتم أن أرويه بدقة ، ففي سنتي ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ انتدبت لتدريس مقارنة الأديان في كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، وسرت بهذا الانتداب سروراً بالغاً اذ كان فرصة لى لأردّ للأزهر بعض أياديهِ ولأنقل للجيل الجديد خبرات الجيل الذى سبقه ، واستقبلت عملى بغبطة واقبال بالغتّى المدى ، ونجح عملى بالكلية نجاحاً يفوق كل وصف ، جعل الطلاب يقبلون على محاضراتى بشغف كبير ، وقد كان التزامهم على هذه المحاضرات شديداً حتى كان من العسير أن أخترق صفوف الطلاب لأصل الى منصة المحاضرة ، وطالما استعنت بفضيلة الأستاذ الشيخ زهير مراقب الكلية آنذاك ليساعدنى في شق الطريق بين مداخل المدرج والمنصة .

ومع هذه الصورة الباسمة للعمل كانت صلتى بالأساتذة الأزهرين طيبة للغاية ، فبعضهم كان أستاذا لى ، وكنت أجلّتهم جميعا ، وكانت نتائج الامتحان رائعة تثبت اقبال الطلاب على المادة وحبهم لها واستفادتهم منها .

وعلى هذا كان الاستغناء عنى عسيرا ، وقطعٌ ابتدأى شيئا غير طبيعى ، ولكن الصراع الخفى ضد التجديد سرعان ما نجح ، فالتغيتُ المادة كلها لخير ما سبب ، ولم يرتفع صوت واحد ليدافع عن « مقارنة الأديان » .

لقد حزنت على ذلك كثيرا ، وأرجو ألا يتهمنى أحد بأن حرصى على هذه المحاضرات كان لأسباب مادية ، فقد كنت آنذاك مدرسا ، وكان صافى مكافأة المحاضرة لا يتجاوز السبعين قرشا ، وأنا أسكن بالمعادى وأركب سيارتى للأزهر من أجل محاضرة واحدة ولا تكفى السبعون قرشا لتكاليف هذه الرحلة .

الكتب الدراسية بالأزهر :

ثم ان الأزهر لا تزال تعيش فيه الفية ابن مالك والأشمونى والصبان والسعد فلما فكر البعض فى التأليف الحديث تمثلوا بابن مالك والسعد فى النهج ، وبمناسبة الحديث عن هذا التراث أحب أن أثبت أننى شخصا أجله وقد انتفعت به كثيرا ، وأرى أن يتعرف الطلاب الأزهريون على هذه الكتب كدراسةٍ للتراث ولكن ينبغى أن يأخذوا الفكر عن طريقه الميسر فإن أغلب ما اتجهت له عناية هؤلاء الشراح هو حل ألفاظ الكتاب المقرر ، والويل للمدرس والطلاب اذا كان المؤلف — وكثيرا ما كان المؤلفون — ركيك العبارة ، ضعيف الأسلوب مضطرب التركيب ، وكثيرا ما كانت الفكرة واضحة لنا جلية ، ولكن العناية بالفكرة لم تصل الى درجة العناية بطريقة أخذ الفكرة من هذه الألفاظ ، لقد كانت الألفاظ أشبه بالمقدسة ، وكانت المقدرة على حلها هى العلم كله .

والعجيب ، ولكن ذلك ليس عجيبا على من دخل الأزهر وعالج كتبه ،
انك تقرأ المتن فتفهم أكثره أو كله ، فاذا ذهبت تقرأ الشرح عجزت عن
فهم أكثره أو كله فاذا ذهبت الى الحاشية والتقرير قابلت الغازا
ومعانيات •

ان الأمل كبير أن يتجه أبناء الأزهر الى معهدهم العظيم لتطويره
واشاعة الروح في علومه ، وحراسة الامتحانات فيه ، مع العلم ان الشائعات
تتردد حول هذه الامتحانات ، ولكني أثرت ألا أطرق هذا الباب الشائك
وأن أتركه لأبناء الأزهر البررة ليعالجوه • ان الأزهر منار يحرس الاسلام
ويرد المعتدين على كلمة الحق ، ومن الواجب تزويد طلابه بالسلح الذي
يساعدهم على حمل هذه المسئولية وبخاصة في فترة أصبح فيها الالحاد
سمة العصر في كثير من المناطق •

تطوير الأزهر بالقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ :

في سنة ١٩٦١ صدر قانون بتطوير الأزهر وجعله جامعة تشمل كل
فروع الثقافات ، ومن ثم أنشئت به كليات للطب والهندسة والتجارة •••••
بالاضافة الى كلياته الثلاثة الأصلية وهى كليات اللغة العربية وأصول الدين
والشريعة ، ويشمل القانون كذلك اعادة تنظيم منهاج المعاهد الأزهرية ،
ويجدر بنا أن نعيش مع هذا التطوير مدة كافية لنثبت رأينا فيه ، ونسارع
فنقرر أن الكثيرين جدا يرون أن هذا القانون أضرَّ بالدراسات الأزهرية
أبلغ ضرر ، وأن الحكمة وخوف الله يقضيان بالاسراع في اعادة النظر فيه ،
ولنسر مع هذا القانون خطوة خطوة •

أصبح القسم الابتدائى يسمى القسم الاعدادى وبقي القسم
الثانوى يحمل اسمه وهذه التسمية وضعت معاهد الأزهر أمام المقارنة
بمدارس الدولة ، وسنعود بعد لحظة لنرى أثر هذه المقارنة •

•قضى التطوير أن يشمل القسم الاعدادى منهاجين كاملين تقريبا

أحدهما منهاج الأزهر العادى والآخر منهاج المدارس الاعدادية الحكومية ، أما القسم الثانوى فبه شعبتان احدهما أدبية والثانية علمية ، والشعبة الأدبية بها علوم الأزهر وعلوم القسم الأدبى بالمدارس الثانوية الحكومية ، والشعبة العلمية بها المنهاج الأزهرى ومنهاج القسم العلمى بالمدارس الثانوية .

وقد نتج عن هذا الوضع أن برزت الحقائق التالية :

أولا — أصبح العبء ثقيلًا جدًا على الطلاب ، ولم يكن من الممكن أن يجيدوا الدراسات الأزهرية وأن يجيدوا معها منهاج المدارس الحكومية ، فهذا وحده ، وذاك وحده ، عبء ينوء به كثير من الطلاب ، فما بالك بحمل المسئوليتين ، وكانت النتيجة الواقعية أن الطلاب لم يجيدوا هذا ولا ذاك . وراحوا ضحية هذا المنهاج السقيم .

ثانيا — وضع الأزهر نفسه فى وضع المنافس بالنسبة لوزارة التربية والتعليم ، فهو يدرس منهاجها ويلتزم بالتزاماتها العلمية ، مع أن الأزهر ليست عنده الامكانيات لذلك . فليس عنده المدرسون اللازمون ولا المعامل ولا التفتيش الكافى .

وظلاب الأزهر يؤدون نفس الامتحان الذى يؤديه طلاب المدارس فى الشهادات العامة ، فأسئلة وزارة التربية والتعليم كانت هى التى يستعملها الأزهر ، ولكن العجيب أن وزارة التربية لم تعترف بالشهادات التى يمنحها الأزهر بناء على هذه الامتحانات ولم تعترف الجامعات المصرية بها ولم تقبل الحاصلين عليها وهذا يعود فيما يقال الى فقدان الثقة فى دقة سير الامتحانات ، وقد استقل الأزهر أخيرا بامتحاناته ليراعى ضعف الطلاب فيه .

ثالثا — كان أزهرنا قسمين ابتدائى مدته أربع سنوات وثانوى مدته خمس سنوات ، فلما ظهر التغيير فى التسمية وظهرت المقارنة والمنافسة

بين الأزهر ومدارس وزارة التربية ظهرت صيحات تنادى بتقليل سنى الدراسة لتتفق مع سنى الدراسة المناظرة بمدارس الوزارة ، ونتيجة لهذه الصيحات أصبح القسم الاعدادى ثلاث سنوات والقسم الثانوى أربع سنوات ، ومن يدري لعله ينقص مرة أخرى •

رابعا — كان الأزهر معهدا عملاقا للدراسات الاسلامية والعربية ، وأخذ في الداخل والخارج مكانته من هذا الاتجاه ، وما كان أحراه أن يتابع السير في هذه الرسالة وأن يقضى على الصعوبات التى تواجهه وهو ينهخر بها بدل أن يبدأ رسالة جديدة في القسم الاعدادى والثانوى يناهس بها وزارات التربية مع ما لها من امكانيات تفوق امكانياته في هذا المجال بمراحل عديدة كما سبق القول •

وخروجا من هذه المأزق ، وعودا الى الحق والصالح العام نقترح أن يعود للقسم الابتدائى والثانوى بالأزهر طابعهما الدينى ، وأن تكون الدراسة بهما دراسة أزهرية ، بها — كالعهد بأزهرنا — علوم الاسلام وعلوم اللغة العربية وبعض المواد الثقافية واللغات ، ويلتحق الحاصلون على الثانوية الأزهرية بالكليات الأزهرية النظرية ، ويكونون نواة لباحثين في العقيدة والشريعة والأخلاق ، وباحثين في اللغة العربية وآدابها . ومعلمين لهذه الدراسات وحماة لها •

ولنعد لهذا القانون اللعين الذى أصدره عبد الناصر في ليلة واحدة ليقضى به على الأزهر ، فنذكر أن الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الذى عاصر اصدار هذا القانون ذكر في « ندوة العلماء » بالتليفزيون أن القانون كان يتجه لاجلاق كليات الأزهر الثلاث والاستعاضة عنها بكائن هزيل ميت هو كلية الدراسات الاسلامية التى عادت بالدراسة في الأزهر الى عهد الأروقة والحصير ، ولكن الله سلم فلم يستطع عبد الناصر أن يكمل هذا الدور •

ولنعد لقانون التطور من ناحية أخرى ، فقد قضى هذا القانون أن

تنشأ كليات عملية بجامعة الأزهر وفي تقديري أنه ليس هناك اعتراض على الاكثار من التعليم الجامعي استجابة لمطالب الناس ، وليس هناك اعتراض أن نعيد للأزهر رعايته لمختلف العلوم ، فقد كان عبد اللطيف البغدادي يجلس بأروقته يعلم الطالب . ولكن هناك اعتراضات أخرى ذات بال تتعلق بالكليات العملية بالأزهر . ونحن نجعلها فيما يلي :

أولا — نرجو أن يستكمل الأزهر عدته لهذا اللون من الدراسات ، فليس من الممكن أن تحقق كلية للطب أى نجاح بدون المستشفى والمشرحة ، ولا كلية للعلوم أى تقدم بدون معامل ، ولا كلية للهندسة أى وجود بدون ورش ولن تستطيع كلية للزراعة أن تثبت نفسها بدون مزارع وتجارب ، وهكذا . . . ونحن نسمع كثيرا ونقرأ كثيرا عن نقص في هيئات التدريس بهذه الكليات الأزهرية وعن نقص في الامكانيات ، وهذا سيجعل خريج الكليات العملية بالأزهر أقل من زميله المتخرج في الجامعات الأخرى ، وهو شيء لا يقبله الغيورون على الأزهر .

ثانيا — ماذا يدرس من العلوم الاسلامية لطلاب الكليات العملية ؟

في الاجابة عن هذا نصرخ بأن منهاج الدراسة لطلاب هذه الكليات يحتاج الى تعديل سريع ، فالدراسات الاسلامية ليست ألغازا ، ولا يقصد بالطبيب الأزهرى أن ينافس الأئمة والوعاظ أو مدرسى المعاهد الدينية . ولو قصدنا به ذلك لكان هذا خلطا بين التخصصات ، انما يقصد بالطبيب الأزهرى أو المهندس الأزهرى ، أن يكون طبيا جيدا فنه ويخلص له ويطوره ، ويكون له مع هذا روح اسلامى يجعله أكثر حساسية وشفافية وسماحة ، وتربية الروح الاسلامى لا تحتاج الى منهاج الدراسى الذى يراه الطلاب عبئا ولا يستفيدون به مدى حياتهم .

واننا نتساءل :

هل استطاع المنهاج الحالى جذب الطلاب الى الفكر الاسلامى

أو فشل فى ذلك ؟

- هل ربي المنهاج الحالى روح الاسلام فى نفوس الطلاب ؟
- هل قدّم المنهاج الحالى قدرات اسلامية حقيقية للطلاب ؟
- هل ستعيش هذه الأفكار فى نفوس الطلاب وهم أطباء ومهندسون ...
- أو أنها أفكار من أجل الامتحان فحسب ؟

ليتنا نقدم هذه الأسئلة للطلاب أو الخريجين لنعرف رأيهم ؟ وعلى كل حال فإن صلتى بطلاب كليات الطب بجامعة القاهرة وعين شمس تجعل من المؤكد أن أهم ما يحتاجه طلاب مثل هذه الكليات هو مادة مقارنة الأديان ومادة الحضارة الاسلامية ، وأحب أن أوضح اننا قد نضع اسم المادة دون أن يكون لها مدلول حقيقى فى المحاضرات ، ولذلك فالمطلوب أن نقرّر هاتين المادتين تقريراً حقيقياً وأن تدرساً على النمط الصحيح ، وتشمل هاتان المادتان كل ما يخطر بالبال حول تزويد الطبيب والمهندس ، بخير زاد ينفعه فى نفسه ، وينفعه فى أية بيئة يعيش بها بالداخل والخارج ، وتجعله يناظر أو يفوق الطبيب المستشرق أو المبشر .

ثالثاً — هناك خطر شديد على الدراسات الاسلامية بالأزهر ، لأن كل الطلاب الأقوياء الأذكياء الموهوبين يتجهون للشعبة العلمية وبالتالي الى الكليات العملية بالأزهر ، ولا يلتحق بالقسم الأدبى الا الطلاب الضعاف أو العاديون وعلى هذا ستختفى المواهب تماماً من بين الذين يكون فى أيديهم زمام الفكر الاسلامى ، وهم الذين يلتحقون بكليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية ، وإذا كان جيلنا قد حقق بعض التفوق فى مجال الدراسات الاسلامية فذلك لأننا لم نجد طريقاً آخر غير هذا الطريق ولو كانت أمامنا فرصة للالتحاق بكلية الطب أو الهندسة لالتحقنا بهما وأخلينا مكاننا كباحثين فى الفكر الاسلامى .

واقترأحى الذى اقدمه فى نهاية هذه الدراسة هو :
الغاء الشعبة العلمية من القسم الثانوى بالأزهر ، وتزويد الكليات العملية بجامعة الأزهر بطلاب من القسم العلمى بالثانوية العامة .

تطوير مناهج الأزهر باصلاحها التام باحياء العلوم الاسلامية
التي اختفت من المناهج كمقارنة الأديان والخضارة الاسلامية وتصحيح
العلوم التي انحرفت كالفقه والتفسير... وخذف العلوم التي ادعت أنها
اسلامية وهي في الحق غير اسلامية (١) .

والخير أردت وما توفيقى الا بالله ،

قضايا أزهرية أخرى :

في مذكراتي التي أستعين بها علي كتابة هذه المرحلة نقاط خطيرة تتعلق
بالدراسات العليا بالأزهر من ناحية موضوعات الأبحاث وبأئذيتها والاشراف
عليها ، ونقاط خطيرة تتصل بمجمع البحوث الاسلامية ودوره في حراسة
الاسلام وخدمة الفكر الاسلامي ، ونقاط خطيرة ترتبط بصوت الأزهر في
مواجهة أعداء الاسلام ورد كيدهم ، وحراسة الدين والوطن... .

ولكني لا أجد أني في حل من شرح هذه القضايا ، فأكتفي بهذه
الاشارة العاجلة ليتذكر هيوخنا أيا كانت مواقعهم أن العالم يفتح عليهم
عيونه ، ويرصد تحركاتهم ، واذا كانت ظروفي تقضي بأن ليس كل ما يعرف
يقال ، فقد يكون غيري في ظروف تسمح له أن يقول كل ما يعرف .

فلنتعاون معا لخير الدين والوطن ، ولنجعل الله وجهتنا في كل عمل
نقوم به .

الأزهر بالخارج :

نعود في ختام هذه الدراسة الى مطلع الحديث لنذكر ونتذكر الدور
المضخم الذي لعبه الأزهر عبر العصور وعبر الأقطار لخدمة الاسلام

(١) تراجع الدراسة المفصلة لذلك في كتابنا « تاريخ المناهج الاسلامية » .

(م ٥ — رحلة حياة)

والقضايا العامة ، وكم سجل التاريخ للأزهر من أعمال مجيدة في ميدان خدمة الدين وخدمة الأوطان ، وطالما كان منبر الأزهر هو منبر الشرق ومنبر الحرية ، وكان شيوخ الأزهر هم ملاذ المظلومين وقادة المصلحين .

وقد حذت المعاهد الاسلامية بالعالم حذو الأزهر في أكثر خطواته ، فمنهج الأزهر هي التي تدرس في أكثر المعاهد الدينية بالعالم ، وأسماء كلياته تسمى بها الكليات المناظرة هنا وهناك ، ففي السودان واندونيسيا وغيرهما توجد كليات اللغة العربية وأصول الدين والشريعة ، وتقتبس نفس المناهج التي تدرس بكل كلية من كليات الأزهر ، وهذا يجعل مسئولية الأزهر أعظم وأضخم ، لأنه يقود حركة الفكر الاسلامي لا في مصر وحدها بل في أكثر دول العالم ، وهذا يستلزم أن تسير خطا الإصلاح والتحسين دون توقف ، فالتوقف هو الجمود والجمود هو الفناء .

في كلية دارالعلوم

مكانة دار العلوم بين مراكز الفكر الاسلامي :

يميل أبناء دار العلوم الى السرور بما قاله الأستاذ الامام محمد عبده عن هذه الدار وهو « تموت اللغة العربية في كل مكان ، وتحيا في دار العلوم » وهي قولة كريمة من امام كريم ، ولكن الذي شهدته عن دار العلوم وبخاصة في عهدها الجديد أفسح من نطاق اللغة العربية الذي ذكره الأستاذ الامام ، والدليل على ذلك أنني رأيت مرة احدى الدول الشرقية تحاول وتلح ليعار أحد أساتذة دار العلوم لتدريس التاريخ الاسلامي بجامعاتها ، وقال أحد المسؤولين المصريين لندوب هذه الدولة : اذا تعذر الحصول على أستاذ من دار العلوم فمن الممكن أن نحصل عليه من كلية أخرى مناظرة ، وأجاب مندوب الدولة بأن أستاذ التاريخ الاسلامي من أبناء دار العلوم يمكن أن يشترك أو يساعد في منهاج اللغة العربية ، والأدب العربي والفقه الاسلامي وتفسير القرآن الكريم بالاضافة الى التاريخ ، وقد يساعد في مقارنة الأديان والتربية ، وأن أستاذ الشريعة الاسلامية من أبناء دار العلوم يمكن أن يعاون كذلك في علوم كثيرة بالاضافة الى الشريعة ... وهذا ما لا يتيسر لغير أبناء دار العلوم ، وكأنما دار العلم بذلك تحاول أن تحقق الفكرة الأصلية لانشائها وتسميتها ، فقد أنشئت وسميت لترعى صورا من الفكر على غرار « دار الحكمة » بمصر ، « دار الفنون » بتركيا حيث كانت هذه وتلك تمثل جامعة متعددة الدراسات .

وقد عشت في دار العلوم طالبا ، وعشت بها مدرسا وأستاذا مساعدا وأستاذا ، وأسهمت في نشاطها خلال كل هذه المراحل ، فمن حقها أن نقف معها وقفه نستعرض الماضي ونقترح للمستقبل .

دار العلوم في عهدنا :

كانت دار العلوم في عهدنا ست سنوات منها أربعة لعلوم اللغة العربية والدراسات الاسلامية تنتهي بشهادة « الليسانس » في هذه

المواد ، أما السنتان الأخيرتان فدراسة التربية وعلم النفس لتأهيل الطالب لمهنة التدريس اذا شاء ، ويمنح « دبلوما » بذلك ، وفي سنة ١٩٤٤ خرجت أول دفعة من هذا النظام ، وجاءت فرقتنا بعدها فخرجنا سنة ١٩٤٥ ، ثم حولت دراسة التربية وعلم النفس الى معهد التربية ، وعادت دار العلوم أربع سنوات مخصصة كما كانت لعلوم اللغة العربية والدراسات الاسلامية ، واكتفى بعض خريجي دار العلوم بهذه الشهادة وراحوا يعملون في الصحافة والاذاعة والوزارات والمصالح المختلفة ، وبعضهم التحق بالتدريس ونال دبلوم التربية في دراسات مسائية ...

وكانت دار العلوم في عهدنا « داخلية » فقد كان عددنا قليلا جدا اذ كانت فرقتنا حوالى ثلاثين طالبا وكذلك الفرقة التى قبلنا وهى هذا هذا النظام وجاءت الفرقة التى بعدنا على هذا النحو ، وكان المشـ داخلى كان قد أنشئ لرعايتنا فقط لأنه توقف بعد ذلك ، فقد أخذ عدد الطلبة يتزايد ولم يتسع المكان لمزيد من الطلاب بالقسم الداخلى ، وان تبذل جهود لتدبير مكان آخر ، وبقينا نحن بالقسم الداخلى حتى تخرجنا .

لقد حمانا هذا النظام من متاعب الحياة التى كان الطلاب يعانونها بالقاهرة ، حمانا من الأزقة والحارات والأمكنة التى تبعد الى حد كبير عن النظافة وعن حسن المعاملة ، وخلق هذا النظام صداقات ، وودا بين جماعات الطلاب الذين كانوا يحسون أنهم الى حد كبير أسرة واحدة ...

وكانت دار العلوم تقف في مهب العواصف ، وتتناوبها الأعاصير . اذ كان الأزهر قد أعلن نظامه الجديد في مطلع الثلاثينات والذي يقضى بقيام كلية للغة العربية مع كليات أخرى ، وكان يـعتقد أن وجود كلية للغة العربية بالأزهر يعنى عدم الحاجة لدار العلوم ، ثم كان الأزهر يمر بفترة ازدهار في قياداته ، فقد تسلم مشيخة الأزهر شيخان يعتبران من قمم الاصلاح والفكر هما المرجومان الأستاذان الظواهري والمراغبي ، وكان لهما نفوذ علمي وسياسي ، وقد نجحت هذه الحركة الأزهرية بتحويل

المختلفة فأوقفت « تجهيزية دار العلوم » وهي المدرسة التي كانت تعد الطلاب للالتحاق بدار العلوم ، وكان معنى إلغاء التجهيزية أن المغين الذي تستقى منه دار العلوم قد نصب ، وستنصب بالتالى الدار نفسها ، وأخذت الدار تأخذ طلابها من الحاصلين على ثانوية الأزهر مؤقتا حتى تدبر أمورها أو تزول •

ولعل قلة عدد الطلاب الذين سمح لهم بالالتحاق بدار العلوم ابتداء من النظام الجديد كان أيضا استجابة للضغط الذى تعرضت له هذه الدار ، لما ظهر أن ميزانية الدار أوسع من عدد هؤلاء الطلاب اتجه القائمون بالأمر الى انشاء القسم الداخلى ليمتص هذه الميزانية •

ولم يكن الأزهر وحده هو الذى يصارع دار العلوم بل اشتركت كلية الآداب بجامعة القاهرة فى هذا الصراع (لم تكن الجامعات الأخرى بمصر قد ظهرت بعد) وكانت كلية الآداب أيضا تعيش أزهى عصورها حيث كان بها مجموعة من أساطين الفكر آنذاك مثل طه حسين وأحمد أمين ، وكان من وسائل طه حسين للقضاء على دار العلوم والقضاء على كل صوت يدافع عنها وعن ضرورتها أنه جذب الى كلية الآداب مجموعة كبيرة من خيرة أبناء دار العلوم حتى لا يقال أن للدار طابعا خاصا يحتم وجودها ، ومن هؤلاء الأساتذة أحمد الشايب والسقا وإبراهيم حمودة وغيرهم ليغنوا كلية الآداب بما عندهم من خبرات ، ولينقلوا اليها طابع دار العلوم •

وبين هذا الصراع كان الزمن يمر ، وخرجت من المعاهد الثلاث دفعة أثر دفعة ، وتزامل الخريجون فى التعليم بوزارة التربية والتعليم وجاءت التقارير تحتتم ضرورة بقاء دار العلوم • وبقيت دار العلوم •

ورأت جامعة القاهرة أن تحسم الخلاف بين دار العلوم وكلية الآداب فوضمت دار العلوم كلية بين كلياتها سنة ١٩٤٦ وحل التعاون الى حد كبير داخل المنافسة والصراع •

واتجهت بعض محاولات الأزهر لصرف الحاصلين عن الشهادة الثانوية منه عن الالتحاق بدار العلوم وذلك للقضاء على المعين الذى تستمد منه دار العلوم طلابها فقفز عميد كلية دار العلوم قفزة خطيرة النتائج ؛ واستصدر بقرار سنة ١٩٥٣ أن يلتحق بالكلية الحاصلون على الثانوية العامة من الذكور والإناث ، ومنذ ذلك التاريخ انكمش عدد الطلاب الأزهرين بالكلية ، ودبت بفنائها ومدرجاتها أقدام الجنس اللطيف •

مستوى الكلية عبر نصف قرن :

ماذا نرى لو استعرضنا مستوى الكلية العلمى عبر نصف قرن (١) ؟ •

فيما يتعلق بالمناهج نرى أن المناهج الحديثة منذ ضمت الكلية للجامعة أصلح من المناهج القديمة ، وأوفى بالغرض وأشمل بالحاجات التى يتطلبها الانسان المسئول عن الثقافة العربية والإسلامية ، وفى الكلية قسم لتاريخ الأدب والنصوص ، وقسم للبلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن ، وقسم للنحو والصرف والعروض ، وهذه الأقسام الثلاثة تشمل بالدراسة مختلف الأبواب ومختلف عصور الأدب واتجاهات النقد •

وفى الكلية قسم للشريعة الإسلامية وقسم للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية وقسم للفلسفة الإسلامية ، وفى هذه الأقسام دراسات فيها شمول وعمق فى هذه الاتجاهات المختلفة ،

وفى الكلية لغات حية وبعض اللغات الشرقية وبعض المواد الثقافية •

وهناك فرق واضح رأيت وعاشرته فيها يتعلق بما عرفته طالباً من التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وما أقدمه أنا وزملائي من

(١) انشئت الكلية منذ قرن كامل ، ولكن المقارنة تتصل بنصف هذا القرن فقط ، فقد شهدنا خلاله جيل أساتفتنا وجيلنا وجيل طلابنا (انظر تاريخ الكلية فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الإسلامى للمؤلف) •

هذه المسادة في المنهج الجديد ، فالذى كان يَدْرُسُ لبنا شذرات لا تعطى صورة ما عن أحداث التاريخ من ناحية عرضها وناحية شمولها وناحية فلسفتها ، أما الذى نقدمه فيمتاز الى حد كبير بالشمول والعمق والاحاطة لهما يتعلق بالتاريخ وفلسفة التاريخ وحضارة الاسلام والمسلمين ومثل هذا يقال بالنسبة للمواد الأخرى ،

وفيما يتعلق بالأساتذة نقرر أن كل جيل أدى مهمته في عصره خير أداء ، وكان الجيل الماضى يضم أعلاما في علوم اللغة والأدب لهم جهد عظيم في هذا المجال ، أما الجيل الحاضر فتخصصات دقيقة من مختلف جامعات العالم في كل فروع الفكر الذى يرتبط بهذه الكلية ، وأعضاء هيئة التدريس بالكلية جميعا ممن يحملون درجة الدكتوراه ولهم دراسات وبحوث يعد الكثير منها في نطاق البحوث العالمية ، ولو عرضنا المؤلفات التى ظهرت لأعضاء هيئة التدريس بالكلية منذ انضمت للجامعة الى الآن لرأينا مكتبة عربية واسلامية تدعو للفخر والاعجاب ، فيها دراسات عن القصة والشعر الحديث وشعر المهجر والالتزام في الأدب والتاريخ ، وفيها موسيقى الشعر وموسوعة عن التاريخ الاسلامى وموسوعة عن الحضارة الاسلامية وسلسلة عن مقارنة الأديان وفيها أفانين وأفانين في الفلسفة والتصوف والشريعة وغيرها من العلوم .

اساتذة الكلية في المحيط العالمى :

وجهود أساتذة كلية دار العلوم لا تقف عند هذه الكلية ، فان كثيرين جدا منهم أعيروا لجامعات كثيرة في العالم ، وأثبتوا بها أرقى درجات النجاح ، وانك لتراهم في كل الجامعات العربية في مختلف الأقسام التى تدرس اللغة العربية والأدب العربى والتاريخ الاسلامى والفلسفة الاسلامية والشريعة وتراهم كذلك في جامعات الشرق الأقصى وفي نيجيريا وانجلترا وغيرها . هذا بالاضافة الى ما يسهمون به من نشاط في الكليات الأخرى وفي كثير من معاهد الدراسات العليا ، وبالإضافة الى نشاطهم

الطائفتين ، فأننا مثلاً وزملائى لم تكن بنا حاجة — بعد ثانوية. الأزهر — الى أية دراسة أو زيادة في مجال النحو والصرف والعروض فقد كنا نعرف مستوى رفيعاً في هذه الدراسات وكل ما كنا نحتاجه هو بعض الفلسفات حولها وبعض فروع التخصص فيها وكنا في الفقه الاسلامى وتفسير القرآن الكريم وغيرهما من الموضوعات ، على هذا النحو كذلك .

أما الحاصل على الثانوية العامة من ذوى المجموع المتواضع فمستواه العام ضعيف ، ومعارفه بعيدة كل البعد عن التخصص في علوم اللغة العربية والدراسات الاسلامية .

وانه المجموع وحده هو الذىلقى بالطالب في هذه الكلية ، ولاشئ آخر غير المجموع الهزيل . انه يدخل الكلية خالى الوفاض ويحتاج الى تشكيل جديد ، وبناء جديد ، وسنوات الجامعة لا تتسع لهذا التشكيل .

قد يكون ضعيفاً في اللغة العربية . وعدوها لها ، ولكن المجموع يدفعه ليتخصص فيها . يا لله ۱۱ .

أما الطلاب الأترياء فيتجهون للقسم العلمى ، والطلاب الذين يحصلون على مجموع مرتفع من القسم الأدبى يتجهون الى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ...

والحق أنه يتحتم ان تختار صفوة من الطلاب لكلية دار العلوم ونظيراتها من الايات التى تخرج المعلمين ، لأن هؤلاء هم الذين سيعلّمون الجيل الذى سيديج منه الأدباء والمهندسون والقضاة والمفكرون فيما بعد . ويوم يذسف المدرسون سيضعف كل هؤلاء ، ان طالب دار العلوم الذى يدخله يوماً سيخرج ضعيفاً على كل حال ، مهما حاولنا معه . وان يتأخر أن يذلل نفوس تلاميذه ، وسيطرّد الضعف من جيل الى جيل .

وبالإضافة الى مستوى الطلاب عند الالتحاق هناك مشكلة العدد ،
فقد كنا طلابا في دار العلوم وعدد الفرقة جوالى أربعين طالبا ، وأصبح
عدد الفرقة الآن عدة آلاف ، وعدد المدرسين أقل من عددهم من قبل .

والكافيتريا تجذب عددا كبيرا من الطلاب الذين يَحْسَبُون علينا
دون أن يجلسوا إلينا ، ويمضون أوقاتهم في ظل شمس البحر ونسيم
الأشجار وأجاديث الصبا .

والطالب حر" أن يدخل المحاضرة أو يجلس في الفناء أو يبقى في بيته
الى آخر العام أو يلتحق بوظيفة ما وهو طالب ويحسب أيضا علينا ،
وليست لنا به صلة ، ولا يمكن أن نعرف الغائب من الحاضر في هذه
الأعداد الكبيرة .

وباب الكلية مفتوح لكل أبواب الكليات والجامعات ، وكان هذا
الباب ، في عهدنا موصدا دائما الا في مواعيد محددة ، واذا اضطررنا الى
الخروج في غير هذه المواعيد كان علينا أن نأخذ إذنًا من « خليل أفندى »
أو نهمس ببعض القروش الى « عم محمد » فيلتمس فرصة ليخرجنا .

وظلاب هذا العهد ليس لهم على المكتبة اقبال ، ولا يربطهم بها
ارتباط ، وهم لا يعرفون — غالبا — الا الكتب الدراسية البسيطة .

هل من علاج لهذا الداء ؟ .

نعم هناك علاج ناجح ودواء سريع المفعول بعد ما ذكرناه من
تشخيص للمرض وايضاح للمشكلة .

انه الطالب يتحتم أن تُوجَّه له كل العناية ، وعلى الجامعة أو مجلس
الكلية أن يقرر ألا يدخل كلية دار العلوم ألا من حصل على مجموع مرتفع
في الثانوية العامة على أن يكون مجموعته في اللغة العربية مناسبة كذلك .

ربما يعترض بأن طلاب ههنا المستوى لا يقبلون على كلية دار العلوم والاجابة هي :

أولا — الاكتفاء بالطلاب الأقوياء وإن قلّ عددهم فلا فائدة من الكثرة الضعيفة ولن يربّي المعلم الضعيف جيلا ناجحا للمستقبل .

ثانيا — المقضباء على الفكرة التي خلقها الاستعمار ، وهي التقليل من شأن مدرس اللغة العربية كوسيلة لانصاف الوطنية بين العرب ، وتصحيح هذا الوضع بابرار أن اللغة القومية أسمى اللغتي عفدنا كحل اللغسة الانجيزية في انجلترا ، والفرنسية في فرنسا ،

ثالثا — تبرز امتيازات الكلية بطريقة الاعلام ، فمن الواضح أن لهذه الكلية امتيازات كبيرة ، وبها وسائل للإغراء ، ولكن التعريف بها قليل ، ومن هذه الامتيازات :

(أ) سرعة التعيين دون انتظار ما يسمى بالقوي العاملة التي يتأخر صدور قرارها عامين بعد التخرج أو أكثر من عامين .

(ب) الاستمتاع بوظيفة عالية المستوى مرتبطة بالتخصص بدراسية الطالب ، فلا يلقي بالطالب هنا أو هناك دون عمل أو في عمل بعيد عن تخصصه ودراسيته .

(ج) الاستمتاع بإجازة صيفية طويلة .

(د) إتاحة الفرصة للمدرس ليسانس للخارج معيارا لكثير من الدول التي تطالب المدرسين المصريين وتقديم مرتبنا كبيرا .

(هـ) الحصول على دخل اضافي عن طريق الدروس الخصوصية التي تنظمها المدارس ، وعن طريق الانتداب للمراقبة وتقدير الدرجات في الشهادات العامة .

٦ : (و) . تأجيل التجنيد أحيانا في فترة يجتذب الجيش كل الخريجين أو أكثرهم بمجرد تخرجهم .

رابعا — تقدم الدولة حوافز لتغري الطلاب بالالتحاق بهذه الكلية ، ويمكن أن تكون حوافز مادية كمبلغ شهري يقدم لكل طالب .

خامسا — من الحوافز التي تغري الطلاب بالالتحاق بكلية دار العلوم أن نقضى على صورة ارهابية تهدد الطلاب ، وتتمثل هذه الصورة في الرسوب الضخم الذى يحصل كل عام في الأدب العربى أو النحو أو البلاغة . ويترتب على ذلك اعراض الطلاب عن هذه الكلية خوفا من هذه المواد ، فمن الواضح أن الطلاب لا يخافون من التاريخ أو الفلسفة أو الشريعة خوفا من القواعد ، ولست أحب أن أدخل في تفاصيل ما يتم من تسهيلات ، وأدع ذلك لأساتذة هذه المادة ، والى تقديرهم لخوف الطلاب من سلاح مضلت يهددهم فيجعلهم يبتعدون عن هذه الكلية ، وأكتفى بأن أذكر أن الجاحظ كان يوحى « بالا يشغل قلب المتعلم بالنحو الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوام ، في كتاب ان كتبه ، وشعر ان انشده ، وشيء ان وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغله عما هو اولى به كرواية الخبر الصادق والمثل الشاهد والمعنى البارع » (١) .

ان قواعد اللغة العربية شيء مهم جدا للطلاب ، ولكن المستعمل من القواعد هو ما ينبغي أن توجه له أكثر العناية ، أما التصغير وبعض صور الاعلال والابدال فيكفى الإمام بها كثرات فقط .

ومرة أخرى لابد من عمل شيء فيما يتعلق بهذه المواد ، وما أجدر أساتذتها بعمل ذلك الشيء والاتجاه بهذه المواد الى التدريب وحسن الاستعمال .

(١) رسالة المسلمين للجاحظ ورقة ١٣ ، ١٤ (مخطوط) .

ويُتَّبَع مع طالب كلية دار العلوم طريق آخر غير ذلك الذي يسير فيه طلاب الكليات الأخرى ، فينزع معلم المستقبل من أسلوب الحياة الجامعية الجديد الذي وصفناه آنفاً ، ويربى معلم المستقبل في جو تربوي أصيل ، يلاحظ فيه جانبه العلمي والأخلاقي معا ، ويدرب ليكون مريياً يهتم في مدرسة المستقبل بالنظام والخلق كما يهتم بالعلم .

ونعقد صلحاً بين الطالب والمكتبة لنربي فيه الرغبة في الاطلاع وتوسيع الثقافة .

ويزداد عدد المدرسين والمعيدین بحيث يكون هناك اشراف على كل الطلاب ، ودرجات لأعمال السنة حتى يهتم بها الطلاب ولاشك أننا بذلك نخرج المدرس الناجح الذي تتطلع له النفوس وتهفو له الآمال .

وهناك مسألة خفيفة تثور بين الزملاء أحياناً ، وهي عن مدى ضرورة التوسع في الدراسات الإسلامية بكلية دار العلوم ، ويحيب أساتذة الدراسات الإسلامية في ذكاء وود بأن اللغة العربية جاءت إلى هذه البلاد في أعقاب الدراسات الإسلامية وتابعة لها ، ومحاولة عزلها عن القرآن وعلومه وعن التاريخ الإسلامي والفلسفة الإسلامية محاولة تضعف اللغة العربية أكثر مما تغنيها وتثريها وقواعد اللغة العربية ليست هدفاً وإنما وسيلة ليحسن الإنسان التعبير عن كلامه يقوله ، وهذا الكلام هو ما يقدمه له أساتذة الدراسات الإسلامية والأدبية .

« المودات » والمباحيق للطلاب والطالبات

وهناك همسة مهمة نهمل بها في آذان طلاب الكلية وطالباتها ، ولعلها تنقلب من همسة الى صرخة ، ومن طلاب كلية دار العلوم وطالباتها الى الطلاب والطالبات في مختلف الكليات والمعاهد ، بل الى المرأة في مختلف المصالح والادارات •

الهمسة أو الصرخة تتحدث عن موقف الطالب والطالبة مما يسمى « المودة » وأقرر في هذا الحديث أنني لست رجعيًا لأنني عشت فترات طويلة من العمر في أرقى بلاد العالم ، ولأنني لازلت أعيش في مستوى طيب من مستويات الحياة ، ولذلك فإن عرضي لهذا الموضوع يتسم بالدقة والاتزان •

في كليتنا — ككل الكليات والمجتمعات في بلادنا — شباب أطال سوائفه وأطلق شعره ، وشبابنا في ذلك يقلد اتجاهات غربية ، وأنا شخصيا ليس لي اعتراض على هذا ، فطول الشعر عرفه التاريخ في عصور مختلفة ولم يكن به ما يدعو للتقزز ، ولا يزال الناس يرون صورة المصالح جمال الذين الأفغانى وقد تدلى شعره من تحت عمامته ، وأوشك أن يسدل علي كتفيه ، وفي الغرب عثرف بعض « الخنافس » بالبراعة في الموسيقى والغناء ، وفي الدورة — الأولومبية التي عقدت في أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٣ بمدينة ميونيخ بألمانيا الغربية نقلت لنا الشاشة الصغيرة صور العديد من أبطال الرياضة وقد أطلقوا شعورهم وأطالوا سوائفهم ، كما نرى صور العديد من الشبان الطموحين الذين يشتغلون بمختلف الفنون والعلوم وقد فعلوا ذلك أيضا •

ولكن « المودة » في بلادنا تختلف عنها في أكثر بلاد العالم ، فأكثر الذين يطيلون سوائفهم هنا ويطلقون شعورهم يرون هذا هدفهم الأوحيد ولا يحققون معه أى نبوغ ، فإذا ما أطال الشاب شعره أمسك في يده

سيجارة وارتاد أماكن اللهو أو سار يتسكع هنا وهناك وحسب أنه حقق كل شيء ، ولم أر قط في كليتنا شابا أطلق سوائفه ثم أدى واجبه واستحق التقدير ، فالسوائف في بلادنا مظهر من مظاهر التفاهة واللامبالاة .

همسة عميقة الى شبابنا أن يهتموا بواجباتهم ، وأن ينالوا من الملاذ المباحة ما لا يقصّر بهم عن أداء الواجب .

فاذا جئنا الى الطالبات وجدنا الأمر أقسى وأصعب ، ففي كليتنا وفي الكليات الأخرى ، وفي المصالح والوزارات تظهر بعض النساء على نحو يتنافى مع الدين ومع تقاليد الشرق ومع الذوق العام ، فالملابس القصيرة (الميني جيب والميكرو جيب) تبدو هنا وهناك وأوجه كثير من الفتيات والسيدات تعلوها طبقة كثيفة من المساحيق ، ولسنا نستطيع أن نبيح هذه الملابس حتى للطالبات المجتهديات كما أبحنا طول الشعر ، لأن المشرع الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى حرّم هذا الوضع وليس لانسان أن يجتهد فيما فيه نص ، قال تعالى « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » (الأحزاب ٥٩) وقد حسمت بعض البلاد هذا الأمر فأصدرت قرارات بمنع هذه الملابس ، ورضى الجميع بهذه القرارات ، وترك الأمر في بلادنا للكباء مع أن المجتمع له سلطانه ، فمن الصعب على أن أمنع ابنتي مع أن زميلتها في الكلية أو النادي أو العمل تلبس ما تشاء ، اننا بذلك نخلق صراعا في البيوت وصراعا في المجتمع ، ولو صدر قرار عام لرحب به الجميع حتى المرأة المتحررة .

أما المساحيق فشأنها عجيب ، كيف تستطيع المرأة العاملة أو الطالبة أن تجد الوقت لوضع هذه الألوان وحبكتها ؟ وما فائدة هذا الجهد ؟ انه لن يجذب رجلا لراغبات الزواج ، لأن الراغب في الزواج يكره غالبا الحلوى المكشوفة التي تجذب الذباب ، وإذا جذبت هذه المساحيق زوجا فانه لن يكون زواجا مستقرا وربما جذبت هذا الرجل مساحيق أخرى أعظم اتقاننا وأدق صنعا .

اننى أعبر عن رأى الكثيرين حين أقرر أننا نشمئز من هذه المناظر بالجامعة ، ونراها فى غير مكانها اللائق ، وكم تستطيع المرأة أن تجذب لها الأنظار بأخلاقها وأناقتهما التى لا تكلف فيها ولا خروج عن المألوف .

ان الرجل الفنان يحب الجمال فى الزهرة الفيئانة ، وفى الخضرة اليانعة ، وفى الماء المنساب ، ويحب الحمال الحى فى المرأة ، ولكنه يتطلع بعمق الى ما تحت المساحيق ولا تخدعه المساحيق . أما أولئك الذين تخدعهم الألوان الزائفة فهم ضعاف النفوس والأفكار .

والعجيب أن بعض الزوجات العاملات يهملن أنفسهن بالمنزل أمام أزواجهن ، فإذا جاء وقت الخروج جاست الواحدة أمام المرأة فترة طويلة لتعد زينتها وتتألق فى ملابسها فأصبح المنظر الجميل هبة المرأة للخارج . وأصبح نصيب الزوج من أناقة زوجته خشيلا محدودا .

وقد تجتذب المساحيق عين الرجل ، ولكنه فى الواقع اعجاب " بدقة الصنعة لا بروعة المرأة التى تصنعها ، لأن عين الرجل الذكى لا تقف عند المساحيق ولكنها تنفذ الى ما تحت المساحيق ، الى الطبيعة التى حاول الزيف اخفاءها .

وهناك صيحات بهذا المعنى تقدمها كاتبات مصريات ، وتقدمها زائرات أجنبيات تطرين المرأة المصرية ، وتقدمن لها دعوة أن تعود للطبيعة وأن تترك التبذل الذى يضر أكثر مما ينفع .

ومن هذه الآراء ما كتبه محررة « أخبار حواء » بجريدة الأخبار يوم ١٩٧٢/٩/٢٤ وفيما يلى خلاصة ما كتبه :

كان ينبغى أن تكون الطالبة الجامعية والمدرسة والموظفة عنوانا طيبا ومثلا أعلى للفتاة المصرية ، ونحن لا ندالب هؤلاء بالتخلّى عن الأناقة ، ولكننا ننبه الى أن الأناقة والذوق الرفيع هما عكس البهرجة والاسراف فى

الماكياج والملابس الخليعة ، وتأخذنا الغيرة أحيانا على الفتاة المثقفة فنصرخ بأن الفتاة التى تسرف فى البهرجة وتلبس الملابس الخليعة ليست عنوانا لحصر ، وانما هى من الفتيات اللاتى تتجهن للتسكع فى الشوارع ولفت أنظار الجماهير ، ولكن تصيينا الصدمة عندما يقال لنا ان اللاتى تلبسن هذه الملابس وتظهرن بهذه البهرجة هن فى الواقع من طالبات الجامعات •

رجاء وأمنية أن تنقذ الفتاة الجامعية سمعتها من هذه الاتهامات وأن تصبح بحق الصورة المشرفة لوجه مصر •

بقيت — عن كلامنا عن دار العلوم — فكرة تظهر فى مذكراتى وتعيش فى خلدى . فقد كنا — كما سبق القول — بالقسم الداخلى بالكلية ونحن طلاب ، وكان عنبرنا يَطحِلُ على شارع المبتديان ، وكنا نشاهد مرة فى الأسبوع على الأقل عملية غسيل للشارع أوتوماتيكيا ، فكانت سيارة مجهزة بجهاز أوتوماتيكى للغسيل تروح وتغدو بالشارع حتى تتركه كالمرآة كما يقولون ، وتنتقل من حى الى حى •

ولا يزال شارع المبتديان يعيش ، ولكن الحال قد تغيرت بعد أكثر من ربع قرن من الزمان ، فقد اختفت السيارة الأوتوماتيكية ، واختفت كل وسائل النظافة تقريبا ، وارتفعت حول الكلية أكداس الزباله ومناظر القاذورات ... يا لله ! ! كيف انحدرنا وكان ينبغى أن نصعد ؟ •

مع الشجر

الأدب والشعر :

بعد الحديث عن القسم الثانوى بمعهد الزقازيق والحديث عن دار العلوم ينبغى أن نقف وقفة نتحدث فيها عن الشعر ونصيبي فيه ، وقد سبق أن قلت ان نزعة أدبية لمستثما فى نفسى فى أخريات عهدي بالقسم الابتدائى ، وأن هذه النزعة الفجة قد نضجت فى القسم الثانوى ، فلما التحقت بدار العلوم صُقلَت هذه الموهبة الى حد كبير ، وهذه الموهبة الأدبية كان لها عندى مظهران ، المظهر الأول الشعر وسنخصه بحديث طويل بعد قليل ، أما المظهر الثانى فهو النثر خطابةً وكتابةً ، وهذا المظهر الثانى كان ولا يزال وسيلتى فى كتابة ما ألفت من كتب وما نشرت من بحوث ، وما ألقيت من محاضرات عامة وخاصة ، فقد كانت سهولة التعبير عما بنفسى من أفكار من أهم الأسباب التى يسَّرت مهمتى كمؤلف وأستاذ ، والحمد لله واهب المنن الذى هدى لهذا وما كنت بسواه قادرا على التأليف بسلالة وانسياب ، وهناك كثير من المفكرين والباحثين لديهم أفكار مفيدة ، ولكن تعبيرهم عنها بالكلمة المقولة أو بالكلمة المكتوبة صعب ، وقد تعجز العبارات التى يكتبونها عن حمل الأفكار التى يحملونها ، فليت هؤلاء يتجهون بمزيد من الجهد لتكوين الأداة أو الوسيلة كاتجاههم لتكوين الفكر والبراعة فى البحث ، فالكلمة هى سبيل نقل الفكرة من داخل الانسان الى المجتمع ، وسبيل حراسة الفكرة من جيل الى جيل ، وقد عاشت كثيرا من الزملاء بالخارج وبعضهم كان يسهل عليه أن يعبر عن نفسه بالانجليزية أكثر مما يستطيع بالعربية وقد كانت تأخذنى الغيرة على لغتنا الجميلة ، وعلى ما تمدته لكثير من الباحثين بما يسمى السهل الممتنع •

ولنكتف فى الحديث عن النثر والخطابة بهذا القدر ففى الكتب التى أخرجتها والمحاضرات التى ألقيتها ما يشفع لى بالاكْتفاء بهذه الإشارة ، أما الحديث عنى كشاعر فيحتاج منى هنا الى وقفة أطول وأفسح ، فلقد لعب الشعر دورا مهما فى حياتى ، وإذا كنت الآن أطيل الجلوس بمكتبى

مع المراجع لأدوّن فكرة ، أو أحصل بعض مراجعى الى النادي لأبحث فيها ، فطالما فعلت مثل ذلك مع الشعر فى مطلع الشباب . ولكن افئذارى العلمية ظهرت للوجود ممثلة فى عشرات الكتب التى طبعتها وأعدت دلبعها مرارا ، بيد أن شعرى أوشك أن يختفى ، وكثيرون جدا ممن يعرفوننى كاتباً ومؤلفاً لا يعرفون عنى شيئاً كشاعر . وهى مرحلة من العمر اعلم ان الأوان للإشارة إليها فليس من العدل أن تضيع .

طرف حول الشعر :

ولا يخلو الحديث عن الشعر من طرف أسرد فيما يلى بعضها :

فى معهد الزقازيق كان هناك بطبيعة الحال منافسات بين الدالاب المتفوقين ، وكانت هذه المنافسات بريئة وطيبة . وكانت أحيانا تتعدى المنافسة الفردية الى الجماعية بمعنى أن جماعات من الدالاب كانت تتعاون وتتعاون علميا وأدبيا ، علميا فى المذاكرة وأدبيا فى جماعات الشعر والدالابة والتعصب لهذا أو ذاك ، وكان لى زميل ينافسنى فى مجال الشعر . وانا وقفنا معا فى المناسبات المتعددة ليلقى كل منا قصيدته . فأنال انثر الاعجاب أو يناله زميلى ، وكان هناك طالب من بلدة هذا الزميل يصفّق لشعرى ويعتزّ به أكثر مما يفعل مع ابن بلده ، وفى مرة ضاق منافسى الشعر بصدق بصدقى ابن بلده فقال له : انك تفاخر بشعر شلبى وانت لا تعرف الشعر ، ولما عرفت ذلك أوعزت اليه ان يجيب بأنه يقرض الشعر على نسق لا يقل عنه ، ولكنه لا يجب اظهاره احساسا منه بأنه دون المستوى المطلوب ، ومنذ ذلك الحين بدأت منافسة جديدة بين الاثنين .

لم يكن صديقى هذا شاعرا ، ولعله لم ينظم بيتا واحدا من الشعر طيلة حياته ، ولكنى كنت خلكفه ، أنظم له قصائد من حين لآخر اظهر بها فى المناسبات ، وهب صراع طويل ، فهناك شكوك واسعة بأن هذه المفاجأة

الشعرية ليس لها أساس ، وأن المؤلف الحقيقي لهذا الشعر هو أنا ، ولكنى كنت انكر ذلك باصرار ، وأدع صديقى يردد هذا الشعر بزهو وسرور على أنه شعره •

وطال أمد هذا التصرف حتى قال لى صديقى مرة : « لقد بدأت أحس بأن هذا الشعر هو شعري أنا فعلا » فشجعتة بأن يتمسك بهذا الاحساس ، وكانت أسهم هذا الصديق توشك أن ترتفع على أسهم الشاعر الحقيقي الذى كان ينافسنى ، فأصبح ابن بلدته يشغله بالمنافسة •

وفى اجازة الصيف ذهب هؤلاء الى بلدتهم وذهبت الى قريتى ، وكانت المسافة بين القريتين حوالى ثلاثين كيلو مترا ، ووجد الشاعرُ الحقيقي ورهاقه الفرصة سانحة للايقاع بصديقى وكشف أمره ، فانتهزوا مناسبة من المناسبات الدينية — هى الهجرة النبوية الشريفة — وأعلنوا عن اقامة حفل بهذه المناسبة يدعى له أعيان البلدة والمثقفون ، ودعى صديقى ليسهم بقصيدة فى هذا اللقاء ، وكان ذلك قبل موعد الحفل بيومين •

قال لهم صديقى : ان الوقت ضيق ، وربى الشعر قد لا تواتينى فى هذه الفرصة ، ولكن أصواتا كثيرة صاحت فيه قائلة : ان عدم اشتراكك سيقتوى وجهة نظر الذين يدعون بأن الشعر الذى تقرأه هو شعر شلبنى وأن بعدك عنه بعد عن الشعر وعن ربة الشعر ، وظهر طابع التحدى فى هذا الأمر • قال صديقى : انى أقبل التحدى ، واتركونى لأخلو الى نفسى ، وأرجو أن تنطلق قدراتى الشعرية •

ولم يضع صديقى وقتا ، واتجه الى محطة السكة الحديدية والتقط المقطار لى ، وفوجئت به أمامى يصرخ قائلا : لقد أوشك الأمر أن ينكشف ، وقص على قصته ، قلت : هوّن عليك ، فلهذا الداء دواء حاضر ، خذ هذه القصيدة التى أعدتها لنفس المناسبة • فأخذها وقفز قائلا : هذه كل

تحيتي ، أريد أن أعود بسرعة قبل أن يحس أحد بأنني غارقت القرية .
وعاد دون توانٍ ، كان معهم في الصباح وراؤه في الظهيرة والمساء فلم
يخطر لهم ببال أنه سافر لي ، وفي الليلة التالية كانت هذه القصيدة تلقى
في حفلين ، ولكن المستمعين هنا غير المستمعين هناك ، ومنذ ذلك التاريخ
أصبح صديقي في نظرهم شاعرا دون أدنى ريبة .

ومن الطرف التي تتصل بالشعر ما حدث في كلية دار العلوم . فقد
كنا بالقسم الداخلي ، وكانت المذاكرة والسهر والجهد تتنسخ ابتداءً من
شهر مارس حيث تعيش الكلية نهارها وليلها في وهج وجِدٍّ . ومبنى
كلية دار العلوم كان يقع بالقرب من جاردن سيتي ، وفي شهر مارس
والشهور التالية له يتخفف الناس من الملابس الثقيلة وتتفتح الزهور .
وتنطلق المرأة من عقال الشتاء بكل زينتها وجمالها ، وللمرأة في حياة الشبان
دور كبير ، انها تسيطر على جانب عظيم من عواطفهم وتجذب عيونهم
وتستهوي عقولهم ، وهكذا بينما كنا معشر الطلاب ننصرف عن الحياة
ومباهجها الى السهر والكدح كانت المرأة وكانت الطبيعة تنطلق في بهجتها
وروعتها .

وخطر لي هذا الخاطر يوما فكتبت العبارة الآتية على السبورة
التي كانت توضع عادة عند مدخل المطعم لتدوّن عليها تعليمات
المشرف :

« الطلاب مدعوون لتأليف قصيدة يثسّم فيها كل منهم بيت واحد .
ويكتب اسم المؤلف أمام البيت ، والبيت الأول يحدد موضوع القصيدة
وبحرها وقافيتها » وكتبتُ أنا البيت الأول هكذا :

متى يجيء ربيعٌ وليس فيه امتحان ؟ شلبي

وقرأ الطلاب هذا الاقتراح فأعجبوا به ، وسرعان ما امتدت أيديهم
الى الطباشير ليضيفوا أنصباؤهم ، وكان بعضهم يفكر في البيت الذي

سييسهم به وهو يتناول طعامه ، فاذا استقام له البيت أسرع يترك المائدة ليدوّن هذا البيت ثم يعود للطعام ، وعندما انتهت الوجبة كانت السبورة تضيق بما كتبت عليها ، وكانت هذه الشركة قد أخرجت قصيدة رائعة تمثل اتجاهات الشباب وطموحه .

وحدث بعد أن توقفتُ عن قرض الشعر وأنا مدرس بالجامعة أن اشتريتُ في معسكر ثقافي بمرسى مطروح ، وكان معنا زميل قديم يعرف أنى شاعر ويعتقد أنى لا زال أقرض الشعر ، وفي سهرة من السهرات كان يحضرها عدد كبير من الجنس اللطيف طلب منى أن ألقى قصيدة من شعري ، وألحّ في الطلب واشترك معي في ذلك آخرون ، فألقيت قصيدة سيراها القارئ فيما بعد وعنوانها « اليها » ويبدو أن أحد الحاضرين لاحظ أن عيني التفتت وأنت ألقيا بعين هذه الفتاة أو تلك ، فظهر احساس بين الحاضرين بأن هذه القصيدة نظمتُ في مرسى مطروح متصلة بفتاة من الحاضرات ، ولم أنكر أنا هذا الاحساس مع أن القصيدة نظمت قبل ذلك بفترة طويلة ، وتساءلتُ الفتيات عن تلك التي أوحى بهذه القصيدة الرائعة ، وأجبتُ اجابة فيها ذكاء ومكر بأن هذه الفتاة تعرف نفسها . وعشنا فترة وأكثر من فتاة من هؤلاء تعتقد أنها صاحبة الالهام .

وبعد ... فأين هذا الشعر الذي تحدثنا عنه ولم نتعرف عليه ؟ .

الاجابة عن هذا السؤال تعود بي الى الورا طويلا ، فقد كان من التقليد المتبع أن زعماء الطلاب بمعهد الزقازيق — وكان أكثرهم أو كلهم من الشعراء — ينتهزون فرصة مكانتهم الاجتماعية بين الطلاب فيجمعون شعرهم في ديوان ، وينشرونه ويبيعونه للطلاب ، فلما جاء دوري خطر لي احساس بأن هذا التصرف فيه نوع من استغلال المكانة . وينوع من الكبرياء أو العناد لم أجمع شعري ولم أنشره ، وتغيرت اتجاهات الحياة بعد ذلك ، فقد تطلعتنا في دار العلوم الى المستقبل والواقع أكثر مما تطلعتنا الى الخيال ، وبعد دار العلوم لم يطل بي المقام بمصر وسافرت الى انجلترا

عضو بعثة جامعة القاهرة ، وفي خلال هذه الرحلة ضاعت من بيتنا بالريف قصاصات الورق التي حملت خطرات قلبي في فترة من أهم فترات الشباب ، أين قصيدة الليل التي أخذتُ عليها الجائزة الأولى والتي صورتُ الليل في هدوئه وسكونه ، وصورت العابد الحاني ، والمحبة المدنف ، واللص المتنكر ، وصورت جماعات الحشاشين الذي يلتفون حول الدخان القاتل المتصاعد من « الجوزة » أو يلفثهم هذا الدخان القاتل ، وصورتُ لاعبي القمار حول المائدة الخضراء وما يكثر آنذاك من مؤامرات هامة ، ودقات قلوب توشك أن تنفجر ... أين هذه القصيدة وأين سواها مما عبّر عن عاطفة الحب التي كانت الشغل الشاغل للشباب في تلك السن ؟ وأين القصائد الدينية والوطنية التي طالما صفق لها الناس واعجبوا بها ؟ أين هذا كله ؟ لقد أكله النسيان واحتواه المجهول . أبيات هردية لاتزال في خلدي توحى بمناسبات عميقة الأثر في النفس ، فهناك بيت يمثل بقايا قصيدة ويرمز لقصة ، خلاصتها أننى وأنا طالب بدار العلوم كنت أعود من حين إلى آخر إلى قرينتنا ، وكنت أمرّ بالزقازيق في طريقى إلى القرية ، وفي الزقازيق كنت أحط الرجال في بيت لنا به صلة ، وبه فتاة جميلة مهذبة تحسن استقبالى وأنعم بحديثها العذب واهتمامها الكبير ، وكنت إذا تأخرت في القاهرة عاتبتنى عتاباً به نغمات الشوق والود ... ومرت الأيام ، واستوى عود الفتاة ، وبدأ الراغبون في الزواج يدقون الأبواب ، ولم يكن في وسعى أن أتزوج آنذاك فالتقطها أحد الراغبين ، وقنعتُ أنا بأن أبرز زفرات النفس في قصيدة سينية كانت أيامها من أرق القصائد ، وضاعت هذه القصيدة مع ما ضاع من شعري ، ولم يبق بذاكرتى إلا بيت واحد يمكن أن يسمى بيت القصيدة لأنه يصور القضية تصويراً دقيقاً ، وهذا البيت هو :

كنت لي واحدة أميل إليها

عندما تعصف الرياح بنفسى (١)

(١) جددت كتابة قصيدة لتملأ فراغ القصيدة التي ضاعت ، وسرى القارئ ظروف ذلك فيما بعد ، ويرى القصيدة الجديدة بعنوان « وقفة وداع » .

وهناك بيت آخر من الشعر يصور صراعا بين فتى وفتاة ، كانت الفتاة طالبة في الجامعة في وقت كانت الطالبات بالجامعة قليلات ، وكان بها جمال واعتداد بالنفس ، بدت ساخرة من الحب ، وغير مكترثة بالفتيان الذين كانت تخفق قلوبهم كلما رأوها أو ذكروها . والتقت هذه الفتاة بشاب وسيم يشغل مراكز جذابا ، وكأنها كانت قد تعبت من الصراع والظهور بمظهر الاعتداد بالنفس ، فألقت بنفسها في حبه وهامت به ، ونظمت في ذلك قصيدة كانت ضمن ما ضاع من شعري ولم يبق منها في ذهني الا بيت واحد هو :

كانت تدلّ على سواك وانما
نسيت لديك دلالها المعهودا

وهناك مجموعات من هذا الشعر تبرز في المسرحيات الشعرية المدرسية التي نشرتها وأنا مدرس بالأورمان النموذجية ، واحدى هذه المسرحيات عن « ميلاد الرسول » وثانية « عن المدرسة الفاضلة » وثالثة عن « جامعة الدول العربية » وكانت هذه الجامعة عند قيامها حدثا يشغل الأذهان ، وهناك بعض قصائد نشرتها الصحف والمجلات في حينها ولكن هذا وذاك ضاع كذلك ، ولم أعد طبع المسرحيات المدرسية بعد أن اتجهت بى الحياة وجهة أخرى وانشغلت بالفكر الجامعى ، ولم يبق لما نشرته الصحف والمجلات أى أثر .

قلة قليلة جدا من الشعر وجدتها مصادفة جمعتها مفكرة صغيرة تأخذ شكل كتاب فلم تعبث بها يد الإهمال ، وقد قرأت هذه المفكرة ، وليس ما بها من شعر أجود ما كتبت ، ولكنه جزء أعتر به منه ، وقد اخترت منها نماذج تمثل شعر المناسبات والشعر العاطفى وبعض الأناشيد الدينية والوطنية والاجتماعية :

وفيما يلى هذه النماذج :

الهجرة النبوية الشريفة

ذاك ركبٌ يَجِدُّ بين الصحارى
قد طواه الدجى فهمٌ وسارا
أيقظ الصمتَ والرمالَ سَراه
وأثار الحصا وفَضَّ الغبارا
كان في عـونه إلهُ البرايا
فَرَأَى صفحةَ الظلامِ نَهَارا
عَدَدَ "قل" عُدَّةً وعديدا
بينما فيه عزيمةٌ لا تبارى
لم يهابوا الردى وخيرٌ إليهم
أن يموتوا من أن يذوقوا الصغارا
عقدوا العزمَ أن يعيشوا وفيهم
عِزَّةٌ تملأ الوجود فخارا
كلُّ عيشٍ مع المهـلانةِ ذلٌ
يجعل المنزلَ البهيج قِفَارا
وطنُ الحرِّ حيثُ يحيا عزيزا
لا يعانى الآلامَ والأكدارا

إيه يا موكبَ الرسولِ لقد سِرَّ (م)
تَ وأضحى العلا إليك شعارا
قد دعتك السماءُ يا يثرب الخيد (م)
واغهبى واسـتقبلى المختارا

ولتيسر موكب الرسول ليلقى
في رباك الأبطال والأنصارا
تركوا الوطن الحبيب ولكن
رغبوا موطن السماحة دارا
سيشع الاسلام منك على الدنيا (م)
يا فيهدى الورى ويحمى الذمارا

اليها

الى الفتاة الغادة الطروب
الى الجمال الناعم الرطيب
الى الفؤاد اليقظ اللعوب
أرسل قلباً دائماً الوجيب

يذكرها في التلجب المشبوب
وفي السكون الشامل الرهيب

يذكرها في قسوة الخطوب
وفي ابتسام الأمل الرحيب

فذكرها للخالق الدعوب
تسبيحة المستغفر المنيب

يا وطن المشرّد الغريب
وأمل للجاهد المكروب
ويا مثار الحُب والنسيب
أشعل همّي الرأس بالمشيب
وصيّر الفؤاد في لهيب
وما رثت لذوّبه المسكوب

ولا كُفِّتْ للمدح المصبوبِ
ولا لقلبٍ واضمح النقابِ
أعياها ما عاناه من لغوبِ
لعله يكون من نصيبِ
أن ترجمي ما نلت من شحوبِ

لازلت يا دنيائى الحبيبِ
ريسانةً في كنفِ نصيبِ
وكنيت في المستقبل القريبِ
إلهامٍ صب صاقدٍ التشبيبِ

وقفية وداع

هذه القصيدة من وحى العاصمة المثلثة بالسودان الشقيق ، فقد كانت هناك أمسية شعرية في شهر يناير سنة ١٩٧٨ أنشد الطلاب فيها سينية شوقي على أنغام الموسيقى ، ثم طلب الحاضرون مني أن ألقى بعض شعري ففعلت ، ولكني ذكرت — معلقا على سينية شوقي — أننا ونحن طلاب بدار العلوم اتجه شعراء الطلبة لمعارضة سينية البحتري على نحو ما فعل شوقي ، وكنت من هؤلاء وكانت البسينية التي كتبتها مرتبطة بالقصة التي رويتها من قبل عن فتاة الزقازيق ٢٢٠ غير أن البسينية التي كتبتها ضاعت ولم يبق منها في ذاكرتي إلا البيت الذي أشربت إليه أنفا وهو :

كنت لي واحدة أميل اليها
عندما تعصف الرياح بنفسى

بيد أن صديقا سودانيا التقى بي عقب نهاية الحفل وقال لي بصراحة السوداني : أنا لا أصدق أن سينية كهذه يمكن أن تضيع ، ويخيل لي أنك لم تنظم في هذا الموضوع إلا هذا البيت :

وشقّ على هذا القول ، فاتجهت في الحال لأكتب القصيدة من جديد ، وجاءت القريحة بالأبيات التالية ، وقدمتها له في الصباح ، والسينية الجديدة ليست من قريب أو بعيد تلك السينية الطويلة التي نظمها إبان الشباب ، فالسينية الجديدة غلب عليها طابع الحاضر بما فيه من آمال تحققت ، وكبرياء لا تخضع لسلطان الحب ، وهي بذلك تخالف السينية القديمة التي كان بها وهج الشباب ، وفورة الحب ، وقسوة الفراق ، والقصيدة الجديدة هي :

جمعتنا الحياة في عهد أنس
مر كالطيف بين شوقي وهمس

كنت لي واحدة أميل اليها
 عندما تعصف الرياح بنفسى
 كنت لي جنة أغرد فيها
 كنت مستقبلتي ويسومي وأمسي
 كنت حنولي فكرنا وقلبا حنونا
 كنت نبض المسنى ورجفنا لصنى
 كنت رحي القصيد منيذ التقينيا
 وأخاف القصيد يمني بحبين
 واغترقنا ، فرحت أمضى كئيبا
 وتهجدت في مباحج عرس

منية القلب لا تراعى فينتاني
 لن أطيل البكا وأحيا بيأس
 لست كالواله الذى يقطع العم
 بر نواحاً علي فقيد برمس
 لا وحق الهوى سأفتح بابا
 لمنى يستطيعنا كل حص
 كبديل عن الهوى سوف أمضى
 أطلب الجيد في إيلاء وبأس

ويمينا حبيبتى سوف تبقى
 ذكريات الهوى بأشرف قدس
 ذكريات أريجهما يملأ الأفق
 ق عيرا وجرسها خير جرس
 فوداعا حبيبتى ، كل صبح
 سوف يمضى الى الأصيل ويثمسي

خشب مدامت

هيجت شعري في هواك بنظرة وبسمة
لكنني لم أجبظ من فمك الجميل بهمسة
أثرى تحب وأنت لم تشفع هواك بكلمة ؟
أما أنا فأليك أتهسف بالهوى والصبوة

* * *

مس الهوى قلبي وكنت عن الهوى في غفلة
فانساب لي طيف الحبيب يهيج كل من نشووتر
طيف أتى سحراً يحا (م) ورنى بأبهى طلعة
ويدا يدق القلب مز (م) هواء بأروع فتنه
والقلب أوشك يستجيب لمن يداعب مهجتي
هل أستجيب له ؟ وان لم أستجب يا حيرتي
حييت يا طيف الحبيب ولا مئيت بلوعة
والتيك شعري قد أذبت به رحيق محبتي

مصدر الإلهام

إن وصفت الراح أسكرت ، وإن
قلت في الوجد أسلت العبرات

أو وصفت الروض في بهجتنه
أجمل القارىء بين الزهرات

أو ذكرت الحب أمني مدثفنا
كله جالى القلب صوفي السمات

يا حبيبي منك إلهامي وغنني
يا حبيبي أنت نبراسي حيانتي

هند

يسألكنى كيف السبيل إلى هند
فقلت له : وعزّ المحبة والقصد

وفى القلب من جرّاء هند شكايه
وللعين دمع لا يجهش ولا يجدرى

سألتك يا هند الوصال فلم أنل
ولا موعدا يشفى الفؤاد من الوجدر

وأنت غذاء الروح يا هند فارحمى
معذنى أسير الحب والشوق والود

حببتك صبداً طويقتك حبائلي
ولكننى كنت الأسير إلى الصيد

وإنى ليرضىنى إذا ما ذكرتنى
ولو كانت الذكرى مع الدل والصد

ولكنما الهجران يا هند لوعة
يذوب لها قلبى ويصحو بها سهدى

وأنت بقلبى تسكنين غاشقى
عليه ، وكونى منبع الخير والسعد

وان تجرحى يا هند قلبى قريباً
نرى مرهف الأسياف يقضى على الغمد

وتأنس نفسي أن أذلّ وإنه
لأهتوّن أن أفتنى من المذلّ والقيدِ

ولكنني أهوى الإسعبار إذا بدا
لهند فما أهلى الخضوع إلى هندِ

فهند كوجه الصبح أو نسمة الصبأ
وهند كتشتر الزهر أو فطرة الوردِ

يا حبيبي

وجهك المشرق غياض سننائه
شعرك الباسم ما أحلى لسانه
أنت أنقذت فؤادي من لظاه
يا ملاذي من تباريح الحيناه

يا حبيبي قد عرفت البسمات
بك ، من بعد لهيب العبرات
يا حبيبي أنت نبراس حياتي
يا حبيبي أنت للقلب منسأه

يا حبيبي كنت في الدنيا غريباً
أملأ الساعات حزناً ونحيباً
يا حبيبي جئت لي صدراً رحباً
صرت كالواحة في جوف الفلاة

يا حبيبي بعد طول الظلمات
جئت كالصبح جميل القسـمات
يا حبيبي غامحت كل شـكـاة
وبدأت في حسناتك الحيات

أنتَ من خفَّفَ ويَلاتِ الحـن
أنتَ من كَفَّفَ آهاتِ الشـجن
أنتَ من أهـوى على مَرَّ الزـمن
أنتَ من أضفَى على قـلبي هـبـداه

يا حبيبى أنتَ من يهـواه قـلبي
يا حبيبى هيـك آمـالى وحـبى
قد ملكتَ الروحَ فى بـعـد وقـرب
يا حبيبناً ليس للـقلب سـواه

لقسماء

ذاك يومٍ مَطَّئُ القسَماتِ
فانظمَ الشعرُ عبقرى السَّماتِ

شغلتنى الأحداثُ عنه ، ولكن
نشط الشعرُ بعد طول سبات

هبْ يروى عنى حديث لقسمائى
يفتسائى ، بأنضِر الزهرات

كنتُ فى وحشة الغريب ولو أنى (م)
محطاً بصحبتي ولداتي

فتطأعتُ للسماء أناجيها (م)
وأرجو منها رقيق حياتي

فاستجابت لي السمااء وأهدتني
هبةً خلقتها أعز الهبات

بعثت لي حبيبتى مثل وجهه (م)
الصباح يبدو في حالك الظلمات

ملأت حولي الحياة نعيماً
وأذابت ما بي من الآفات

هي أنس لوحدتي وهناء
لجنائى ، ومنبع البسمات

كلُّ ما في الوجود أضحي جميلا
منذ أشرقت يا نعيم الحياة

بسمه من سناك تملأ بالبشر (م)
هؤادى وبالأرضتنا جنتنا

لبيك

قلبيها كلُّه خنسان ورق
أين منها ملائكتك للرحمة تتناثرت

هي في القرب والبعاد سناء
نوسنقى بؤدهى فيه متهنئتك

ربِّ ، بارك لقسمنا وألينا
ما نوجى من المنى العطرات

بسمه

الليلة

أتراه يا طيفاً الى وسيلينان
أم نسيج الخيال للشعوان

أم أرى ليلة تجمع فيها
كله حسن وبهجة واقتنان
خفكت بالسمرور والبشور حتى
مسحت ما ألم من حرمان
كلنا الى الوثيق جد جنونا وحسنا
أو كما قيل عن ليالى الجنان
هذا انشيدت

قد تمتعت في سبيلها ولكن
ما الى وصفها الى يدان
رب شيء وصفته فتبدى
وهو أزهى من أن ترى عينان
يوشك السامع اللبيب يراه
من خلال الألفاظ مرأى عيان
ذاك سر البيان لكن هذى
ليلة أعجزت جلال البيان

هي في الحق ليلة من خـلـود
قيد تسامت* عن الكلام الفاني
انها عبقرية الحسن تحسب
كل ما عـز* من كرام المعاني
كم تمنيت* ساعة من هناء
فاذا تلك فتوق كل الاماني

قبس* منك كل وقت جميل
يا فتاة الاحلام والوجدان
انا اغمضت* عن سنواك عيوني
لتظلي* وحيدة* بجنان

منزاع

أبيتُ أنفكر قلباً ليس يذكرني
وأطلب الوصل من رام هجرانا

وكم يبعث إليه روحى تعباً نقه
في هدأة الليل ، غارت دمت وما لانا

حبيبة القلب ، حتى م البعاد وقد
ملأت ديتيك أنعاماً والخبساتنا

ولا غوادك حبي بات يشغله
ولا غوادى يبنى عنك سنلوانا

أرى السعادة من دنيا الهوى انبعثت
بيننا تراها غنى يبدو وسلطاناً

تحيية

كنت مدرسا بالأورمان النموذجية قبل السفر للبعثة ، وكانت هذه المدرسة هي ومدرسة حدائق القبة تابعتين لمعهد التربية العالي للمعلمين ، وفي سنة ١٩٤٦ كان المرحوم الأستاذ محمد فريد أبو حديد عميدا للمعهد ، وبالتالي مشرفا على المدرستين ، وقد أقامت مدرستنا بمناسبة نهاية العام الدراسي حفل استقبال لهيئة التدريس بالمعهد ولدرسي حدائق القبة ، وفي هذا الحفل أُلقيت هذه القصيدة باسم مدرستنا ترحيبا بالضيوف :

ذاك عقيد من الجمال النفسيد
بظمته يد الصنبايع « فريد »
ونجوم تشع في أفق المجد (م)
بتهدي الى الطريق الرشيد
وشباب كأنه طاقسة الزهر (م)
امتنانا أو غاضبات الورود
قيد هداهم روح العميد فساروا
في سبناه وظلله المبيدود
في سبنا معبود تلاقى لديه
كل فكر من طارف وتليد

دونكم يا شباب من خاض الحرب (م)
غمارا ، وراض خفق البنود
دونكم يا شباب من أنفق العمر (م)
كفاحا بين القنا والصديد
عندكم النفوس طب ، وفيكم
أمل يترجي لكلا مجيد

كم فؤاد هوى وعقل تـردى
فـرستم له سبيل الصـعود
وأزلتكم جدب النفوس ، وكنستم
سـحباً نضرت جبين الوجـود
فإليكم ذكر أجـل من الدـر (م)
وأحلى من النـفسار الفـريد

فلذات القلوب تأتي إليكم
لتصوغوا منها ثمين العقـود
كم وليد أتاكم شارد النفس (م)
فأضحى بكم أجـل وليد
وصغير أتاكم يجهل النطق (م)
فأحسى بكم خطيب الوفـود
وجنان رأيتم فخلقتم
منه رب القنا ونحامي البـود
صفحة الفكر أصبحتمكم صفحة (م)
مجـد وعزـة وفـود
ما شغلتم بثروة أو فـتنتم
بـعون المـا وحسن الغـيد
جهدكم كله الى الطفل والطفل (م)
جـدير منكم بجهد جهـد
نـشـئوه على كريم السـجـايا
ونبيل من الصفات الحمـيد
وابعثوه قلباً كبيراً يحقـق
ما ترجى بلاد من سـمـود

وانشروه ضواءاً يفيض فيهدى
كل سائر إلى الطريق السديد
قد عقدنا عليه خير الأمانى
ولديكم تحقيق تلك الوعود

إن حُرِّمْتُمْ طول الثراء فمهلاً
فالأمانى معقودة بالعميد
لا تترأعوا هذه (درجات) ()
تتوالى مشفوعة بالمزيد
ذاك عهد به الغنى سعيد
وقليل الأموال غير سعيد

يا شباباً رعتكم خير عين
وهديتكم بكل فكر جديد
قتيد الطفل بالسلاسل حتى
ضج في طوقه الثقل الشديد
أنتم النخبة النماذج تسعو (م)
ن حثيثاً لفض تلك القيود
كلما أنتجوا إلى الطفل قيوداً
حطّموه أنتم بعزم حديد
لا رعت عهدهم سحائب خير
إنه عهد قسوة وركود

يا شباب الحقائق الغر هذى
ليلة دونها ابتهاج العيد
قد سعيتم لنا كما يهبط الغيث (م)
بروض ، فيزدهى كل عود

ويطيب الغناء للطير حتى
لا ترى غير ساجع غريد
توشك البروضة النضيرة أن تهتف (م) :
أهـلاً ومرحباً بالوفود
ذاك صوت الأورمان طاب صـداه
فهو في صمته أرقش نشيد
جمعكم بنا رسالة حب
وهوى للنهوض والتجديد
فكرة كلنا رعاة حـماها
منذ كانت وليدة في المهود
سكب المعهد العريق عليها
من هـداه وخصها بالجهود
فاستقامت تدرب في ساحة العلم (م)
وأضحت تمشي بخطى وثيد
وبكم يا شباب سوف نراها
أيقظت كل غائب وشهد
هـدف يرتجى فسـيروا اليه
واملئوا يا شباب سمع الوجود

خـواطر

هناك شعاعٌ في نواحيك يسطعُ
وضوءٌ على أنحاء نفسك يطلُعُ
ومشعلٌ نورٌ في دياجيك يلمسُ
تمتعُ به مادام في الأفق مشرقاً
هكلك شعاعٌ سوف يخبو ويذهبُ

صروفٌ توّالى في الحياة وتعظمُ
وهمٌ وأحداثٌ على المرء تجئُثمُ
وليس له منجىٌ ينعينُ ويرحمُ
ولكنها الأرزاءُ ان جئن خالياً
تركنَ له قلباً يذوب وينضبُ

هان شعاعٌ في دنياك ضوء فأسرع
ونفسك من طيب المباهج أشبع
ولا تدخر وُسْعاً ، فشرُّ مضيع
حتى يرقب الآمال حتى اذا أتتْ
تراه قنوعاً حينما الحرص أنسبُ

ولا تدكر عند المسرة واليمن
صنوفاً عن الآلام والبؤس والحزن
وإلا تضيع ساعة الصفو والحسن
وتبقى جريح القلب ولهان شاكياً
يسير بك الحرمان أيان تذهبُ

وان ربيعَ العمرِ في لحظة السعدِ
وفقدَ ربيعَ العمرِ ليس من الرشيدِ
وفرحة نفس المرء نوعٌ من الخلدِ
فكن مرحاً واظفر بما لاح انه

بريق سيخبو بعد حين ويغرُبُ

الشرق بين الماضي والحاضر

الشرق أستاذ الورى فى أرضه
نبئت بسذور العلم والعرفان

قد كان يزخر بالحياة وغربهم
لما يزل فى العالم الوستنان

قد كان - والدنيا قفار كلها -
روضا يضوع بأطيب الريحان

قد كان - والدنيا اضطراب شامل -
مهد النظام ومصدر السلطان

فاذا به يشقى وينسى فضله
ويصير نهب الظلم والطغيان

نشيد الجلاء

من أجلك مصر جراحى من أجلك مصر الدماء
نفسى وقلبنى سلاحى حتى يتيمّ الجلاء

يافتية النيل هبثوا لدوحة الحرثية
نمأوها أن تصبّوا تلك الدماء الذكية

لن يطهر النيل إلا إن جلى منا الفداء
يانيل نقسم ألا تغلو عليك الدماء

سلاحنا الحق بيننا سلاحهم من حديد
والحق أبلغ طعننا من كل ماض هريد

هذا العدو عليه من كل نفس عدا
قلن يطيب إليه يامصر هيك بقاء

الضلّاة

أذّن الفجر فقوموا ياربناقى للصلاة

إنه صوت رخيّم قد دعانا للإله

أكثرُوا لله ذكرًا إنما الفضل إليه

واسجدوا لله شكرًا كل خير من يديه

وجعلوا الطاعة فيكم عادة منذ الطفولة

إنها خير إليكم وطريق للفضيلة

طاعة الله سرور ورضا الله جميل

فاتقوا الله تصيروا في هتاء لا يزول

البعثة العلمية لأوروبا
والعمل بالجامعة بعد العودة من البعثة

مقدمة :

كان الملك فاروق يقيم حفلاً سنوياً لأوائل الخريجين من جميع الكليات والمعاهد العليا ، وكان هؤلاء الخريجون ينزلون في ضيافة الملك ثلاثة أيام بالإسكندرية ، وفي الحفل الذي أقيم لنا سنة ١٩٤٥ بهذه المناسبة وقفت مع زملاء لى وتطلعنا إلى البحر المتوسط ، وناجينا ماءه الصاخب أن يحملنا إلى الشمال لنقوم بدراسات عليا هناك ، ولنتعرف على ثقافة الغرب واتجاهاته نحو أفكارنا وتراثنا ، واستجاب القدر لهذا الدعاء ، ولكن الطريق إلى أوروبا كان حافلاً بالمتاعب .

كانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) قد منعت أوائل الخريجين خلال سنوات الحرب من استكمال دراساتهم بالخارج ، فلما أخذ نشاط البعثات يتجدد كان دورى متأخراً لأننى من خريجى سنة ١٩٤٥ ، ووُضِعَتِ الأولوية لقدامى المتخرجين ، وعلى هذا أمضيت فترة مدرّساً بمدرسة الأورمان النموذجية التى كانت تابعة لمعهد التربية العالى للمعلمين ، وكانت هذه المدرسة تُعَدُّ حقلاً للتجارب التى يجريها المعهد ، وكانت هذه الفترة أشبه بفترة راحة بين جهد الطالب فى مصر والطالب فى أوروبا .

القدر وبعثة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية :

فلما جاء دورنا فى البعثة قفزت أمامى عقبة عجيبة فقد كان ترتيبى فى الليسانس سنة ١٩٤٣ أول المصريين مع درجة الامتياز ، وكنت أسبق الثانى بـ ست وعشرين درجة ، وكنت فى الدبلوم الذى يمنح بعد سنتين من الليسانس « الثانى مكرر » وكان من الواضح أن بعثات الكلية يجب أن ترتبط بمواد الكلية وبالتالي تكون بترتيب الليسانس ، وأن بعثات التربية تكون بترتيب الدبلوم ، وبخاصة أن هاتين الفرقتين بعلمهما نقلتا إلى معهد التربية سنة ١٩٤٦ ، وبقيت دار العلوم بعلمها ، ولكنى فوجئت باختيار بعثات

الكلية تبعاً لترتيب الدبلوم ، مع أن البعثات كانت لمادة من مواد الكلية ، وكان هذا خطأ واضحاً ، صرختُ ضده راجياً تصحيح الوضع وبخاصة أنى كنت الأول في جمع الفرق قبل ذلك ، ولكن دراسة هذه المشكلة استغرقت فترة عرفتُ فيها ظعم الظلم ومرارته ، واعتزرفَ بحقى بعد ذلك ، وخصّصت لى بعثة للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية •

ولكن الخير يأتى من الشر ، فإن البعثات الأولى كانت للغويات ، ولست أتكلم عن مدى ما تقدمه مثل هذه الدراسة للمجتمع ، ولكنى أقول إن بعثتى فى التاريخ الإسلامى فتحت أمامى آفاقاً واسعة ، فى الدراسات الإسلامية ، عرفتُ خلالها اتجاهات المستشرقين حول التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ودرستُ فلسفة التاريخ ومناهج التاريخ ، واضطرت — لأتعرّف على الإسلام تبعاً للنهج الأوروبى — أن أتعرّف على الأديان ، إذ أن الإسلام حلقة من هذه الأديان وهذا استدعى أن أدرس مقارنة الأديان ... وقد استطعت أن أنقل كل معارفى إلى المكتبة العربية والإسلامية ، واستقبلتُ الجماهير أعمالى وكتبى بتقدير يشكر الله عليه وتشكر عليه الجماهير •

وطالما قلت لنفسى : لو كنت أول الدبلوم ، أو لو انتبعتُ لجنة البعثات للعدالة من أول الأمر ووضعتنى عضو بعثة اللغويات لخسرت كثيراً ، وخسرت المكتبة الإسلامية كثيراً ، فالحمد لله على ما قدر وهياً •

لكلية الآداب وبعثة التاريخ الإسلامى :

على أن تحديد بعثة التاريخ الإسلامى لى لم يكن عملاً سهلاً ، فقد برز لى مناهس خطير ، ولم يكن هذا المنافس فى هذه المرة شخصاً ، بل كلية لها مكانها ووزنها وثقلها ، هى كلية الآداب ، فقد وقفت كلية الآداب ، موقفاً حاسماً يقرر أن بها قسماً للتاريخ ينال طلابه دراسة واسعة فى التاريخ الإسلامى ، وأن كلية دار العلوم ليس بها قسم كهذا وأن الكليتين تتبعان جامعة واحدة ، ومن الخير والمنطق أن يَخْتَارَ لبعثات التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم متخرجون من قسم التاريخ

بكلية الآداب • وإذا انتهوا من بعثاتهم عادوا لكلية دار العلوم ليعلموا التاريخ بها •

وأوشك هذا الاتجاه أن يجتذب له عقول الكثيرين ، ولكن صيحة قوية قمت بها تقرر أن التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الإسلامية ، وأن المتخصص فيه يتحتم أن يكون متخصصاً فى التفسير والحديث وتاريخ التشريع والفقه وأصول الفقه وغيرها من الدراسات الإسلامية ، وليس من الممكن أن يتكلم إنسان عن غزوة الأحزاب دون أن يكون مجيداً للسورة التى نزلت باسمها ولتفسير آيات هذه السورة ••••• والحضارة الإسلامية لا بد لها من إنسان يعرف الدراسات الإسلامية معرفة جيدة ، وتبنى هذه الفكرة أستاذنا الأستاذ زكى المهندس عميد كلية دار العلوم آنذاك ، واستعادت هذه الفكرة الزمام بعد أن كان قد أوشك أن يثفلت من أيادينا ، واختارتنى الجامعة لبعثة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية •

وبدأنا فى اتخاذ الإجراءات ، واستغرق ذلك زمناً ليس بالقصير ، ثم أحيل الأستاذ زكى المهندس إلى المعاش ، وقام أحد أساتذة الكلية بشئون العمادة بصفة مؤقتة ، فذهبت أنا وزملائى المرشحون إليه ليقع على خطابات بتحويل ملفاتنا من وزارة التربية التى كانت تتبعها الكلية إلى الجامعة ، وكان ذلك بعد يوم واحد من نهاية مدة زكى بك ، ولكن القائم بعمل العميد ذكر لنا أنه يريد أن يدرس الأمر كله من أساسه قبل أن يوقع على أية ورقة • وكانت تلك عقبة غير متوقعة ، وبخاصة أن الكشف الطبى كان قد تم وتحدد موعد السفر ، فهرولنا إلى الأستاذ زكى المهندس وعرضنا عليه الأمر ، وطلبنا منه حل المشكلة فهو على علم بكل خطواتها ، والأوراق المطلوب التوقيع عليها أوراق روتينية بعد أن صدرت القرارات الرسمية ونجحنا فى الكشف الطبى ، ولم يبق إلا تحويل ملفاتنا من الوزارة إلى الجامعة ، واقترحنا على سيادته أن يوقعها بتاريخ أمس فوافق ، أحسن الله ثوابه ، والتقطنا هذه الأوراق ، وبدأنا رحلتنا إلى دول الغرب •

صعوبات باوريا وتذليلها :

وأنا الآن في أوربا أواجه موقفاً صعباً للغاية ، فقد جئت لأقوم بدراسة عليا في التاريخ مع أنى لا أعرف التاريخ معرفة تؤهلنى لهذه الغاية ، وكان علىّ أن أكتب أبحاثى ورسالتى باللغة الإنجليزية ، وكانت بضاعتى في هذه اللغة قليلة ، يا الله !!! ولكنى كنت وحدى الذى يعرف هاتين المشكلتين ، فرحت أصارع بعناد لأتغلب عليهما ، وقسمت يومى قسمين ؛ أخصص جزأه للاتصال بالمكتبة التاريخية ولقراءة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية وتلخيص أهم الأحداث ، والتعرف على كل الشخصيات الإسلامية المهمة والمعالم البارزة في هذه المادة ، حتى تكوّن لى من ذاك ملف حافل شامل موجز كنت أعود له من حين إلى حين وأتصوره قذعة موسيقى يتحتم علىّ أن أتلذذ بسماعها من آن إلى آن ، وكان هذا دعامة أرسيت عليها دراساتى وأبحاثى •

أما الجزء الثانى من اليوم فكان صراعاً من أجل اللغة احفظ النظمات بنهم وأستعملها ، وأنساب في الحقائق والمجتمعات التى لم تعرف اللغة العربية طريقاً لها ، أحادث الناس وأسمع منهم وأقوّم عباراتى ، وأصحح لهجتى ، وقد ساعدتنى كمبردج في هذا المجال مساعدة كبيرة ، فقد كنت أمضى بها الأسبوع تلو الأسبوع دون أن أتكلم كلمة واحدة عربية أو أسمع كلمة واحدة إلا أن يكون ذلك حديث نفس ، وذلك لقلّة المصريين والعرب هناك ، وبتعدّهم الواحد عن الآخر بحيث لا يتم لقاء إلاّ بعد تدبير وإعداد •

وسرعان ما هزمت هاتين العقبتين وأحسست أنني أستطيع فعلاً أن أعدّ رسالة في التاريخ الإسلامى وفلسفته ، وأن أكتبها بلغة إنجليزية سليمة أو على الأقل أقرب إلى السلامة •

بين لندن وكمبردج :

وكنت قد التحقت بجامعة لندن أول الأمر ، ولم يكن المناخ بها ملائماً ، فلندن كانت غاصّة بالطلاب المصريين والعرب ، مما كان يدفع إلى الإحساس

بأننا نعيش في جو عربى ، وكان النادى المصرى مكاناً نتردد عليه من حين إلى حين ، فنأكل الطعام المصرى ونسمر ونلعب ، وكانت مدرسة اللغات الشرقية مكتظة بالشرقيين من كل البلاد ، أما أساتذة التاريخ فكانوا من اليهود غالباً ، ودخل علينا في هذه الأثناء شهر مايو اللعين سنة ١٩٤٨ الذى أعلن فيه اليهود قيام دولتهم بأرضنا بعد حرب لعب فيها السلاح والسياسة أموراً انتهت بهزيمتنا ، وكل هذا جعل المقام بلندن غير محمود بالنسبة لى .

وليت وجهى تجاه جامعة كمبردج العريقة وكان أستاذ الدراسات الإسلامية بها هو بروفيسور آرثر أربرى ، وهو قمة في الأخلاق والعلم والتوجيه ، أحسن الله جزاءه ، وقد فتح بروفيسور أربرى لى قلبه وعقله ، وإذا صحّ أن أقول إنه تبناكنى لفعلت ، كانت العلاقة بيننا أسمى وأعمق من العلاقة بين الأستاذ والطالب ، كانت الحب كل الحب ، والإخلاص ، والرعاية الشاملة من جميع الوجوه ، وقد منى لخيرة الطلاب والطالبات بقسم الاستشراق ، وقال لهم انتفعوا بهذا وانفعوه ، وظل يرقبنا من بعد ومن قرب ، وقدم لى هؤلاء الطلاب صنوفاً من العون وبخاصة في ناحية اللغة والناحية الاجتماعية ، فقد عرفت عن طريقهم حياة الإنجليز وعاداتهم . وصحبتهم إلى قراهم وجلست زالى موائدهم وتوثق بيننا رباط الود ، وامتد هذا الرباط بعد نهاية البعثة عدة سنين ولم يفصمه إلا الزمن القاسى الذى يقضى على كل شئ ورحم الله الشاعر الذى قال : والزمان يئنسنى .

خطة عمل طويلة المدى :

أما الناحية العلمية فقد غرس بروفيسور أربرى بذورها بعد فترة من الفحص والاختبار ، وفأجأنى في يوم ما قائلاً : هل عندك استعداد لدراسة متصلة مثابرة تستغرق ربع قرن ؟

وسكت ولم أستطع أن أجيب ، وحملت فيه فاغراً غمى . قال : مالك ؟ قلت إن بعثتى سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة فكيف لى بربع قرن ؟

قال : إن سنى البعثة تكفى لحاجة البعثة وللحصول على الدكتوراه ،
لكنى أريد أن أقترح لرسالة الدكتوراه موضوعاً يُعَدُّ حلقة من دراسة
طويلة أريدك أن تعكف عليها ربع قرن من الزمان لتخدم دينك ووطنك •

قلت بين الخوف والأمل : موافق •

واقترح موضوع « تاريخ التربية الإسلامية » ليكون رسالة
الدكتوراه ، وقال لى إن التربية الإسلامية حلقة فى سلسلة الحضارة
الإسلامية التى أرجو أن تخرجها جزءاً بعد جزء حتى تكتمل •

لقد ظلت كلمات بروفيسور أربرى نوراً يشق طريقى ، وسوطاً يدفعنى
حتى حققت أمله ، واتممت موسوعة النظم والحضارة الإسلامية بأجزائها
العشرة ، ولكنه للأسف لم ير حلقاتها الأخيرة ، فقد لبى " نداء ربه قبل
أن تكتمل •

إننى هنا أثبت هذا داعياً أن يثيبه الله على ما قدّم من خير ، وما أتاح
من فرص •

وبدأت أتلقى المحاضرات المطلوبة ، وأكتب البحوث اللازمة حتى
أصبح واضحاً أنه من الممكن أن أبدأ العمل فى الرسالة ، وقد وضعت
التخطيط اللازم لها ، وناقشنى فيه ، ثم أقرّه بعد تعديل بسيط ، وأعطانى
فترة لإعداد قائمة المراجع والاطلاع على الممكن منها ، ولما انقضت هذه
الفترة كنت إلى حد كبير قد تعرفت على تاريخ التربية ، وكنت مستعداً أن
أبدأ التدوين ، وقد ساعدنى التفرغ الكامل والجهد الكبير والاطلاع
الواسع القديم على أن أمضى قدماً فى هذا العمل •

وكان بروفيسور أربرى يقابلنى مقابلة خاصة كل يوم خميس فى منزله
حيث أقدم جهد الأسبوع كله ، وكان يقرؤه ويبدى رضاه عنه أو يثبت
بعض الملاحظات التى أعنى بإعادة التفكير فيها لأعيد تقديمها فى اللقاء
التالى ، مع الجهد الجديد ، وعلى هذا كان بروفيسور أربرى يخطو معى أو
كنت أخطو معه خطوة خطوة ، وكان يعرف مسيرتى بدقة ، وكذلك كان يعمل

بروفسور أربري مع تلاميذه الآخرين ، فقد كنا خمسة بعدد أيام العمل في الأسبوع ، فإذا انتهى واحد هنا من دراسته أمكن أن يخطو مكانه طالب جديد من الطلاب المنتظرين ، وكان من الممكن أن نقابل بروفسور أربري في مكتبه بالكلية في أى وقت إذا حدث ما يستلزم ذلك .

ومكتبات جامعة كمبردج زاخرة بالمراجع بمختلف اللغات ، ومكتبة بروفسور أربري الخاصة كانت في متناول أيدينا ، وكان طلاب الدراسات الشرقية أقل جداً من ضخامة هذه المكتبات ، وكانت الأمانة سائدة ، ولذلك كنت أرتع وأعيش بالمكتبات مما أتاح لى الاطلاع على العدة الوثائق من مصادر التاريخ ومراجعته .

وبالإضافة إلى الناحية العلمية يلتزم الكاتب أن يتناول الناحية الاجتماعية في هذه الجامعة العريقة ، فالرياضة والرحلات والحفلات كانت شيئاً لا يكاد ينقطع ولا يتناقض مع الجهد العلمى ، وكان أكثر الطلاب يشتركون في اتجاه أو أكثر ، من اتجاهات هذا النشاط وينبغى أن نخص بالذكر حفلات مايو May Day التى كانت حافلة بالبهجة والنعيم . وكانت كل كلية تقيم حفلة ساهرة رائعة في يوم من أيام مايو ، ويبدأ الحفل مع مطلع الليل ، ويمضى الطلاب الليل كله يغمرهم جنى الحفل ومتنوعاته ، فإذا أشرق الصبح ركبوا زوارق تأخذهم إلى جزيرة غير بعيدة من المدينة حيث يتناولون طعام الإفطار إيداناً بانتهاء هذه الأمسية البهيجة .

وقد أتاحت لى دراسة موضوع « تاريخ التربية الإسلامية » الفرصة لزيارة مكتبات الشرق والغرب للاطلاع على ما بها من مخطوطات تتصل بالموضوع ، ولدراسة بعض أمكنة التعليم على الطبيعة كنماذج لمعاهد العلم عند المسلمين ، وقد انتهزت هذه الفرصة للتعرف على الحياة بالدول العربية والحياة في أوربا وليس لدينا هنا فراغ لتفصيل القول عن هذه الحياة أو تلك ، والحياة الأوربية على كل حال يمكن أن توجىز في كلمات هي النظم الشامل ، والخلق الكريم ، والنشاط الجهم ، والعمل الجماعى ، وهى

بلغة أخرى أخلاق الإسلام إلى حد كبير • ولو قارنا ذلك بما نقرؤه عن أوروبا العصور الوسطى لا تضح لنا أن هذه البلاد حققت الكثير لخدمة الإنسان وإسعاده ، وإذا كان الغرب قد استعار من الشرق ألوانا من الحضارة ، فلماذا لا نستعير من الغرب قيمه الحضارية ، وما حققه من تطور في مختلف الميادين ؟ •



مشكلات ما بعد العودة :

وحصلت على الدكتوراه ، وأحسست بشيء غير قليل من الزهو ، والتقيت برفاقي هنا وهناك وفي عيوننا إصرار على عمل شيء لبلادنا التي قدمت لنا من عرق الكادحين ما أتاح لنا أسمى الفرص في العلم والثقافة والحياة الاجتماعية ، وأشهد لقد كان العزم قويا عند الجميع تقريبا ، وكان الإخلاص متدفقا ، والعرفان بالجميل واضحا ، والرغبة في الإعطاء متواهرة ، والإصرار على الجهد كبيرا ، وعدنا إلى بلادنا بهذه الروح الوثابة ، ولكن هذه الروح سرعان ما انهارت عند الكثيرين ، فقد كان كل شيء يقف ضدنا ، وحيل بين الكثيرين منا وبين مجال أعمالهم ، وصدمت الحقائق المرة جماهير العائدين ، فتكاسل البعض ، وعاش آخرون مع التيار ، أما الذين تمسكوا بأرائهم فقد عاشوا غرباء ، لم تنصفنا الكليات ، ولا اهتمت بنا الجامعة ، وحتى المجتمع ظهر لنا وكأنه يسخر منا ، فاذا تحدثنا عن النظام أو النظافة أو الحرية أشفق علينا وابتسم منا ابتسامة ساخرة •

على أن نقطة مهمة قابلتنا فجذبنا عن كل هذه المشكلات ، وأوشكت أن تستأثر بجهدنا كله ، ونشاطنا كله ، تلك هي لقمة العيش التي فوجئ الدكتور كبير الآمال بأنها قد عزت عليه وعلى أولاده ، يا الله !!

لقد كنا بالخارج ومرتب الواحد منا يصل إلى حوال مائة جنيه استرليني شهريا (تشمل المرتب وبدل الكتب وبدل الملابس) وكان هذا المبلغ حينذاك يتيح للواحد منا حياة فيها اكتفاء ورخاء ، فلما عدنا

إلى مصر وعُيِّنًا مدرسين بالجامعة كان مرتب الواحد منا سبعة وعشرين جنيهاً مصرياً ، وكنت أسكن منها باثنى عشر وأدفع للمواصلات ثلاثة وأدفع ثمن الكهرباء والمياه وأجرة الخادم والمهم أن المرتب كان ينتهى دون أن يبقى منه قرش واحد للطعام أو الكساء أو العلاج واتجه الدكتور كبير الآمال إلى أهله يطلب العون ، ولم يكن أكثر الأهلين يستطيعون ذلك ، وربما كان منهم من يحتاج إلى العون . .

ولست أحب أن أسير فى وصف هذا العناء فهو بالنسبة للقارىء شىء ليس بالمجهول . وقد تسبَّب عن ذلك أن لجأ بعض الناس إلى الإهمال أو اللامبالاة . . . ولكن من الحق أن أقرر أنني كنت دائماً أهتم بأننى لن أهمل وإن أهمل كل الناس ، ولن أتجه إلى اللامبالاة وإن جذبت اللامبالاة كل الناس .

وبينما كنت أترنح بين العناء والأمل ، أحاول بصلابة أن أقف على قدمى بجهدى ، حدث حادث غير مجرى حياتى ، وبدأ بى عهداً جديداً ، وسيكون هذا الحادث موضوع الدراسة التالية .

مع ثورة ٢٣ يوليو

مقدمة :

لست هنا أريد أن أتكلم عن ثورة ٢٣ يوليو، ماذا قدمت لمصر والعالم العربي ؟ وماذا يؤخذ عليها بالنسبة لمصر وبالنسبة للعالم العربي ؟ لا ، ليس هنا موضع الكلام عن هذه الثورة من هذه الزوايا فقد خُصّصت للحديث عن هذه الثورة جزأين كبيرين من موسوعة التاريخ الإسلامى ، تحدث الأول منهما عن عهد عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم ، وتحدث الثانى عن عهد السادات عهد النجاح إلى حد كبير فى الأمور الخارجية ، والفشل الشامل فى أمور الداخل ، ولست فى حاجة بعد هذين الجزأين لأية زيادة فى القول عن هذه الثورة العاشمة .

وهنا أريد فقط أن أتحدث عن الثورة من ناحية ارتباطها بى شخصياً ، وأثرها بالنسبة لى وموقفها منى ، أو بلغة أخرى أريد أن أتكلم عن دور الثورة فى التأثير على رحلة حياتى .

وكلمة ثورة فى تقديرى كلمة غير مناسبة ، فقد حكمتنا عصابة من الشباب الأهوج وأسمت نفسها ثورة ، وهى فى الحق عصابة نهبت المال والسلطان ، وأذلت الإنسان ثم انقضت بعض أعضائها على البعض الآخر دون هوادة ، كما فعلت هى مع الآخرين ، أما شئون البلاد فقد أهملت تماماً ، للجهل من جانب وللتفرغ للأمور الذاتية من جانب آخر فوقفنا حيث كنا ثلاثين عاماً أو عدنا إلى الوراء فى حين يسير العالم للأمام بخطى بطيئة أو سريعة ، ولنترك السير فى هذا النطاق للمجلدين السابقين ، ولنعد لهدف هادى ، ؟

الحكم بمصر قبل الثورة :

كانت مصر قبل الثورة تعاني من الاستعمار ومن ديكتاتورية الملك ، ومن حاشيته وأعوانه من أحزاب الأقلية الذين خلقهم ليستبد باسمهم ، فاكثفوا بظاهر الحكم وهو هتات المائدة ، وتركوا للسيد الرابض فى عابدين مطايب الفريسة ، وقد كان الملك يحارب الدستور بإلغائه وخلق دستور مهلهل كما يريد ، ولكن الشعب كان يزار : نريد دستور ١٩٢٣ ،

فخطر للملك خاطر سحرى أو اقترح عليه من زبانيته هو أن يعيد دستور ١٩٢٣ ، على أن يكون حبراً على ورق فقط ، ووجد الملك في هذا الاقتراح بُغيته ، فأبقى هذا الدستور بحيث يكون كتاباً دون مجاويل ، وكلمات لا معنى لها .

وكان الاستعمار يسيطر على الدولة سيطرة كاملة ، وله الكلمة النافذة ، وكان يدع الملك وأعوانه في سباتهم ما داموا قانعين بالمظهر دون المخبر ، وكان الاستعمار يأخذ جانب الملك في صراعه ضد حزب الوفد الذى كان يحظى بأغلبية ساحقة بين المواطنين ، ولكن الاستعمار كان يهمل الملك عندما تتأزم الأمور ويرى أن حاجته للاستقرار تحتم أن يترك الحق لأصحابه ، فحينئذ فقط كان الاستعمار يرغب الملك على إجراء انتخابات جرة ، ومعنى حرية الانتخابات هو فوز حزب الأغلبية ، وكان من عبادة الاستعمار أن يتخلى عن هذا الموقف بمجرد انتهاء الأزمة ، يخضوع الملك وأعوانه للاستعمار مضمون ، وبخاصة أنهم معتصبون للسلطة من ممثلى الشعب ، والمعتصب ضعيف الجانب دائماً .

تلك كانت سياسة الإنجليز ببلادنا ، وهى تتنافى مع سياستهم في بلادهم ، فهناك لا تزوير في الانتخابات ، وهناك الحرية الكاملة في حدود القانون لكل فرد ، ولكل حزب ، فإذا تخطى الإنجليز البحر ووصلوا إلى المستعمرات تغيرت أخلاقهم تماماً . فلا عدالة ولا حرية ، وإنما مصلحة الإمبراطورية قبل كل شيء .

المهم أن حزب الوفد كان في الحكم في منتصف هذا القرن ، وقد حقق أعمالاً ضخمة كمجانية التعليم وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وتعيين جميع الذين كانوا يعملون مع الجيش الإنجليزى بقاعدته بالقنال . . . هذا بالإضافة إلى بعض الإصلاحات الداخلية ، وبهذا زادت أقدام الوفد رسوخاً ، ولم يكن من السهل أن يقلعهم الملك ، ويأتى برجال من الأحزاب التى خلقها ليجمك باسمها ، فهدم الملك وأعوانه مأساة قاسية هى حرق مدينة القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، ولعبت الثورة متضامنة

مع الإنجليز وأعداء البلاد فأشعلت النار في عاصمتنا الحبيبة ، ورأى كاتب هذه السطور القاهرة وهي تحترق ، واشترك مع جمع من الشبان المخلصين في إطفاء النيران وإيقاف الشغب ، ويشهد الله أن دموعنا عاشت معنا ونحن نطفئ اللهب ، وأن صرخاتنا هددت من حماسة الغوغاء المخدوعين ، وكانت القاهرة تحترق ، والملك يرحب بكبار رجال الجيش والبوليس في مأدبة أقامها لهم في القصر — حسابهم علي الله — حتي لا ينقذوا العاصمة من الدمار ، وعلى حطام القاهرة أقال فاروق حكومة الأغلبية • لقد كانوا يأكلون لذيذ الطعام والنار تاكل القاهرة ، يالهم من خونة •

ثورة أو تسلط :

وجاءت ثورة ٢٣ يوليو بعد هذه الأحداث وبعد فترة مريرة من الاضطراب والقلق ، فلا غرو أن أحسن الجميع استقبالها ، وأن اندفعت القلوب والنفوس ترحب بها لتكون نقطة انطلاق لهذا البلد ، ولتزيل عنه كابوس الاحتلال وطغيان القصر ، ورجال الإقطاع الذين ورث الكثيرون منهم ثرواتهم عن أجداد خانوا الوطن ويسروا للاحتلال الإنجليزي طريقه ، ولتزيل أذنان الاستعمار ، ولتقيم جيشاً قوياً يضمن لنا السلامة أمام تحدي الصهاينة ، ولتقيم حياة ديمقراطية سليمة •

ولم يطل تساؤلنا حول هذه الثورة فإن البيان الأول لها كان يجبر عن كل ما في نفوسنا وينطق بكل ما نتطلع له آمالنا حين أعلن أن برنامج الثورة هو :

- القضاء على الاستعمار وأعوانه •
- القضاء على الإقطاع •
- القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم •
- إقامة عدالة اجتماعية •
- إقامة جيش وطني قوى •
- إقامة حياة ديمقراطية سليمة •

وأحسن الناس استقبال الثورة وفي طليعتهم رجال الجامعات ، ومضى أسبوع واحد على هذه الثورة ضَمَن لها كل الأمان ، فقد أيدها الشعب أعظم تأييد ، وأيدتها أمريكا ، ولم تستطع قوى الاستعمار البريطاني أن تواجه العاصفة فقبعت في معسكراتها ، وطُردَ الملك ، وقبض عبد الناصر على كل عناصر الجيش الأقوياء ، وأصبح كل الزمام في يد عبد الناصر ويد عبد الحكيم عامر صديقه الأول ، وحينئذ أسفر عبد الناصر عن اتجاهه الحقيقي وهو الاستبداد والانتهازية ، فآثار ذلك مخاوفنا وأحسنا أننا نتردى إلى حكم الجيش ، ونبعد تماماً عن الديمقراطية والعدالة ، وعندما ينزل رجال الجيش إلى عالم السياسة يفشل الجيش وتفشل السياسة جميعاً (١) ، وتذكرنا ما حدث لمصر عندما حكمها الجيش في عهد المماليك ، وتمثلت لنا معشر الجامعيين عملية القضاء على بطل من أبطال التاريخ المصري هو السلطان قطز عقب عودته منتصراً من معركة تعد من أشهر معارك التاريخ وهي معركة مصر ضد التتار في عين جالوت ، وقد بذل قطز في هذه المعركة جهداً جباراً وحقق نصراً عظيماً وحمى الحضارة الإنسانية من فوضى المغول ، ولكنه لقي حتفه في أثناء عودته على أيدي بعض منافسيه ، وألقي بجثمانه في الفلاة ، وحصل مثل هذا لعلى بك الكبير الذي حقق ضد الأتراك انتصارات باهرة ثم قضى عليه بعض الطامعين ومثل هذا كثير في التاريخ ، وكنا نحس صرخات قلوبنا باننا لا نريد أن تستعمل القوة فيما بيننا بعضنا والبعض الآخر ، لا نريد أن يكون باسنا بيننا شديداً ، ونطمح أن توحد القوة وتتجه نحو العدو الذي يدق أبواب ديارنا ويهددنا بالويل والثبور (٢) .

وانتشر دوى هائل في الجامعات يحمل هذه المعانى ، ويذكر أن الثورة التي قام بها الجيش ينبغي أن تكون من أجل مصر ، لا من أجل أفرادها .

(١) اقرأ تفاصيل ذلك في الجزء التاسع من موسوعة لتاريخ الإسلامى للمؤلف وهو الجزء الخاص بعهد عبد الناصر .

(٢) في حديث للرئيس أنور السادات بمجلة الحوادث (أكتوبر ١٩٧٢) ذكر سيادته أنه بعد حرب ١٩٥٦ كان لابد أن يتحول الجيش إلى مهمته الأساسية وهي القتال ، وأن يبتعد عن السياسة . ولكن الجيش ذاق جلاوة السياسة ووظائف الوزراء والسفراء فتمسك بالتurf .

صرخة ضد حكم الجيش :

١٠ وبهذه المعاني التي كانت شائعة في الجامعة ألقيت سنة ١٩٥٤ خطاباً في القاعة الكبرى ، على جماهير الطلاب والأساتذة ، الذين كانوا يملكون بهذه الأفكار ، وكانوا قد اجتمعوا للبشاور في الأمر .

ربما تسألني : لماذا حملت أنا هذا العبء وغبرت جهراً وبصوت عالٍ عما يجيش في نفوس بعض الناس أو ما يتهاوس به آخرون ؟

والإجابة على هذا تكمن في الفصول السابقة التي دونتها عن رحلة حياتي ، فقد كنت في مراحل متعددة خطيب الطلاب والمعلمين عن أمانيتهم ، كنت لسانهم الذي يفصح عما ينوون ويجهرون بما يشرعون ، فلا عجب أن أندفع كما كنت دائماً لأرفع الصوت الذي يدور بين أكثر الطلاب والأساتذة بالجامعة . وللحق أذكر أنني لم أكن وحدي هذه المرة ، فقد كان هناك زملاء حملوا معي هذا العبء ولاقوا نفس المصير .

وقد فتحت على هذا الخطاب أبواباً من المراقبة عرفت أخبارها فيما بعد ، فقد أحاطت بي العيون ، لتعد حركاتي وأنفاسي ، فأتضح لهذه العيون بما لا يدع مجالاً للشك أنني لست عضواً في أية جماعة ، وأن الكلمة التي ألقيتها كانت من وحي نفسي وبداية وطني خالص ، ولم تكن بوحى من أحد أو بإيعاز من أية هيئة ، وعرفت من بعض أصدقائي خبر هذه العيون أو المخابرات التي أجمعت على أنني أعيش بين البيت والكلية قليل الاتصالات ، وأن حياتي كلها وضوح وجلاء ، وكان من أثر ذلك أنه لم يتقرب علي في جولات القيص التي تزلت ببعض الطوائف ، وبخاصة بالنسبة للاخوان المسلمين الذين كان جهدهم واسعاً في الحقل الإسلامي الذي أعمل فيه .

كلمة عن الاخوان المسلمين :

وبهذه المناسبة أذكر ابن حديقا ذكيا سألني مرة : ألم تكن عضوا في جماعة الإخوان المسلمين ؟

قلت : لا . قال : ألم تتخفهم بذلك ؟ قلت : أبدا . قال : كيف لم تكن من الإخوان المسلمين مع أن كل دراستك وفكرك وجهدك كانت لخدمة الإسلام ، وخدمة المسلمين ؟

قلت : لأن بعدى عن هذه الجماعة كان لأسباب هي :

أولاً : يتناسب مع حياتي الاستقلالية التي لا تقبل أن تنيع في الجماعة على النجس الذي عرفته في الإخوان المسلمين ، وقد عرفت الأحزاب والتكتلات ، وأدركت ضرورتها ولكن كيان الفرد كان يبقى في هذه الأحزاب مع بقاء كيان الجماعة ، بمعنى أنني وأنا وغدى كنت أشارك الإخوان المسلمين في الدعوة إلى الإسلام وشرح مبادئه وأخلاقه ، وأصفق لأى نجاح ديني يحرزونه ، وعرفت شباب المحافظين في إنجلترا يتعاونون في مختلف الشئون الجامعية ويتحاربون مع شباب حزب العمال ، وهكذا ، ولكن عضو الإخوان المسلمين كان لا يجيد نفسيه غالباً ، وإنما كان صدى للجماعة ، ولا يرى في الدنيا سوي الإخوان المسلمين ، ويعتد غيرهم فراغاً أو ضللاً ، لدرجة أن شبابهم قاطعونا وحسبوا أن الحديث مع غير أبناء جماعتهم خروج عما يجب أن يكون ، قد يكون ذلك انحرافاً ، ولكن ذلك كان شائعاً على كل حال .

ثانياً : لأنني صادفت عقب عودتي من أوروبا شخصين أحدهما طالب في كلية دار العلوم والثاني من أصحاب العضلات بالريف ، وكانا عضوين متحمسين من أعضاء هذه الجماعة ، ولكن حماسهما كانت جاهلة أو حادة ، فلم أقبل أن أنضم لشعبة الكلية بسبب هذا ، ولا لشعبة الريف بسبب ذلك .

ثالثاً : لم تدع لى الدراسات التى ارتبطت بها وقتاً لاجتماع ، أو فراغاً لمثل هذه العضوية .

وهكذا خلت قوائم الإخوان المسلمين من اسمى تماماً ، وليس ذلك شيئاً أغفر به ، ولكنه حقيقة أقررها ، ونحن نستنكر أعمال العنف التى تسبب القيام بها للإخوان المسلمين ، والتى كانت صدى للتنظيم السرى الذى أنشأته هذه الجماعة وما كان لها فى تقديرى أن تنشئه ولكننا نذكر بكل تأكيد أن هذه الجماعة لعبت دوراً إسلامياً رائعاً فى حياة الصبيان والشباب والرجال ، وغرست أخلاق الإسلام فى الملايين ، وجعلت الانتساب للإسلام مفخرة يعتز بها الكثيرون ، وربطت بين المسلمين فى مختلف الانحاء ، وتكونت من المسلمين قوة هائلة هزت غطرسه الاستعمار وقوى الغرب وطلّاع الصهيونية ، ودعشت إلى المكاتب والمصانع والوظائف جماعات تعرف الله وتخافه ، وبالتالي تنتج بجد وتعمل دون رقيب من الناس ، ولا تمتدح لها الشبهات ، ولا يمسها الانحراف ، وكانت كلمة « من الإخوان المسلمين » ظاهراً للتميز عن الصغائر ، والبعث عن الرشوة ، وعن الإهمال ، والحرص على أداء الواجب ، وحيثما رأيت الآن رجلاً يبور به هذا الطابع فاظرف أنه غالباً كان منتسباً إلى هذه الجماعة .

لو سارت جماعة الإخوان المسلمين فى طريقها الإسلامى وبغيت عن التنظيمات السرية التى ربطتها ببعض الجرائم لكان للمسلمين الآن شأن آخر ، ولما استطاعت قوى الشر أن تنال من المسلمين أو تعتدى عليهم ، فكم من لسان أحرسته قوة هذه الجماعة ، وكم من غزو توارى خوفاً من الإخوان المسلمين ، فلما اختفت هذه الجماعة ظهرت أنياب الأعداء ، واخذت تهاجم المسلمين بشراسة ، وكانت هذه الأنياب من قبل كليله هزيلة .

قرار مجلس قيادة الثورة بقطبى من الجامعة :

ومرت أيام أو شهور على خطابى الذى ألقيته بالقاعة الكبرى ، وجاء امتحان الدور الثانى بالكلية فى سبتمبر سنة ١٩٥٤ وكنت عضواً فى لجنة

المراقبة ، وكنت أبشر أعمالى فى هذا الامتحان بكل نشاط وحماسة ، أذرع فناء الكلية جيئةً وذهوباً بين لجان الامتحان عدة مرات يومياً ، وكان يطيب لبعض أساتذتنا أن يطلق على « دينامو الكلية » تأكيداً للنشاط الذى كنت أبذله فى مختلف الشئون العلمية والاجتماعية ، وبينما كنت أزاوّل هذا النشاط كان هناك أمر قد دُبّر ، وقرار قد صدر من مجلس قيادة الثورة بفصلى من الجامعة ، كان الكل يعرفونه إلا أنا ، فقد استقر رأيهم على أن يرسل القرار للبيت فى نهاية اليوم ، كانت هناك نظرات إشفاق ولكنى لم أتبينها ، وخلجات قلوب ولكنى لم أحس بها إلا بعد أن عرفت القرار ، حينئذ فقط أدركت لماذا كانت بعض العيون لا تريد أن تلتقى بعينى فى الصباح ، ولماذا كان بعض الرفاق يتحاشى الحديث معى خوفاً من أن تمتد له الشبهة ، أما أنا فقد أمضيت صباح اليوم الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٥٤ فى نشاط وابتسام وأمل ، دون أن أعرف ما تخبئه الظروف .

وعدت إلى البيت بعد يوم حافل بالجهد والعمل ، وبعد قليل دقّ جرس الباب ، وسرغان ما استدعيت لمقابلة « ساعى الكلية » وكان اسمه « فريج » وكان « فريج » يجىء إلى البيت من حين إلى حين ، وكان من عادته أن يتأتى إذا جاء إلينا ، وربما كان من عادتنا أن نقدم له بعض الشراب أو الطعام إذا كان الوقت وقت طعام ، وأن ندسّ فى يده بعض النقود ، ولكنه هذه المرة كان متعجلاً ، لم يخطّ إلى داخل البيت ، ولم يبتسم ، وطلب مقابلتى ، وما إن تقدمت منه حتى مدّ يده بخطاب مسجل و « بسركى » أو قعّ فيه بتسلم هذا الخطاب وتمّ ذلك فى لحظات أسرع بعدها « فريج » فى الانسحاب ، وعيناه تسابقان قدميه ، وهو يهبط درجات السلم .

لقد كان هذا المظهر ينبىء بشيء ، ولذلك اختفيت فى حجرة مكتبى لأقرأ هذا الخطاب ، فوجدته يذكر أن مجلس قيادة الثورة قرّر فصلى من الجامعة ، وأن مجلس الجامعة وافق على ذلك ، وأسرعت أخفى هذا

الخطاب حتى لا تقع عليه عين زوجتي أو أحد* من أهلي ريثما أهيب* أذهابهم لتلقى هذا الخبر ، وقد كانت مهمة ثقيلة أن أتطوّر بأهلي وبرفاقي حتى لا أفاجئهم بهذا الخبر الحاد العنيف ، وإن القاريء الآن قد لا يحسن بجسامة هذا القرار ، لأن بعض أساتذة الجامعة الآن ، ومدرسيها ، يستقيلون من الجامعة ، ويؤثرون العمل بالخارج ، ولكن هذا التصرف آنذاك لم يكن موجوداً ، فلم تكن الجامعات قد وجدت بعد في العالم العربي ولا كانت وسائل الإغراء موجودة ، بالإضافة إلى خطر المواجهة مع ثورة عسكرية .

جهاد من أجل لقمة العيش :

وجلست مع نفسي أتساءل : ماذا فعلت حتى أستحق هذا العقاب ؟ وأي خطأ في أن أقول ماتراه الجماهير المثقفة خيراً للوطن ؟ ثم استبعدت هذه التساؤلات ورحت أواجه الحقيقة ، كيف سنعيش ؟ وما الوسيلة للحصول على رغيف الخبز ؟ لقد كنت في مطلع الحياة ، وكانت مدة خدمتي بالحكومة قصيرة لا تتيح لي أن أحصل على معاش ، وحتى المكافأة التي أستحقها كان لابد أن تمضي شهور أو سنين لأنالها ، والمعدة لا ترحم ولا تنتظر ، والأهل والأطفال يتطلعون إلى الزاد ومطالب الحياة ، وانتهيت بسرعة من تهيئة النفوس لتلقى هذا الخبر ، وبدأت أفكر في عمل لأنال منه الرزق ، وكانت مؤهلات العمل عندي موفورة ، فإنتى أجيد تدريس اللغة العربية وآدابها ، وأجيد تدريس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وأجيد العمل في الصحافة ودور النشر ، وأجيد اللغة الإنجليزية . وبدأت أدق الأبواب وأعرض نفسي ، ولكن راعني أن الرعب كان يملأ نفوس الناس ، فليست هناك مؤسسة أو شركة أو مدرسة تقبل أن تفتح أبوابها لإنسان فصله مجلس قيادة الثورة ، فالجميع أجمعوا على أن هذا نوع من التحدي لا يطيقونه ، وحسبوا أنه ذنب لن يغفره لهم أعضاء مجلس قيادة الثورة .

ومر الزمن متتاقلاً من جانب وسريعاً من جانب آخر ، فالمدخرات الخفيفة التي كانت في أيدينا قد نفدت ، والعمل في أى لون من ألوانه محرم ولا سبيل إليه ، والرفاق بدعوا ينكمشون عنا خوفاً من أن ينالهم شيء إذا قربوا منا ، فقد كان الذعر يصور للناس أن المفصول مغضوب عليه ، وأن التعاون معه قد يجري مزيداً من المصائب ، وأشهد أنني كنت أبتعد عن الكثيرين من الأصدقاء خوفاً عليهم ، فإذا كان الناس قد ضنوا علينا بأى لون من ألوان التعاون ، فإننا لا نستطيع أن نلومهم أو نعتب عليهم فقد كان شائعاً أن من يتحدى الثورة أو يقرب من المغضوب عليهم فإنه يتحتم أن ينتظر البطش الشديد .

وهكذا عرفنا شظف العيش أو قل عرفنا الجوع ، وكنت أمسك بقوة على أحاسيسي لأرسم على شفتي ابتسامة رضا أقابل بها الناس حتى لا يالم صديق أو يثمت عدو .

الشيوعية تحاول اجتذابي :

وهناك فسخ بشري نصيب لي في هذا الوقت واختار هذا الفسخ الوقت الملائم ليصيدني ، وقت الحاجة والجوع ، وقصة ذلك أنه كان هناك شاب تربطني به صلة العلم ، وكانت له اتجاهات يسارية ، وقد دبّر هذا الشاب لقاءً معي ، وبعد حديث هنا وهناك عرف منه بعض ما أعاني أنطلق يقول : إن الحزب الشيوعي يرحب بك ، ويرى فيك أملاً هائلاً ، ومستقبلاً كبيراً لك والحزب ، والحزب مستعد أن يتعاون معك و

وكان هذا الحديث مفاجأة لي ، ومثار سخرية بهذا الشاب ، فقلت له إنني لم أكن شيوعياً يوماً ما ، ولن أكون شيوعياً قط ، إن الإيمان بالله عقيدة عميقة الجذور في نفسي ، والفكر الماركسي في ناخية العقيدة الدينية والاتجاه الاقتصادي فكر بعيد كل البعد عن مشاربي وعن روحى وعقلي ، وصرخت في هذا الشاب قائلاً : اتحسب أن ما أعاني من جهد يدفعني لبيع نفسي ؟ هذا مستحيل ، واضفت إليه قولي : إنني تربيت في جوٍّ ازهرى ،

كنا أحياناً نأكل الفول ثلاث مرات في اليوم ، وكانت الخشونة طابع حياتنا ،
وإننى أستطيع أن أعود لهذه الحياة بسهولة إن لم ينفتح لى باب
بذق كريم .

وتراجع هذا الشاب . وكان هذا آخر العهد به في مضمار هذا
الاتجاه .

ويح هذه الفخاخ التى طالما انتهزت الفرص لتتحرف بالناس من
طريق إلى طريق ، ويح الظروف التى تضع الناس بحيث تلعب بهم الرياح
وتجعلهم هدفاً للشباك والانحراف .

وفي دوامة المأساة ظهر شعاع من النور ، فقد أشيع خبر فصلنا من
الجامعة ، وكنا ثمانية عشر عضواً من أعضاء هيئة التدريس من مختلف
الثقافات ، وعرفت الدول العربية هذا الخبر ، فأوفدت حكومة العراق
مندوباً عن جامعتها ليعرض حاجة الجامعة هناك إلى جميع هؤلاء الذين
استعنت عنهم حكومة مصر ، وذكر هذا المندوب أن بالعراق جامعة وطلاباً
وأنهم في أمس الحاجة إلى الاساتذة من مختلف التخصصات ، وفرحنا
بهذا الخبر واتصلنا بالاستاذ المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وكان يومها
مستشاراً غنياً لوزارة التربية والتعليم فحمل سيادته — رحمه الله وأثابه —
هذا الخبر إلى وزير التربية والتعليم وكان أحد ضباط الثورة واسمه
« جمال سالم » قائماً بعمل هذه الوزارة آنذاك ، وأيد الاستاذ فريد
أبو حديد هذا الرجاء وزكاه ، وسأله جمال سالم عن المرتبات التى ستصرف
لنا فنقل له رأى حكومة العراق ، بأنها تعطى المعارين حوالى أربعة أمثال
مرتباتهم في القاهرة ، ولكن الرجل صاح فيه : هل كان فصلهم عقوبة أو
مكافأة ؟ ورفض السماح لنا بالسفر . وخبا هذا الشعاع .

الصراع من أجل لقمة العيش ، ومعروف لا ينسى :

وفي أمسية من الأمسيات دق جرس التليفون في الشقة المجاورة لنا —
وكانت الاتصالات بنا آنذاك تتم عن طريق هذا التليفون — وكان المتحدث

هو الأستاذ نجيب القويسنى ، ولم أكن أعرفه ، ولا سمعت صوته من قبل ، وعرفتنى بنفسه ذاكراً لى أنه يشرف على بعض المدارس الأجنبية بالزمالك وأنه يدعونى للتدريس بها • فسألته : هل يأمن على نفسه أن يفتح لى هذا الباب ؟ فأجاب أن لا شىء فى ذلك ، ورتحب بى وعيّن لى مدرسة طلب منى أن أذهب لها فى اليوم التالى •

ما العلاقة التى كانت تربطنى بالأستاذ نجيب والتى دعته أن يتعرف على وسيلة للاتصال بى ، وأن يتصل بى ويهينى لى وسيلة العيش ؟ هل هى الجانب الإنسانى ؟ ربما • ولكن العلاقة التى أحسها به هى معهدنا العظيم « دار العلوم » فكلانا نبت هذا المعهد وقد خلق هذا المعهد علاقات ود على البعد والقرب بين كثيرين من خريجيه • تحية لهذا المعهد وتحية عميقة للأستاذ نجيب على فضله المشكور •

وقد بت ليلة أتعجل الصباح لأهرع إلى هذه المدرسة ، ومع مطلع الشمس كنت أخطو نحوها ، ودلّفت إلى فنائها مع تلاميذها المبكرين ، وبعد قليل كنت فى حجرة المديرية الانجليزية ، ودار حديث بينى وبينها ، قدمت نفسى باسم « أحمد شلبى » بدون دكتور فمدرس اللغة العربية بمدرسة إعدادية لا يمكن أن يكون دكتوراً ، وسألتنى عن الشهادة التى أحملها فأجبت « ليسانس كلية دار العلوم » و « دبلوم فى التربية » ولم أنكر ما زاد عن ذلك من شهادات ودرجات علمية فليس له ضرورة فى ذلك العمل ، وسألتنى عن خبرتى فى التدريس ، فأجبت بأنى عملت فى المدرسة النموذجية التابعة لمعهد التربية العالى للمعلمين « كلية التربية الآن » وكان هذا كافياً لاتسالم على •

وبعد أسبوع سألتنى المديرية عما إذا كان ممكناً أن أدرس التاريخ الإسلامى لتلاميذ الفرقة الثانية ، فابتسمت ابتسامة فيها سخرية من الزمن ، وأجبت بالإيجاب ، وفى جوانحى صرخة تقول : مدرس لا مع (وآسف أن أقول هذا) للتاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة يوضع فى مكان لا يشرف فيه حتى يسأل عما إذا كان يستطيع أن يدرس التاريخ

الإسلامي للفرقة الثانية الإعدادية ، ولكن الإجابتي بالإيجاب لم تضع
جداً لتساؤلات المدير ، فقد أضافت أن تدريس التاريخ الإسلامي يحتاج
من المدرس أن يعرف بعض اللغة الانجليزية لأنها لغة التعليم في هذه
المدرسة ، وإذا كان القانون يحتم أن يدرس التاريخ الإسلامي باللغة
العربية فإن اللغة الانجليزية وسيلة ضرورية لتيسير الأمر على الطلاب ،
وطمأنت المدير بآني أعرف الانجليزية ، وأنه لا داعي لأن تقلق .

ومرت فترة أظهرت فيها كفاءة طيبة ، ونلت تقدير التلاميذ وإدارة
المدرسة ، وجاء يوم مشهود كشف القناع الذي أسدلته على وجهي طيلة
الفترة السابقة ، فإن مفتش اللغة العربية جاء في دورته الأولى وسأل
في حزم : هل استكملتم هيئة التدريس بالمدرسة في نطاق اللغة العربية
والمواد القومية ؟ فتلقى الإجابة بالإيجاب ، وسأل عن المدرس الجديد
وضرورة أن يكون من حملة المؤهلات المناسبة ، فذكر له سكرتير المدرسة
أنه يحمل ليسانس دار العلوم ودبلوم التربية ، وسأل عن اسمه فذكروا
له أن اسمه أحمد شلبي ؟ فانتفض الرجل وعاد يسأل : من ؟ دكتور أحمد
شلبي ؟ مستحيل : فقالوا له إنه ليس دكتوراً ، فسأل عن صفاته الجسمانية
فتلقى إجابات محددة لاتدع شكاً في أنه أنا : شعر رأسه أمل إلى البياض ،
وعينه خضراوان . وأضاف السكرتير : هل نحضره لسيادتك ؟ .

فقال المفتش : تحضره لي ؟ كيف ؟ أبداً ، وتسلل المفتش من المدرسة
بعد أن أوصى بي كثيراً ، وذكر لهم شيئاً عن تاريخي ، ومنذ ذلك الحين نلت
في المدرسة مكاناً مرموقاً ، وصعد مرتبي إلى درجة طيبة ، تحية لهذا الزميل
الكريم ، ودعاء أن يحسن الله جزاءه .

ولكن الفترة المريعة التي اجتريتها ، والتي عانيت فيها الجوع أو
ما يقرب منه ، جعلتني أخاف الحياة ، وأعمل بجدة لأحصل على موارد أكثر
من حاجتي ، لأدخر بعضها خوفاً من أن تتكرر المأساة ، ومن الأعمال التي
زاولتها في هذه الأثناء أن عملت بمدرسة أخرى بالزمالك وحاولت تنظيم
الجدولين حتى لا يحدث تضارب ، ولكن كان عليّ أن أقطع المسافة بين

المدرستين جرياً على الأقدام أحياناً حتى تكفى الدقائق الخمسة بين الحصتين
لانتقل من مدرسة إلى مدرسة ، ولم يكن ينقذنى من الجرى إلا أن أجد
سيارة (تاكسى) لتتنقلنى هذه المسافة ولم يكن ذلك شيئاً ميسوراً فى الغالب
لأن الشوارع خلفية لاتوجد بها (تاكسيات) وعلى هذا شهدتنى هذه
الشوارع أجرى من حين إلى حين وبخاصة إذا خلت هذه الشوارع من
الناس وكثيراً ما كانت خالية .

العمل بالصحافة :

ومن الأعمال التى مارستها فى هذه الأثناء العمل بالصحافة ، فإن الزمن
الذى مضى منذ فصلنا من الجامعة برهن لولاة الأمور على أن العمل والإنتاج
هدفى ، ولست مصدر خطر من قريب أو من بعيد فسمح لى بالعمل بعد أن
كنت أزاول العمل بالمدارس السابقة من طريق خفى ، وحينئذ تقدمت
لصحيفة الأهرام فضممتنى إلى محرريها ، وأمضيت بها فترة خصبة استفدت
خلالها وأفدت كثيراً من الفكر والتجارب ، ومن الممكن أن أكتب كثيراً عن
تجربتى بالصحافة ، وهى تجربة متشعبة تتصل بالمهنة فى ذاتها ، وتتصل
بالأشخاص الذين يزاولون هذه المهنة ، وبالسلطات التى تتولى الرقابة
عليها ، ومع ما فى ذاكرتى ومذكراتى من مخزون حول الصحافة هأنى
لا أستطيع أن أنطلق متحدثاً عنها لعدة أسباب ، وقد سبق أن ذكرنا فى
منهاج هذا الكتاب أنه ليس كل ما يعرف يقال .

العمل بالمؤتمر الإسلامى وظروفه وتجاربه :

ومن الأعمال التى مارستها فى هذه الأزناء العمل بالمؤتمر الإسلامى ،
وقد كان أنور السادات يشغل منصب السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى
فى أثناء تلك الفترة التى التحقت خلالها بالمؤتمر ، وموضوع التحاقى
بالمؤتمر الإسلامى موضوع له جذور قديمة ، فلنبداً فى تصويرها :

كنت بمعهد الزقازيق فى الثلاثينات من هذا القرن ، وكنت فى آخر هذا
العقد أقود الطلاب بالشرقية فى الحركات الوطنية التى كانت تموج بها
البلاد آنذاك وكان صوتى — خطيباً وشاعراً — معروفاً فى الزقازيق ،

وكان بمدرسة الزقازيق الثانوية طالب يحب الأدب والشعر ، وتموج نفسه بالوطنية الصادقة ، فالتقينا في هذا المصمار التقاءً يمكن أن نصفه بأنه من جانب واحد ، فقد سمعنى هذا الطالب وأعجب بى ، ولم يتح لى أن أعرفه ، ومرت السنوات ، وعندما فصلت من الجامعة كان هذا الطالب قد وصل ثقافياً واجتماعياً إلى مكانة عالية ، ومنصب مرموق ، وأصبح يحظى بثقة قادة الثورة ويستمتع بمكانة مهمة عند أولى الأمر ، وعرف هذا الإنسان العظيم خبر فصلى بعد فترة فاستدعانى للقاءه ولأول مرة بعد الفصل رأيتنى فى حضرة مسئول كبير يبتسم وينبع الجانب الإنسانى من كل جوانبه ، وأخذ يهدئ من روعى ، وقد أدهشه ثباتى وإيمانى ، وسألنى عما يمكن أن يفعله لى وظهر اهتمامه بى اهتماماً فاق كل تصورى ، حتى اضطررت أن أسأله : ما مصدر كل هذا الاهتمام بى فى وقت انصرف عنا كل الناس ؟ وأبان لى الرجل الصلة القديمة التى ربطتنا بالزقازيق ، والتى دعت له ليتعرف على اتجاهات حياتى وأنا بالجامعة ، فلم يجد فيها ما يستدعى ما نزل بى من عناء .

وسألنى بعد ذلك عن المؤسسات شبه الحكومية التى تتناسب مع ثقافتى ، فقفز اسم « المؤتمر الإسلامى » وبعد بعض اتصالات حدة موعداً يصحبى فيه بنفسه لمقابلة السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى، وركبت معه سيارته ، وبعد قليل كنا فى مكتب الأستاذ أنور السادات وأحسست أننى فى حضرة أخوين حبيين ، كان أحدهما يقدمنى برفق والثانى يتلقانى بعطف وحنان ، وتركنى المرحوم الأستاذ محمد فهمى السيد فى كنف كريم ، وعساد .

يارب ؛ لقد حلّ هذا الإنسان العظيم فى رحابك فجازاه عنى خير الجزاء ، فإننى لا أملك إلا الدعاء العميق أن تجزّل ثوابه ، وتكرم مثواه ، وهانذا أسجل فضله وأدعوه له من أعماقى ، وذلك كل ما أستطيعه تجاهله ، على أنى إذا فعلت الخير وساعدت المحتاج هنا أو هناك فإنى أقضى دينى بطريق غير مباشر ، فالإنسانية وحيدة واجدة ، واعتقادى أن إنساناً ما لو أحسن لك ولم يكن فى حوك أن تجازيه كان عليك أن تحسن للآخرين دون

تتوقع أى جزء منهم وهكذا دواليك ، حتى ينتشر الخير ويذيع ، ومصدره إنسان غرس بذرة طيبة فأينعت وازهرت وعم نفعها •

وفي المؤتمر الإسلامى أمضيت فترة حافلة بالخبرات والتجارب ، فقد وجدتني أعمل غير بعيد عن رجال الصف الأول من قادة الثورة ، وجنباً إلى جنب مع رجال الصف الثانى ، وقد رأيت العجب العجيب من هؤلاء وأولئك خلال هذه الفترة •

ماذا رأيت ؟

في الإجابة من هذا السؤال أعود قليلاً إلى الوراء لأقرر أن معرفتي بالأحزاب السياسية كانت تفيد أن الحزب يتكوّن من قوة متماسكة متعاونة قد يجدد خلاف في داخلها ولكن سرعان ما يزول هذا الخلاف بازالة أسبابه والعودة للتماسك ، أو — عند الضرورة — ببتّر المجموعة المتمردة ليعود التماسك والتعاون إلى جماعة الحزب ورجاله ، ولكن الحال بالنسبة لرجال الجيش الحاكمين كان غير ذلك ، كان صراعاً شديداً الشطط وكان مراكز متعددة لايربطها رابط ، وكانت هذه المراكز متجافية ، يكره بعضها بعضاً ، ويحقد بعضها على بعض ويتمنى كل فريق للفريق الآخر كل جوانب الوبال والفشل ، رأيت ما حدث غيماً بعد من تصرفات عبد الناصر ضد صلاح سالم والبغدادى ومن اعتقاله لكمال الدين حسين •• وأرأيت ما فعله السادات ضد كمال الدين حسين وذويه وضد حسين الشافعى ••• ؟ وأرأيت الوجوه التى اختفت والوجوه التى برزت في الساحة بعد ذلك ؟ كل ذلك كانت له نذر شاهدها في الفترة الأولى من هزات ما يسمى الثورة ، ومع هذا فلن نقف هنا لنسرد أى شيء من الحشد الزاخر الذى امتلأت به الذاكرة من أحداث هذه الفترة ، وقد أوردت الكثير من ذلك في الجزء التاسع والعاشر من موسوعة التاريخ الإسلامى •

وهكذا أمضيت عاماً حافلاً بالأشواق والورود عاماً عرفت فيه الجوع وعرفت الخير ، عاماً تكشفت لى أحداث ما كان أحوجنى للتعرف عليها ،

عاما عملت فيه مدرسا وصحفيا وموظفا بارزا بالمؤتمر الإسلامى فى وقت واحد عاما كنت أخرج خلاله من المنزل فى السابعة صباحا ولا أعود إلا فى الواحدة صباحا ، وكنت أتناول وجبات الطعام كلها بالخارج ، ولا أرى أولادى إلا وهم نائمون ، ومع شوقى لداعتهم كنت أحس أن حرمانهم من هذه المداعبة أهون من حرمانهم من الطعام ، ذلك الذى عرفوه فى الفترة الأولى من هذا العام •

وقد ماتت والدتى — رحمها الله وأسبغ عليها رضوانه — فى هذا العام ولم أستطع أن أكون بجانبها فى لحظاتها الأخيرة ولا أن أطيل بقائى بالريف لأتلقى عزاء المعزين ، فقد كانت الأعمال تبتلع وقتى كله ، وقد قبلت هذا آنذاك خوفا من مرارة الجوع والحرمان الذى امتد لهذه السيدة التى كانت قبل ذلك تعيش فى رفاهية وغيرة وخير عميم ، ولكنها على كل حال اقتسمت معنا رخاء العيش الذى جلبه هذا الكد المتواصل عندما سمح لنا بالعمل •

لقد كان فصلى من الجامعة عملا شاقا وقاسيا ، ولكنه فتح أمامى آفاقا عظيمة ، ونقل فكرى من طور إلى طور ، وحياتى من مكان إلى مكان ، وقد جاء الخير من الشر ، ولذلك تجدنى أتساءل دائما : ماذا لو لم أفصل ، والحق أننى لو لم أفصل لظلت حياتى « روتينيا » هادئا ، واستمرت تسير فى تيار واحد ، لقد شقيت بالفصل حينما ، ولكنه بعد ذلك كان أساس حياتى ومصدر جاهى ، لقد أثرى تجاربى وفتح لى منافذ ما كانت تفتح لو لم يكن هذا الضباب ، وقد تعرفنا على بعض المنافذ فيما سردنا من أحاديث وسفرى مزيدا منها فى حديثنا عن اندونيسيا الذى آن الأوان لنبدأ فيه •

في إندونيسيا

مطلع العلاقة باندونيسيا :

صارعت^٥ إندونيسيا من أجل استقلالها صراعا طويلا ، وقدمت تضحيات غالية لتحصل على هذا الاستقلال ، وقد دام هذا الصراع فترة طويلة وكان الأبطال المسلمون يقودون هذا الصراع ^(١) ولهذا ما إن تم الاستقلال حتى اتجهت البلاد لإنشاء معاهد وجامعات اسلامية لرفع مستوى الفكر الإسلامى لدى السكان الذين كان الاستعمار يحول دون أن ينيلهم هذه الغاية .

وفي الشهور الأخيرة من سنة ١٩٥٣ حضر الى القاهرة زعيم مسلم وكان في الوقت نفسه يمثل الحكومة الاندونيسية وهو بروفيسور سوناريو واتصل بجامعة القاهرة ليحصل على أستاذ لدراسة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بالجامعة الحكومية الإسلامية التى كانت قد ظهرت للوجود حديثا ، وبعد مناقشات ومشاورات استقر رأى على أن أعار إلى إندونيسيا لهذا الغرض ، وصدر قرار كلية دار العلوم وجامعة القاهرة بذلك ، وسافر بروفيسور سوناريو الى بلاده ليستصدر قرارا بذلك من رئيس الجمهورية ، وصدن هذا القرار في مطلع عام ١٩٥٤ ومرت الأيام ووصل القرار القاهرة في أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ ولكن بعد فصلى من الجامعة ، فلم يكن هناك من سبيل لتنفيذه ، وبقي معطلا .

السجان يطلق السجين خطأ :

ومرت الأيام والشهور ، وقد خبا الأمل في السفر لاندونيسيا ، فقد كان سفر المفصولين ممنوعا ، وكان دستور الثورة الذى ذكرناه من قبل هو التثكيل بالمعارضين وليس فتح الفرص أمامهم .

(١) شرحنا تاريخ اندونيسيا ومراحل صراعها ضد الاستعمار في الجزء الثامن من موسوعة التاريخ الإسلامى .

وجاء مؤتمر باتدونغ في ابريل سنة ١٩٥٥ وهناك التقى وفد من علماء اندونيسيا برئاسة الثورة جمال عبد الناصر ، وبعد التحية والترحيب قال مندوب من الوفد للرئيس : يا سيادة الرئيس أنت زعيم كبير ، ومصر كعبة آمال العالم الإسلامي ، وقد طلبنا من القاهرة العظيمة عالما مصرياً هو الدكتور أحمد شلبي ليساعدنا في انشاء الجامعة الإسلامية وإعداد مناهجها والمساعدة في اختيار هيئة التدريس بها وطريقة اختيار الطلاب واعداد المكتبة وغير ذلك من الأمور ولم يصلنا الدكتور شلبي حتى الآن والعمل بالجامعة يحتاجه ، وقد طلبناه من مطلع العام الدراسي وأوشك العام على الانتهاء ولكنه لم يحضر . نرجو ياسيادة الرئيس أن تذلل العقبات لذلك .♦♦♦♦

وتحمس الرئيس وقال : كيف كان ذلك ؟ سيصل لكم هذا الأستاذ فوراً . وأمر السفير المصري بالابراق بذلك للقاهرة ليُرسل الدكتور أحمد شلبي دون تأخير .

وفي يوم من الأيام وجدت الشرطة تبحث عني في كل مكان وقد تركوا في مسكني خبراً بالاتصال بهم فوراً ، فاستعذت بالله منهم ، فقد كان لقاءهم يحمل دائماً أقسى الأخبار وينذر بالسوء ، ولكني لم أستطع التأخير فاستسلمت وذهبت لهم فأحسنوا استقبالاً على غير ما كنت أتوقع ؟ وأخبروني بضرورة سفرى في الحال الى اندونيسيا فذلك أمر الرئيس الذى لا يناقش ، وأسرعت بالسفر ، لقد كان السفر بالنسبة لى خروجاً من العقال والقلق .♦

لم يكن جمال عبد الناصر يتذكر عندما أرسل يطلب سفرى أننى من المفصولين ، ولذلك عندما عاد وعرف ذلك اشتد غيظه ، ولكن ذلك كان بعد غوات الأوان .♦

وبدأت برحلتى لإندونيسيا/م رحلة جديدة مهمة في رحلة حياتى ستكون موضوع دراستنا في الصفحات التالية .♦

مسقط الرأس :

يتحدث كثير من الناس عن « مسقط الرأس » وعن حنين الإنسان ، إليه وإلفه له ، ولكن ما المدلول الحقيقي لهذا التعبير ؟ هل هو الحى أو القرية حيث وُلِد الإنسان ؟ أو المكان الذى نشأ به ؟ أو الوطن الذى ينتمى إليه ؟

لست أستطيع أن أوافق على أن رباطاً عميقاً يربط الإنسان بالحى الذى ولد فيه ، وكثيرون من الأبناء يولدون فى أحياء بالقاهرة ثم ينتقل ذوهم إلى أحياء أخرى ، وتنقطع الصلة تماماً بين الأولاد والحى الأول ولا يبدو منهم أى حنين إليه ، وقد ولد بعض أولادى فى شبرا ، ثم انتقلنا منها إلى المعادى ، وليس من أولادى من يتطلع إلى شبرا أو يذكرها بأى حنين ، ومثل هذا كثير هنا وهناك .

وقد نشأت أنا كما نشأ كثير من أترابنا بالريف ، وأمضينا به أكثر من عشرين عاماً ، ثم انتقلنا إلى القاهرة ، وارتبطت بها حياتنا فلم يعد الريف لنا إلا أهلاً نزرهم من حين إلى حين ، ونسرع بعد الزيارة للقاهرة حيث أصبحت القاهرة لنا كل شيء ، ولولا بعض المصالح فى الريف ، ولولا وجود الأهل لا نقطعت بالريف السبل كما حدث للكثيرين الذين لم يعودوا يذكرون « مسقط الرأس » بالريف إلا كما تذكر الأحلام ، ومثل هذا يقال فى أبناء الموظفين الذين ينتقلون من مدينة إلى مدينة مع آباءهم ويتكون فى كل مدينة تركوها ملاعب وأصدقاء سرعان ما ينسونهم ويندمجون فى المقر الجديد .

هل « مسقط الرأس » هو الوطن الذى ينتمى إليه الإنسان ، إن ظروف الحياة الجديدة توشك أن تجيب بالسلب على هذا السؤال ، فالهجرة لا تنقطع من بلاد إلى بلاد ، وقد امتلأت أمريكا اللاتينية وكندا وأستراليا بالوافدين من هنا وهناك ، وأقام هؤلاء الوافدون لهم بالأرض الجديدة دياراً وأوطاناً نسوا من أجلها كل شيء ، وقد كنت بالسودان ، ورأيت هناك زملاء من الذين يعملون بفرع جامعة القاهرة بالخرطوم ، ول هؤلاء

أولاد وُلدوا بالقاهرة ثم انتقلوا مع ذويهم إلى السودان وهناك تواءموا مع الجو الجديد فأصبح هذا الجو لهم كل شيء ، حتى أنهم كانوا يحسون بالغربة عندما يعودون للقاهرة لقضاء أشهر الصيف •

وقد تقول لى إن المهاجرين يحسّثون بالوحشة وقد يعودون إلى مواطنهم ، وأقول إن الوحشة مصدرها فراغ في الناس لا في المكان ، فراغ في اللغة والدين والعادات والأخلاق والأصدقاء ، فإذا تغلب الإنسان على هذه الظواهر ، وعرف مَنْ حوله وعاداتهم وأخلاقهم وكوّن له منهم أصدقاء فإنه يستقر بالمكان الجديد ويرتسّى فيه أوتاده •

وعلى كل حال فاعتقادي أن الوطنية شعور طبيعي عند كل إنسان وأن الجيل الذي ينتقل من وطن إلى وطن يظل على علاقته بالوطنين ، فهم أحدهما جذوره وفي الثاني فروعه ، ثم يصبح الوطن الجديد ودن أولاده ، وإن بقيت جذورهم مرتبطة بأرض الأجداد نوعاً من الارتباط يزيد أو ينقص تبعاً للذكريات •

وقد سافرت إلى إندونيسيا موظفاً لا مهاجراً بطبيعة الحال ، ولخني أم أكن في حالة طبيعية كذلك التي يكون عليها أغلب الموظفين عندما يعارون للعمل بالخارج ، لقد عانيت في العام الذي سبق السفر نوعاً من الحرمان ، وعانيت القلق والخوف ، ثم وجدت بإندونيسيا أيضاً من الخير وكل الأمن والأطمئنان ، فأقبلت على إندونيسيا وتعلّمت لغتها ، ووثقت بالناس ارتباطي ، واستسلمت للحياة بإندونيسيا أمداً كنت لا أعرف مداه فادبحت إندونيسيا وطناً ثانياً لى ، وكانت معي ثروة فكرية لا بأس بها ، وكانت إندونيسيا في حاجة لما عندي ، فوجد كل منا حاجته عند الآخر فتعلق به ، وأخذ منه وأعطى ، ولولا أن فلذات قلبي ، ولولا أن أهلي ووادي كانوا بمصر لأمكن أن يطول بإندونيسيا مقامي أكثر مما طال ، تحية من الأعماق للأرض الخضراء ولأهلها الذين طابت حياتي في رحابهم والذين أذكر لهم أياديهم السابغة ، وإقبالهم الفريد على ، وحرصهم الزائد على تيسير حياتي •

الرحلة :

سافرت إلى إندونيسيا في يوليو سنة ١٩٥٥ ولم أكن أعرف آنذاك مدى الإغارة ولا شروطها ، وإنما أسلمت نفسي للمجهول وتوكلت على الله ، فقد كان السفر فراراً من القلق الذي كان يساورني من حين إلى آخر وبخاصة عندما كانت موجات الاعتقالات تتوالى ، ويتهامس الناس عن التعذيب الذي يعانيه المعتقلون .

وقد اصطحبت في الطائرة بعض الكتيبات التي تعطي لمحات عن إندونيسيا وتاريخها وشعبها لأتعرف على الناس الذين سأعاشرهم ، واصطحبت كذلك قائمة بها أسماء عدد من الإندونيسيين الذين تعلموا في كلية دار العلوم وفي الأزهر أو الذين ذاع صيتهم في المحيط الإسلامي لأحفظ أسماءهم تمهيداً للتعرف عليهم والتعاون معهم ، وكان في القائمة هذه الأسماء الوضاعة ، الأساتذة :

محمد عدنان — عبد القهار مذكر — طه يحيى — محمد سالم فخري —
طاهر عبد المجيد — قهر الدين يونس — عبد المعطي علي — مختار يحيى —
محمد رشيدى — فريد معروف — محمود يونس — بسطامى عبد الغنى —
ممكا — محمد حسبى الصديقى — محمد نور عاشق ، وكثيرون سواهم .

وكان معى كذلك قاموس (عربى — إندونيسى) وكتاب لتعليم اللغة الإندونيسية ، واستغرقت الرحلة يومين أحسست في آخرهما — ونحن ندق أجواء هذه البلاد لندخلها — أنني أعرف شيئاً عن القطر الذى سأخطو به .

الاستقبال والأيام الأولى في العاصمة السياسية :

نزلت الطائرة في مطار جاكرتا ، وسرعان ما تقدم وفد من الناس لاستقبالى استقبالا حافلاً لم يخطر لى ببالي ، وأحاط بى الوفد من كل

.....

جانب ، لم أكن بينهم « أحمد شلبي » وإنما كنت مصر ، ومصر وقفت مواقف مشرفة في التعاون مع إندونيسيا لإبان فضالها في الأربعينات ، وكان مبعوث وزارة الخارجية المصرية أول مبعوث رسمي يدخل البلاد ، ويعلن اعتراف مصر باستقلال إندونيسيا ، وكانت وكالات الأنباء تحمل للإندونيسيين مشاعر الود والتأييد التي أظهرها المصريون خلال هذه المحنة ورأيتني أتلقى الجزاء عن موقف مصر المشرف ، فزادني هذا حبا لبلادي ، وإجلالا لها ، وفي قاعة كبار الزوار جلسنا وقُدِّمت لنا بعض المشروبات ، ثم تحدث بعض المستقبلين فرحبوا بي ، وأعلنوا فرحتهم بقدومي ، ووقفت أشكر وأثنى ، ولم أعبأ بقطرات من الدمع اندفعت من عيني نتيجة مزيج من الفرح والرغبة ، وذكرت أنني أحمل للإخوة المسلمين بإندونيسيا أجمل التحيات والأمنيات من إخوانهم هناك بوادي النيل ، وأعلنت أنني أضع كل جهدي في مجالات الفكر لخدمة هذا الشعب الحبيب ، وكانت كلمتي باللغة العربية والإنجليزية ، ولم أنس أن أستعمل بعض الكلمات الإندونيسية تقربا منهم ، وقد صفقوا لذلك تصفيقا حارا ، ووعدتهم بأنها ستكون لغتي الثانية بعد وقت ليس بالطويل ، وقد بررت بهذا الوعد .

أمضيت في جاكرتا أسبوعا في أكرم ضيافة ، وحضر لزيارتي بالفندق الكبير الذي نزلت به كبار المفكرين المسلمين من مختلف المناطق ، ومن هذا الفندق أرسلت بضع مقالات لجريدة الأهرام فنُشرَت* وأثارت صدري طيبا في مصر وإندونيسيا ، وأحسست أنني همزة وصل ، وعقدت العزم على عمل كبير ، والتقيت بوزير الشؤون الدينية فأحسست من حديثه مدى الاهتمام الذي يعلق على شخصي ، فالتجيت إلى الله أطلب عونه حتى أملا هذا الفراغ الواسع .

جمال الطبيعة ؟

وخلال إقامتي بجاكرتا نظمت* لى وزارة الشؤون الدينية رحلات زيارات إلى المدن والمناطق المحيطة بالعاصمة ، وعينت لى مرافقا هو الأستاذ محمد نور عاشق ومن هذه المدن مدينة باندونج الخالدة وبووجر



Bandung (باندينج)

المدينة الخلابة الساحرة ، وقد أدركت من هذه الرحلات أن إندونيسيا جنة خضراء ، ربيعها دائم ، وجمالها شامل ، ومناظرها فاقنة ، وما إن تتعلق بمنظر وتشدك إليه مفاتنه حتى يجذبك منظر آخر ينافس الأول في الجمال أو يفوقه ، المزارع ، القرى ، المدن ، الطرق ، كلها نعيم ونخلة وجمال ، ولست ترى القرية من بعد ، ولكن يمكنك أن تتعرف على القرية عندما ترى أشجارا باسقة ، فذلك دليل على أن هذه الأشجار تخفى بينها بيوت الفلاحين ، وإذا امتدت خطاك إلى جبل من الجبال التي تكثر في إندونيسيا فس ترى مالا يخطر لك ببال فليس في الجبل شجر واحد لم تنبتق به الخضرة ، والجبل عبارة عن غابة كثيفة بها مختلف الأشجار ، ومختلف الطيور ، ومساقط المياه ، وكل ما يخطر بالبال من الزهر والألوان . وفي الغابة يختلط حفيف الأشجار بزقزقة الطيور ، وخرير المياه ، فتحس أنك في عالم غير مألوف من العوالم ، وكنا نقرأ في الأدب العربي معنى أجمة بأنها الشجر الملتف الذي لا يدع طريقا للسير ، وقد رأيت الأجمة في إندونيسيا ووقفت أمامها مبهورا ، ولم أستطع أن أمد قدمي خطوة واحدة في غير الطرق الممهدة لأن التفاف الحشائش المتسلقة على الأشجار يضع حاجزا ضخما أمام الإنسان ، على أن الغابة مصدر رزق الكثيرين ممن تعودوا أن يقتحمواها ، ومن تعرفوا مسالكها ، فإليها يفد جموع من الناس في الصباح ، بعضهم مناضل يصيد الحيوانات ويأخذ جلودها الغالية ، وبعضهم مغامر يصيد الثعابين التي تصل أطوالها إلى عشرة أمتار أو تزيد ، وبعضهم عامل يجمع الخيزران ، وبعضهم يجمع الفاكهة ، وبعضهم قانع يكتفى بقطع الأشجار وحمل الأخشاب ، ويعود هؤلاء جميعا بعد ساعات وكل منهم يحمل ما قصد إليه ، وتبيت الغابة في صمت حتى ساعات الصباح .

مناظر الغابة ومابها من ألوان وأصوات وحيوانات جعلت الطبيعة الإندونيسية غنية بألوان الفنون من موسيقى ورقص وغناء ورسم وتصوير ، وانعكست الطبيعة على الإندونيسي فجعلته فنانا ، وأشاعت في



Padang Pandjang
(عاصمة سومطرة الهولندي)

الدور والمجتمعات أفانين من الموسيقى والرقص وغيرهما من الفنون الجميلة .

وجبال إندونيسيا شامخة بارتفاعاتها سموخها بمناظرها ، وفي بعضها تتمثل فصول السنة كلها في وقت واحد ، فإذا ضايقت الحر في سفح الجبل فاصعده تجد الجو يتغير مع صعودك فتنتقل من الصيف إلى الربيع ، فإذا استمررت في الصعود قالك زمهرير الشتاء ، واحتجت إلى الدفء والفران .

والشعب الإندونيسى شعب سمح ذكى لا تعقيد فيه ، وهو مؤمن عميق الإيمان ، فكل ما فى إندونيسيا يدعو إلى الإيمان وينطق بعظمة الخالق ، وابتسامة الرجل الإندونيسى تعلو شفقيه دائما ، وهو بهذه الابتسامة يحتقر الصعوبات ويتغلب عليها .

تلك لمحة سريعة عن الأرض التى نزلت بها ، وعن الشعب الذى بدأت أتعامل معه .

فى العاصمة الفكرية :

وبعد أن أمضيت أسبوعا فى العاصمة السياسية انتقلت إلى جوكجاكرتا المدينة الجامعية التى بها الجماعة الإسلامية ، وبها كذلك جامعة أخرى مدنيّة اسمها جامعة « كاجامادا » وكانت رحلتنا بالقطار . وقد استغرقت الرحلة حوالى عشر ساعات ، وكانت الأرض على طول الطريق سندساً أخضر ومناظر بهيجة .

وفى جوكجاكرتا كان فى استقبالى جموع من الأساتذة والطلاب . وكانت فرحتهم بى شاملة ، وتحياتهم لى عميقة ، وسار الركب بنا إلى أكبر فنادق المدينة وأنزلونى به ريثما يتم إعداد المنزل الخاص بى ، وقد ضاق الفندق بالوفود التى حضرت لتحييتى حتى تعجلت الانتقال للمنزل ، فقد



فتيات وطقوس

أحسست من عمق الحفاوة أمل الجماهير الذى انعقد على شخصى فى مجال الدراسات الإسلامية ، وكان لابد من الاستقرار بالمنزل لأبدأ نشاطى .

وفى حى جميل من أحياء جوكجا حطت رحالى فى منزل بديع بشارع Sapan رقم ٢٠ وفى هذا المنزل كتبت العديد من أبحاثى وكتبى ، واختلط هواؤه بدمى ، ومنه خرجت حاملا فكري ، ولذلك ترانى أحن إليه ، وأحلم به ، وتهفو روحى من حين إلى حين فى آفاقه .

وفى جوكجا صحافة يومية ، ومجلات سياسية وعلمية ، وقد بدأ ممثلوها ياتقون بى ، ويأخذون منى الأحاديث عن الفكر الإسلامى وعن خطتى للعمل بإندونيسيا ، فبدأ اسمى يطير مع الصحف ومع الإذاعة وكنت أحس بالثقل الزبير الذى يزنوننى به فأبذل الجهد لأواجه هذا الأمل بما يستحقه من كدح .

ومن هذا المقر الجديد بدأت نشاطى ، وبدأت حياتى العلمية والاجتماعية دأيلة ست سنوات ، وسنعيش فى الصفحات التالية مع نواحي هذه الحياة :

اللغة الإندونيسية :

لعل اللغة كانت الشغل الشاغل الذى قابلنى فى مطلع حياتى بإندونيسيا ، فقد كان معى زاد لا بأس به فى مجال الدراسات الإسلامية والعربية ، فلم يساورنى قلق فى هذا المجال ، وكنت أعتقد أن ذلك يكفى لأداء عملى ، بيد أن إقبال الجماهير الإندونيسية على ، ومطالبهم بمحاضرات عامة ، ولقاءات بالكثيرين منهم فى لجان متعددة أبرز لى ضرورة التعرف على لغة القوم ، حتى أستطيع أن أستجيب لهذه المسئوليات ، وكنت قد مارست حينما الترجمات ، فقد كان يترجم لى من اللغة الإندونيسية إلى اللغة العربية أو إلى اللغة الانجليزية أو كان يترجم عنى ، ولكن ذلك كان مضيعة للوقت من جانب ، وكان من جانب آخر لا يتيح لى متابعة التفاصيل التى يتحدث بها من حولى .

وأحسست أنى لست أستاذاً في الجامعة فحسب ، ولكنى لى دوراً كبيراً بين الجماهير ، وإذا استطاع طلاب الجامعة أن يأخذوا أفكارى باللغة العربية أو الانجليزية ، فإن الجماهير لا تستطيع ذلك ، من أجل هذا أدركت أن اللغة الإندونيسية أصبحت ضرورة لنجاحى فى عملى ، وكنت أومن أن الداعية يتحتم عليه أن يعرف لغة القوم الذين يدعوهم ، فتعرّثته على لغتهم أيسر جداً من إلزام الجماهير الغفيرة بالتعرف على لغة الداعى .

وأحاط بى تلاميذى يشجوننى للوصول لهذا الهدف ، ويساعدوننى عليه ، حتى رأيتنى تلميذا لهم ، قبل أن أقف منهم موقف الأستاذ ، فقد كنا لانزال فى إجازة الصيف ولم تبدأ الدراسة بعد ، وخذلرت فى تعلم اللغة خطوات سريعة ، واستعملت بضاعتى منها فى أحاديثى مخطئاً حيناً ، ومحسباً حيناً ، ولكنى كنت فى الحالين أصل إلى نفوس الناس من أيسر الطرق وكانوا يفهموننى على كل حال ، ويصححون أحياناً هفواتى ، وبمرور الأيام يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، استطعت أن أعرف من اللغة ما يبيننى على العمل تماماً ، فأخذت أكتب بها وأحاضر ، وأفهم ما يقال ، وكان ذلك وسيلة عظمت للوصول إلى عقول الناس وقلوبهم .

وللغة الإندونيسية تاريخ ليس بالطويل ، فإندونيسيا جزر متعددة كانت اللغات فيها تختلف من جزيرة إلى أخرى وفى بعض الجزر كانت تعيش لغات متعددة ، إذ أن الجبال والغابات تقسم الجزيرة إلى منادات أو ممالك كثيرة ، وتختلف اللغة من مكان إلى مكان ، حتى كانوا يقولون إن فى إندونيسيا عدة مئات من اللغات ، وعندما دخل الإسلام إندونيسيا دخلت معه كلمات عربية كثيرة فوجدت طريقها للغات القوم ، وكانت هذه الكلمات تُعَدُّ قاسماً مشتركاً بين اللغات واللهجات المختلفة . ثم جاء الاستعمار الهولندى فأرضاه تفكك هذه البلاد من ناحية اللغة ، واتخذ ذلك وسيلة لمزيد من التفكك لهذه البلاد الشاسعة ، وجعل الاستعمار الهولندى اللغة الهولندية هى اللغة الرسمية للبلاد ، وقدّمها للأذكىاء والعلماة والمثقفين منهم ، أما الجماهير الغفيرة فبقيت لا تعرف غير لغاتها المحلية ،

وفي مطلع الاستقلال رأى قادة إندونيسيا ضرورة توحيد اللغة لتكون هناك صحافة ومطبوعات بلغة واحدة ليتمكن تكوين شعب واحد ، له أمان واحد ، وتقوده أهداف وثقافات واحدة ، وفي سنة ١٩٤٥ عقدت مؤتمرات لاختيار لغة لإندونيسيا كلها ، وفي هذه المؤتمرات ظهرت اتجاهات مختلفة فقد قفز الصينيون وكان منهم بإندونيسيا حوالى سبعة ملايين يملكون نواصى المال والتجارة . وقدّم هؤلاء لغتهم لتكون لغة شاملة لإندونيسيا ، ولكن هذا الاقتراح لم يؤخذ به ، فإن إندونيسيا لم تقبل أن تنماع في الصين ، وكانت تسعى لتحرر شامل ، وتقدم المثقفون الإندونيسيون باللغة الهولندية ولكن هذا الاقتراح كان قصير العمر ، فكل شيء هولندي كان مكروها ، وكانت الجماهير تحاربه وتطارده .

واقترح بعض الناس اللغة الانجليزية كلغة عالمية ولكن إندونيسيا لم تكن تريد أن تخرج من الشرق وتصبح تابعة للغرب ولهذا انهار هذا الاقتراح كما انهارت الاقتراحات السابقة ، ولم يتقدم أحد ليقدم اللغة العربية في هذه المؤتمرات وأحس الإندونيسيون بفراغ ، فهناك دلتهم في الآلاف يجيدون اللغة العربية تعلموها في الوطن العربي أو في المعاهد الإسلامية ببلادهم ، وكانت اللغة العربية لغة الحديث (Lingua Franca) في المؤتمرات الإسلامية التي كانت تشهد من حين إلى حين ، ويتدارس فيها المسلمون شئونهم ، كما كانت لغة الصلاة والعبادة عند المسلمين الذين يمثلون الأغلبية المطلقة في البلاد ، ومن أجل هذا اقترح بعضهم أن يدعى ممثلون من العرب المقيمين بإندونيسيا ليقدموا اللغة العربية للمؤتمرين وليذكروا فضائلها ، والأسباب التي تدعو لاقتراحها لغة للبلاد ، واختير لذلك شيخ عربي هو (الشيخ عوض شحبل) ولم يكن هذا الرجل عالما ولا واسع الدراسة ، وإنما كان في عهد شبابه يشتغل بالتجارة ولا يعرف سواها ، وقد بذل الرجل جهده في هذا المضمار ، ولكن من الطبيعي أنه كان جهدا هزيلا لم يأت بفائدة ، واتجه المؤتمرين إلى اختيار لغة من اللغات الإندونيسية وتزويدها بزيادة جديدة من اللغات الأخرى الإندونيسية أو العالمية وهكذا ظهرت اللغة التي سُميت باسم

البلاد ، وكانت اللغة المختارة وثيقة الاتصال باللغة التي تستعمل في الملايو ، والحق يقال إن اللغة الإندونيسية تطورت تطورا رائعا وسريعا ، ولم تمض سنوات قلائل حتى أصبحت واسعة الانتشار في جميع أرجاء البلاد ، وأصبحت كذلك غنية وطبيعة وجميلة ، وبعد فترة قصيرة ظهرت بها مؤلفات ضخمة ، واستجابت لكل حاجات الإنسان في العلوم والفنون والآداب •

تلك هي اللغة التي تعرفت عليها ، والتي بدأت بها جولاتي العامة والاجتماعية في هذه البلاد ، والتي جعلتني إلى حد كبير غردا في هذه الأسرة الكبيرة ، فلم أعد أحتاج إلى من يترجم لي أو يترجم عني ، وأخذت ألقى بها محاضراتي بالجامعة أو محاضراتي للجماهير • كما بدأت مع الزمن أكتب بها بعض كتبي ، وأراجع الترجمات التي يقوم بها آخرون لمؤلفاتي •

٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٥ :

في موجة من العمل العلمي الواسع الذي ربطني بجامعات إندونيسيا وشعبها حلّ يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٥ ولم أنس ذلك اليوم ، فقد كانت الأقدار أعدت العدة لتضع الابتسامة مكان الكآبة ، ففي هذا اليوم رأيتني بين مجموعات من الإندونيسيين تحتفي بقدمي وألحّت علي فكرة المقارنة بين هذا اليوم وبين نظيره منذ عام :

ففي ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤ فصلني مجلس قيادة الثورة من الجامعة ، أو بلغة أخرى طردتني الحكومة من العمل ، وفي هذا اليوم بعد عام كنت مع حكومة تحتفي بي وتتخذ الوسائل لإسعادي •

كنت منذ عام أخاف كلما دقّ أحد بابي وأتوقع السوء ؛ ولكني اليوم أفرح كلما سمت طرقة على الباب وأهرع بغبطة لاستقبال الوافدين لتحيتي •

منذ عام اختفى الأصدقاء من حولي أو اختفيت أنا منهم حتى لا يمسهم

ضرّ بسببى ؛ والآن يحيط بى الأصدقاء من كل جانب ويذلون أقصى الجهود لإيناسى •

منذ عام كان الجوع يتهددنى ، وكانت سحابة من القلق تشمل حياتى ، واليوم يحيط بى الرخاء والاطمئنان والأمل ••

منذ عام حرّمت من طلابى وأبعدت عنهم ، وأغلقت أبواب الجامعة فى وجهى ، والجامعة بالنسبة لى هى الحياة والجنة الوارفة ، والطلاب هم الغرس الذى نتعهده ليثمر ، وما كان أقصى هذا التصرف على نفسى ، ولكنى اليوم أعيش فى رحاب جامعة أو جامعات تتطلع إلى وتحسن استقبالى ، وتستجيب لآرائى ، وأعيش بين آلاف الوفود من الطلاب الذين فتحو قلوبهم وعقولهم لما أغرس فيها من معارف •

ولم أنسَ قدّ فى غضون هذه المقارنة أن أسجد لله شاكراً ، وأن أطلق لسانى يعبر عما فى وجدانى من ثناء وشكران مٹاهدا الله واسع العطاء أن أبذل أقصى الجهد فى عملى الجديد حتى أكون أهلاً لما قدمه لى من عون وما فتحه أمامى من مسالك •

فى محيط الجامعات :

كان عملى الرئيسى أن أحاضر فى الكلية الإسلامية الحكومية التى كانت قد أنشئت حديثاً بجوكجاكرتا العاصمة الثقافية لإندونيسيا ، وفى خلال الإجازة تأنت قد تكونت عندى فكرة عن مستلزمات المجتمع الإندونيسى ، ولما اجتمعنا فى مجلس الكلية اقترحت عدة اقتراحات تتصل بالمنهج ، وبדרך الدراسة ، وبنظام الامتحانات ، وقد استجيب لى استجابة فائقة فسيّيت فى المنهج بإدخال مادة الحضارة الإسلامية ، ومادة مقارنة الأديان ، كما عنيبت بتنظيم المكتبة وتغذيتها بمجموعة كبيرة من الكتب الحديثة فى الدراسات الإسلامية وكانت المكتبة فقيرة جداً فى هذا اللون من الكتب ، وأعددتنا ساعات للاطلاع ، ويسرّنا على الطلاب الاستعارة الخارجية •

وكان النظام الهولندي في الامتحانات هو المتبع ، وهو نظام يقوم على الفرد لا على الجماعة بمعنى أن المحاضرات تستمر ، وعلى كل طالب يأنس في نفسه القوة أن يطلب أن يمتحن ، وهو نظام الأزهر القديم ، وقد أصبح ذلك صعبا جداً مع الأعداد الكثيرة من الطلاب مما لا يجعل من الممكن أن يقوم المدرس بهذا العمل في الوقت المناسب وقد تسبب عن ذلك النظام تعطيل الطلاب ، وقد أدخلت النظام المصري الحديث في الامتحانات فدخل الطلاب جميعاً الامتحان التحريري على النسق المعروف عندنا ، وقد سهّلت عملية الانتقال من فرقة إلى أخرى بهذا النظام .

وكنت معارفا لهذه الكلية أستاذاً للتاريخ الإسلامي ؛ فلما اقترحت مادة الحضارة الإسلامية أُسند إلى تدريسيها ؛ ولما اقترحت ، مادة « مقارنة الأديان » طُلب مني أن أقوم بتدريسها كذلك وقبّلت ؛ وهبّت صيحة تنادى بأن أدرس اللغة العربية وآدابها ، فلما عرّبي وأزهري ودرعني قبل كل شيء فقبلت ، وفي بعض الحالات درّست تاريخ التشريع الإسلامي ؛ والتربية وطرق البحث حتى حملت عبئا كبيرا في هذه الكلية ، ولكنه كان عبئا حبيبا إلى نفسي بسبب إقبال الطلاب وترحيب الزملاء .

وتستمد هذه الكلية طلابها من مصدرين مختلفين ؛ أولهما المدارس الإسلامية ، وهي شديدة الشبه بالقسم الثانوي بالأزهر ، والمتخرجون منها يعرفون اللغة العربية إلى حد معقول ؛ والمصدر الثاني هو المدارس الثانوية العامة والمتخرجون بها يعرفون اللغة الإنجليزية إلى حد معقول كذلك ، ولهذا كان لزاما على أن ألقى محاضراتي باللغتين ؛ فأشرح الفكرة باللغة العربية للمجموعة الأولى ؛ ثم التفت للمجموعة الثانية فأشرح نفس الفكرة باللغة الإنجليزية ؛ وكان الطلاب سعداء بهذا ، لأنهم كانوا يستفيدون اللغة العربية أو إنجليزية أو كلاهما معا مع الأفكار العلمية ؛ ولكن الوقت لم يتسع لهذا النهج ؛ فأتجهت لتعلم اللغة الاندونيسية التي حلت محل اللغتين بعد وقت ليس بالطويل ؛ وقد ظل اللسان العربي بطبيعة الحال هو لغة المحاضرات في علوم اللغة العربية وآدابها .

وقابلتنى عقبه لم يكن تذليلها سهلاً هي مشكلة الكتاب الجامعى ؛
والكتاب الجامعى فى مصر يصوّر مشكلة فهو موجود وكثير ؛ وتتجه الشكوى
نحو ثمنه أو نحو فرضه على الطلاب فرضاً ؛ والذي يشكو منه الطلاب
فى مصر أملّ يتمناه الطلاب فى إندونيسيا ؛ فمشكلة الكتاب الجامعى هناك
مصدرها أنه غير موجود ؛ فالطلاب يتلقون المحاضرات ويفهمونها ولكن
لا يجدون الكتاب الذى يستذكرون فيه هذه المحاضرات ؛ أو يستفيدون
بواسطته هذه المعلومات ؛ وكان الطلاب يعتمدون على الإملاء أحياناً ، أو
على مذكرات طبيعتها السرعة وعدم الدقة فى الإخراج أحياناً أخرى ؛ ولذلك
اتجهتْ نحو تأليف الكتب للطلاب وبخاصة فى التاريخ الإسلامى والحضارة
الإسلامية ثم فى مقارنة الأديان ؛ واستعنت فى ترجمتها ببعض الزملاء
وبخاصة الأستاذ مختار يحيى الذى مثل الدم الإندونيسى والفكر الإسلامى
واللسان العربى بالإضافة إلى إجادته للغة الإندونيسية إجادة تامة
كما استعنت ببعض الإندونيسيين الذين ينحدرون من أصل عربى كالأستاذ
عبد الله باجرى • وسرعان ما أصبح الكتاب الجامعى فى متناول الطلاب •
ثم حدث شئ لم نتوقعه هو أن الجماهير أقبلت إقبالا شديداً على هذه
الكتب مما جعل هذه الكلية مصدر إشعاع فى المجتمع الفسيح •

وبسبب الجهود التى تعاوننا جميعاً فى بذلها بهذه الكلية ، وبسبب
ما أثارته هذه الكتب من حماس ، أقبل الطلاب على هذه الكلية إقبالا واسعاً
فلم يكن بدّ أن تصبح الكلية جامعة إسلامية ، وأن تصبح أقسامها كليات
مستقلة ؛ بل أصبح للجامعة فروع فى مدن أخرى ، وأصبحت الدراسات
الإسلامية هدفاً يتطلع إليه الكثيرون •

واتجه المصلحون المسلمون إلى فتح جامعات إسلامية ؛ واتجهت
الأحزاب الإسلامية إلى هذا أيضاً ؛ وكان لزاماً علىّ أن أستجيب لدعوة
هؤلاء أو أولئك لإلقاء بعض محاضرات ، فقد كان اسمى يوضع فى قائمة
المحاضرين بعد استشارتى أو بدون أخذ رأى لأن أملاً كبيراً يعلقه الطلاب
على وجودى •

وفي مجال تعليم اللغة العربية كانت مشكلة الكتب أدق وأهم . فكتيرون من الإندونيسيين أو من الهنود ... كانوا يفدون إلى مصر ليتعلموا اللغة العربية ، وكانت الوسيلة لهؤلاء أن يلتحقوا بالأزهر أو بكلية دار العلوم ، وأن يجلسوا جنباً إلى جنب مع المصريين والعرب ، وفي قاعات الدرس هنا وهناك كانت تَعَلِّمُ ألفية ابن مالك وقطر النداء وابن عقيل والأشمونى . وبهذا كان الطلاب غير العرب يعرفون قواعد اللغة العربية أكثر مما يعرفون اللغة ذاتها والعجيب أن أكثرهم عندما عاد إلى بلاده معلماً راح يعلم ألفية ابن مالك أيضاً لطلاب مبتدئين في صلتهم باللغة العربية .

ولم يكن هذا العيب خاصاً بالكلية الإسلامية بل كان موجوداً في المدارس الإسلامية ، وقد نشط بعض الإندونيسيين لتأليف كتب للمبتدئين ، ولكن هذه لم تكن شاملة ، وقلّة منها من سلك طريقاً تربوياً دقيقاً ، وقد تطلعت لى الأنظار لأسهم في حل هذه المشكلة فبذلت جهداً كبيراً لذلك ، أثمر كتابة أربعة كتب لتعليم اللغة العربية لغير العرب تبدأ من الهجاء وتتدرج إلى مستوى طيب ، وتقدم للطلاب المتقدمين خلاصة سهلة وافية لقواعد اللغة العربية مع تمارين للتطبيق عليها ، وقد اتبعت في هذه الكتب الوسائل والمراحل التى تتبّع في تعليم اللغات الأوربية لغير ابنائها . وقد نجحت هذه الكتب في أداء مهمتها خير نجاح .

في محيط الجماهير بمختلف الجُزُر :

لم أكن غريباً على جماهير إندونيسيا منذ نزلت أرضها ، فقد اتصلت بى الصحافة ونشرت خبري وصولي ، ثم نشرت أحاديث لى ، وقدمت لى أسئلة عُنِيَتْ بنشر الإجابة عنها في صفحاتها الأولى وفي كثير من الأحيان كانت عبارات من كلامي تؤخذ « مانشتات » ملونة بالصحف .

وتعرفت أكثر بالجماهير عن طريق الكتب التى ألحقت بالحديث عنها من قبل وبخاصة كتب « مقارنة الأديان » التى كانت ذات مفعول واسع في كل ربوع إندونيسيا .

ثم تعمقت صلتى بمجاهير إندونيسيا عن طريق المحاضرات العامة الكثيرة التى كنت ألقياها فى المناسبات المختلفة ، وفى إجازة الصيف التالى أعدت وزارة الشؤون الدينية لى برنامجا واسعا لزيارة الجزر المختلفة بإندونيسيا ، وكتبت^٥ للفروع التابعة لها بمختلف المدن أن تستقبلنى وتنظم سلاسل من المحاضرات العامة والخاصة ألقياها للمدرسين وفى الأندية ولدى التنظيمات النسائية وتنظيمات الشباب والمعاهد بالإضافة إلى المحاضرات العامة ، وكان الإقبال بالغ المدى على محاضراتى فى كل مكان نزلت به ، أو جماعة اتصلت بها لأن محاضراتى كانت تلبي حاجات الناس وتجب عن تساؤلاتهم •

التحول بالفكر الإسلامى تبعا للظروف :

وقد خطوت بالفكر الإسلامى خطوة هامة فى تلك الربوع ، ذلك أن الدراسات الإسلامية كانت قبل استقلال إندونيسيا محدودة بالعبادات والمعاملات التى تذكرها كتب الفقه ، وكان هذا القدر كافيا فى تلك الفترة ، إذ^٦ لم تكن هناك ثقافة ذات بال فى المجتمع ، فلما تم^٧ استقلال إندونيسيا ، وانفتحت الأبواب للثقافة العالمية عن طريق الاذاعات والمطبوعات والزيارات المختلفة ، قفز إلى إندونيسيا ألوان من الأحاديث والدراسات عن الاشتراكية والشيوعية والراسمالية ، وارتفعت الأصوات بالحديث عن الديمقراطية والدكتاتورية الفردية أو الموجهة ، وانشئت الأحزاب تتبع هذا الاتجاه أو ذاك ، وجذبت « المودات » الحديثة فى المجال الاجتماعى مجموعات من الشباب فأصبحوا صدى للاتجاهات الأوربية والأمريكية ، وأصبح واضحا أن الإسلام إما أن يدخل هذا الصراع بمادة مناسبة أو ينزوى فى المساجد ، ويعيش مع شيوخ العهد الماضى حتى يضمحل باضمحلالهم ، وبدون تردد اخترت طريقى ، فذهبت أرفع صوتى برأى الإسلام فى السياسة ، ورأيه فى الاقتصاد ، ورأيه فى الحياة الاجتماعية والتربوية وكان ذلك تحولا كبيرا فى الدراسات الإسلامية بإندونيسيا فكم أقيت من محاضرات عن رأى الإسلام فى الاقتصاد وأوردت مقارنة دقيقة عن الفرق بين الاقتصاد فى الإسلام وبين النظم الاقتصادية الأخرى ، وكانت المقارنة تبرز جمال

الإسلام وتفوّقه على سواه من النظم مما اضطر بعض الذين كانوا متعصبين للشيوعية أن يصرح بأن الإسلام إذا كانت فيه هذه النظم فليس هناك من داع لأى نظام اقتصادى آخر •

ومثل ذلك حدث فيما يتعلق بالسياسة والحياة الاجتماعية والتربوية •

ومن الأشياء التى عنيت بها فى اندونيسيا اننى اتجهت لتقديم الإسلام ليس فقط للمسلمين أو دلالة النكبة الإسلامية بل أيضا لغير المسلمين من اللادينيين أو البدائيين ، وكذلك للمسلمين اسما الذين لا يرتبطون ارتباطا حقيقيا بالإسلام ، وقد ساعدنى عام مقارنة الأديان فى هذا المجال ، فقدمت الإسلام كحاقة ختامية فى سياسة الأديان وليس كدين مستقل ، ووَضَعُ الإسلام بين الأديان من ناحية تشريعاته وعقائده وأخلاقه وضح مكانة هذا الدين بين الأديان ، وجذب له الكثيرين •

وهنا أتوقف قليلا لأرسم صورة تكرر حدوثها ، وكانت عميقة التأثير فى نفسى ، لقد كنت ألقى المحاضرات العامة فى القاعات الحكومية الكبرى بالمدن ، وكان المشاهدون آلافا أو عشرات الآلاف . ودلالمسا ارتفعت الأصوات بالتحية والأكف بالتصفيق خلال المحاضرة أو فى ختامها ، وبعد الانتهاء كانت السيارة تحملنى الى البيت الذى أنزل فيه بمزردى . أو إلى حجرتى بالفندق إن كنت بعيدا عن جوکجا كرتا ويشملنى عتب ذاك صمت رهيب ، وهكذا كنت أنتقل فى دقائق من الأضواء الباهرة ، والعيون الناظرة ، والصخب الجم ، إلى الوحشة الشاملة والسكون المدهق ، وكان هذا الانتقال المفاجئ شديد الوقع على النفس ، واكنه كان يهون فى سبيل ما نصادف من نجاح •

وهناك وسيلة سهلة حملت اسمى وفكرى للجماهير العريضة وتلك هى الإذاعة ، ولم يكن التليفزيون قد دخل اندونيسيا بعد ، فاتخذت الإذاعة وسيلة لدراسات إسلامية متطورة كانت تجذب إليها كثيرا من السامعين ، وقد عرفت فيما بعد أن الأثير حمل صوتى عن طريق الإذاعة

الإندونيسية إلى الاقطار الأخرى المحيطة باندونيسيا نفى بعض لقاءات مع مسلمى تايلاند عرفت منهم أنهم يعرفوننى تماما ويتابعون أحاديثى بالإذاعة ، وقابلت بعد عدة سنوات الزميل الأستاذ الدكتور أحمد علم الدين الجندى فقال لى إنه كان مدرسا بالحسين وكان يستمع لأحاديثى بالإذاعة ، وفى سنغافورة وماليزيا حدث نفس الشئ ، وكان البعض يظن أن صوتى قادم من القاهرة ، وعلى كل حال فليس للعلم وطن ، والفكر الإسلامى ملك المسلمين فى جميع الأرجاء .

وهكذا عن طريق المحاضرات الخاصة والعامة وعن طريق الكتب التى لاقت رواجاً عظيماً من الطلاب وبين الجماهير ، وعن طريق الصحافة والإذاعة أصبحت معروفاً عند أكثر الإندونيسيين وأليفاً إليهم .

وهناك مجال آخر دفع اسمى دفعة قوية بين الجماهير ، ذلك هو مجال المناظرات التى عقدت بينى وبين كبار القسس المسيحيين ، والحق أن هذه المناظرات كانت تعقد فى جو علمى دقيق ، وقد أثمرت أجمل الثمرات لخدمة الإسلام والفكر الإسلامى ، وقد شرحت ظروف هذه المناظرات فى كتابى عن « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان .

العرب فى اندونيسيا :

منذ فجر التاريخ عرف العرب طريقهم إلى إندونيسيا والشرق الأقصى فى التجارة الحسادة والهائلة التى كانت البحرية العربية تمارسها ، وقد استقر بعض العرب على طول الطريق ، وفى جميع المحطات التجارية ، وكانت إندونيسيا مكاناً محبوباً لجماعات الحضارة وكان الحضارة من أهم العوامل التى حملت الإسلام إلى إندونيسيا ولما استقر بهم المقام هناك اشتغلوا بالتجارة ، وفتحوا المصانع واختلطوا بالسكان اختلاطاً واسعاً ، وانتسبوا للأحزاب ، وعلموا أولادهم حتى شغل الكثيرون من أبنائهم مناصب مرموقة فى الدولة ، وأصبحوا جزءاً من المواطنين يقاسمون أهل البلاد حلاوة الحياة ومرءها ، ولكن أكثرهم حرصوا على اللغة العربية ،

وعلى الصلة بالوطن العربى ، وكان من حرصهم على اللغة العربية أن كثيرين منهم كانوا يبعثون بأبنائهم إلى حضرموت ليعيشوا هناك بضع سنوات ليجيدوا اللغة العربية وليتعرفوا على أهلهم ، هذا بالإضافة إلى المدارس العربية التى فتحوها فى أمكنة متعددة باندونيسيا حيث يعيشون •

ومن العرب جماعات عمقت صلتها بالاندونيسيين فانماعت فيهم، ورات من مصلحتها أن تغمض الطرف عن أصولها البعيدة فلم تعد تنتسب للعرب ، وإن بقيت الملامح العربية بارزة بوجوههم فتوشك هذه أن تبرز السر الذى أريد له الكتمان •

وإذا قارننا الصينيين بالعرب فى إندونيسيا نجد الفرق كبيرا جدا ، فقد عاش الصينيون باندونيسيا دولة داخل الدولة ، لم يختلطوا بأهل البلاد ، ولم يتم بينهم تزواج ، ولم يمنحوا الأهلين من معارفهم أو علومهم ، وإنما عاشوا لأنفسهم فقط ، ومن أجل هذا ظلوا غرباء بإندونيسيا مما سبب خروج الكثيرين منهم عقب أن تم استقلال هذه البلاد •

وكانت بيوت العرب منارات لخدمة الإسلام فى كثير من الأحيان وطالما استدعوا من البلاد العربية الشيوخ والمدرسين ليعلموا اللغة العربية والفكر الإسلامى لوفود التلاميذ من أبناء العرب ومن أبناء الإندونيسيين الذين جذبتهم المدارس العربية •

وقد اتصلت بالحضارمة فى إندونيسيا وقدّموا لى ألوانا من العون وأنا أؤدى عملى بتلك البلاد ، وحرصت أنا على مجاملتهم ، فكثيرا ما وقفت فى ساحاتهم ألقى محاضرات عامة على الجماهير ، وكثيرا ما تفرغت لزيارة مدارسهم وإرشاد مدرسيهم فى دورات تدريبية لأشرح لهم أحدث الطرق لتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، وطالما وضعوا سياراتهم تحت تصرفى ، وكانوا يفرحون كلما كلفناهم بعمل لخدمة أغراضنا الثقافية ، من حق الحضارمة علينا أن نسجل لهم أعظم الثناء والدعاء •

وينحدر الحضارمة المهاجرون إلى إندونيسيا من أصول حضرية متشعبة ، وكانت أصولهم في حضرموت ترتبط بعادات وقيم ، كانت قنوات مختلفة لكل منهما مجال اجتماعي خاص ، وقد صبغت هذه القنوات في محيط واحد هو إندونيسيا الفسيحة ، ولكن بعضهم كان يتمسك بجذوره وأصوله ، واتجه آخرون إلى أن المحيط الجديد غير الطابع القديم ، وأنه نظر للجميع على أنهم عرب مسلمون فلا داعي لإثارة التقاليد القديمة وحملها إلى الوطن الجديد •

ولست أريد أن أدخل في صراع العرب ، فلقد كانوا على اختلاف طبقاتهم أصدقاء مخلصين لي ، ولأمر والعروبة والإسلام ؛ كلهم أحسن استقبالي وقدم لي ما استطاع من عون لأنجح في رسالتي ، وربما استطاع الزمن أن يزيل هذه الفروق ليغمرنا جميعا شعار العروبة والإسلام ، إنني أتمنى هنا أن أذكر أسماء الذين ساعدوني ، ولأسمائهم خلودها في ذهني ولكنني أخشى أن أنسى أحدا منهم فيؤثر ذلك عليه ، وإنني الآن أستعرضهم جميعا ، وأستعرض شهادتهم مهما اختلفت الجزر التي يعيشون فيها أو اختلفت المدن التي يستوطنونها ، تحية من الأعماق للحضارمة في إندونيسيا ، ودعاء أن يهيء الله لهم وبهم الخير •

الاعتداء الثلاثي :

قصة الاعتداء الثلاثي معروفة ، ذلك العدوان الذي جاء انتقاما لتأميم قناة السويس والذي اشتركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، ولست هنا أريد أن أتحدث عن تأميم القناة لأن فرحنا بذلك التأميم لم يطل أمده فقد ابتلعه هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ وتوقفت قناة السويس عن العمل حتى يونيو ١٩٧٥ حيث استعادت عملها ببطء ثم استعادت مع الزمن نشاطها وحياتها ، ولكن الذي أريد أن أتحدث عنه الآن هو موقفى بإندونيسيا عقب الاعتداء الثلاثي ، وهنا نقطة جديرة بالذكر ، فإنني لم أخبر أحدا بإندونيسيا أن الثورة قد فصلتني من الجامعة ، مع أن هناك ظروفًا كانت تحثني على ذلك ، فقد كان في إندونيسيا عقب وصولي بها حركة جماهيرية تعطف على

الإخوان المسلمين ، وربما كانت هذه الجماهير تعشني بطلا لو عرفت ان الثورة فصلتني من الجامعة ، ولكني كنت دائما أكره الكسب الرخيص ، وأكره انتهاز الفرض ، وعشت في إندونيسيا من أول يوم مصري حرييا مسلما ، مخلصا لبلادي وديني ، والمصري في الخارج غالبا يتناسى نفسه ويذكر بلاده ، وكثيرون من المصريين الذين يتحدثون وهم بمصر ناقدين أو مهاجمين تراهم في الخارج وقد نسوا كل شيء إلا مصر ، وعدوا أنفسهم جنودا لمصر يخدمون أغراضها ولا يهاجمون نظمها حتى إذا كانت هناك خلافات بينهم وبين هذه النظم ، وكان هذا موقفى ، ومن أجل ذلك دخلت معمة الصراع ضد العدوان الثلاثى وطالما وقفت في الجماهير أخطب وأمرخ غير حائل بدمع تغرورق به عيني ، وانفعال يهزنى • واستجابت الجماهير لى استجابة كاملة وبخاصة حينما ذكرت أن العدوان الاستعماري سيدخل اندونيسيا وغيرها من الأقطار حديثة الاستقلال إن نجح في مصر . فالعدوان في الحقيقة هو ضد حركات الاستقلال التي نعمت بها الدول بعد طول استعمار ، وكانت هيئة الإندونيسيين قوية جارفة أنزلت بمصالح المعتدين ومنشأتهم كثيرا من الخسائر ، وكان لها في مصر دوى واضح . وقد ظهر اسمى في هذه الحركات فكان دليلا على أن من بين من عاقبتهم الثورة جماعات تستحق التقدير لا العقاب ، ولكنى على كل حال قمت بدورى باسم الوطن والدين دون التطلع لأى هدف آخر •

العودة للعمل في الحكومة :

مر الزمن عاما بعد عام وأنا أعمل بإندونيسيا في عدة ميادين . واثق ألوانا من النجاح المادى والأدبى حتى أصبح اسمى على نك لسان . وصدرت قرارات مصرية بأن أنضم إلى وفود ثقافية رسمية ، وقرارات بتكليفى بأعمال مهمة ، ووردت التقارير من السفارة لوزارة الخارجية . وللمؤتمر الإسلامى تبرز الدور الكبير الذى أقوم به لخدمة الدين والوطن . واقترحت السفارة فى خطاب رسمى تعيينى مستشارا ثقافيا ، معددة الأسباب لذلك ، وخطا المؤتمر الإسلامى خطوات لتكريمى فصرف لى تذاكر

للمعودة إلى مصر كل صيف على نفقته ، وكل هذه الأشياء وسواها من نظائرها جعلت أمر عودتي للعمل بالحكومة موضع نظر ، وفي مطلع عام ١٩٦٠ تسلمت خطابا من وزارة التعليم العالي يقترح تعييني مديراً للمركز الثقافي المصري بجاكرتا ، ويسأل كيف أستطيع أن أوفق بين هذا العمل و عملي بالجامعات الإندونيسية ، فأجبت بأن ذلك ممكن ، وسيساعدني عملي بالجامعات الإندونيسية على نجاح عملي كمدير للمركز الثقافي بجاكرتا لأن صلتى بالطلاب ستجذبهم إلى المركز الثقافي ومكتبته ونشاطه كما أنى أستطيع أن أنقل بعض نشاط المركز الثقافي إلى ربوع الجامعة ...

وخطت وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية خطوة طيبة حينما استجابت لرغبتى فجعلت مقر عملي جاكرتا العاصمة بدلا من جو كجاكرتا . وأخذت أباشر عملي أستاذاً بالجامعة الإسلامية التى أنشئت حديثاً بالعاصمة ، وعندما عدت للقاهرة فى صيف ١٩٦٠ صدر قرار بإعادتي للعمل بوزارة التعليم العالي وتعييني مديراً للمركز الثقافي بجاكرتا وكان قد مضى على إبعادي عن العمل بالحكومة ست سنوات .

لقد فتح المنصب الجديد لى آفاقا جديدة كان يمكن عن طريقها أن أقدم مزيدا من الخدمات لبلادي ودينى ولكن ظروفاً لم تكن فى الحسبان قفزت عقبة فى الطريق فقصرت مدتي فى هذا العمل وألزمته بالعودة إلى القاهرة عودة نهائية فى الصيف التالى (١٩٦١) وسنتحدث عن هذه الظروف فيما يلى :

الدبلوماسية والسلك السياسى المصرى :

أدخلتنى الوظيفة الجديدة عالماً عجيباً هو عالم الدبلوماسيين ، ولم يكن هذا العالم غريباً علىّ ، فقد عرفت بعض الدبلوماسيين فى أثناء دراستى بانجلترا وفى أثناء تطوافى بالعالم طالبا وأستاذا . ولكن صلتى بهم كانت محدودة ، فلم أكن أعرف أغوار هذه الحياة حتى وجدتني فى وسط هذا المحيط .

والعمل بوزارة الخارجية والسفر للخارج في وظائف السلك السياسى أمل يتطلع له الكثيرون ، لأنه عمل حافل بالمازيا والامتيازات ، فالمرتبات عالية جداً ، والنفقات محدودة لأن عضو السلك السياسى يحصل على مطالبته بدون جمارك أو ضرائب ، ومن هنا كانت سيارته وملابسه وسجائره رخيصة جداً ، ثم هناك الرحلات والحفلات التى لا تنقطع ، ولذلك ، فلا عجب أن يتهافت الكثيرون على الانضمام إلى هذا السلك الدبلوماسى ، ولا عجب كذلك أن يطمح لهذا العمل أولئك الذين لهم حسب يدفعهم أو نسب يشدهم .

وعلى هذا إذا قسنا هذا العمل بمقياس الربح والأشذ فهو يدل بشئ . . . صاحبه ، ولكن إذا قسناه بمقياس الإعطاء ومدى مايقدم لمصر من عون فررنا من هذا العمل ، لأنه بشكل عام لا إعطاء على الإطلاق ولا عون من طريقه لمصر على الإطلاق ولست أستطيع أن أذكر كل ما أعرفه ، ولست أستطيع أن أسكت ، فقد كنت يوماً ما واحداً من هذه الفرقة ، ولهذا سأذكر لمحات عن هذا العمل لعل فيها بعض الجدوى .

وقد كانت الفترة التى اتصلت فيها بالسلك السياسى فترة خطيرة كثيرة التقلب ، ومن هنا كنا كالريش يلعب به الهواء ، ويستجيب الريش دون أية مقاومة ، فالمفروض أن الدبلوماسى صدى لبلاده يصادق من تصادق ويعادى من تعادى ، ولكن بلادنا آنذاك لم يكن لها خط واضح ، فكنا نصادق السعودية ونتبادل مع الدبلوماسيين السعوديين الزيارات ونتعاون معهم وفجأة يدب خلاف بين نظام الحكم بمصر وبين الحاكمين بالسعودية فنقطع الصلة تماماً مع أصدقاء الأمس بالسفارة السعودية ، فإذا التقت وجهات النظر بين القاهرة والرياض بعد ذلك هرعنا نستعيد الصلات مع الإخوة العرب الذين قاطعناهم رداً من الزمن ، ومايقال عن السعودية يقال عن أى قطر عربى أو إسلامى آخر ، أو يقال عن كل أقطار الأرض وتطبيقاً لهذه القاعدة كان علينا أن نقيم صلات ود مع جماعات لاتربطنا . . .

روابط ذات بال كاليوغسلاف مثلاً بسبب واحد هو أنه كانت هناك صلات طيبة بين عبد الناصر وتيتو ، أما صلاتنا بالسفارات العراقية والسعودية والتركية والباكستانية فكانت باهتة ، ولم تكن تصل بحال من الأحوال إلى صلات الود التي كانت قائمة مع ممثلي يوغسلافيا مع أنه لا توجد أسس مهمة لمثل هذه الصلات .

هذا جانب من حياة الدبلوماسية المصرية ، ولننتقل إلى جانب آخر ، فالمحقق مرتبه وهو بالقاهرة حوالى عشرين جنيهاً ، لكنه إذا سافر لسفارة بالخارج انتقل مرتبه فجأة إلى حوالى مائتين ، واستحق الامتيازات الكثيرة التي أشرنا إليها من قبل ، ويملك السفير بجرة قلم أن يطلب إليه العودة للقاهرة ، والمحقق لهذا يرى في السفير إلهه ، ويحاول إرضاءه بكل الوسائل حتى لا يفقد هذه الامتيازات وهذه المئات من الجنيهات ، وإذا تربى المحقق هذه التربية وهو يمثل الدرجة الأولى في درجات السلم ، سار حياته على هذا المنوال محكوماً وحاكماً ولم يعد للمواهب قيمة على الإطلاق .

وزوجات أعضاء السلك الدبلوماسي المصري يتدخلن في الأمور تدخلا سافراً ، وهن يقدمن الولاء كاملاً لزوجة السفير ، وإلا كان زوج من تتمرد على هذا الولاء عرضة لتقارير قد تسجبه للقاهرة . وفي خلال الفترة التي عشتها بإندونيسيا كانت هناك قوة أخرى تنافس قوة السفير هي مركز المحقق العسكري ، ومن هنا كان هناك معسكران في السفارة ؛ يتعاملان بحذر أو يتنافسان .

ويجيد أعضاء السلك الدبلوماسي الوسائل للكسب والاستيراد ، فما إن يصل الواحد منهم إلى مقر عمله حتى يتساعل عن الوسائل للحصول على سيارة بأيسر طريق ؛ وعن البلاد التي يستورد منها أفضل الأقمشة وأرخصها ؛ والتي يستورد منها الآلات الكهربائية والتحف والكريستال والسجاد ؛ وكيف يستطيع الحصول على سيارتين بدل سيارة ، والذي عنده ابنة في عمر الزهور يسرع فيشتري لها كل جهازها من الخارج والذي يبنى

عمارة أو هيلة بالقاهرة يشتري الأحواض والأقفال والمقابض والبانيوات
وتراه وهو يوشك أن يشتري الأسمنت والحديد •

وكثيرون من أعضاء السلك السياسى يسافرون بدون أسرهم لأن
الأولاد ملتحقون بالمدارس والجامعات فى القاهرة ، ولكن هؤلاء كأنما يحسون
بأنهم وفَّروا لبلادهم أجور السفر ، وهو شىء غير عادى ، وربما عند
ذلك من الغفلة أو السذاجة ، ولذلك ترى هؤلاء يستدعون أسرهم لقضاء
الصيف معهم ، وتتكلف الدولة آلاف الجنيهات من أجل شهر واحد أو
أقل من شهر •

والزوجات غير متعاونات غالباً ، بل يتكوّن منهن جماعتان أو أكثر ،
وحديث كل جماعة يتجه ضد الأخرى ، وفى بعض الأحيان تدور أحاديث
تليفونية حافلة بالسباب والعدوان لأولى الأسباب ، والسيدة التى تعرف
« خياطة » ماهرة لاتخبر الأخريات عنها ، والتى تتعرف على نوع ممتاز من
القماش تخفى مصدره عن زميلاتنا ، وعلى العموم فاهتماماتهن متشعبة
ولكن قلّ جداً من بينها الاهتمامات التى تتجه لخدمه الوطن أو خدمة الدين •

وكان من بين الموظفين الكبار موظف محدود المواهب ، همّه جمع المال
ووضع مرتب على مرتب ليرتفع رقم حسابه من يوم إلى يوم ، ونكت مرة
أجلس معه ، وهو يكتب ما يسميه تقريراً ليرسله إلى القاهرة ، فدخل عليه
رجل يطلب إذن دخول للقاهرة ، فصاح الموظف فيه قائلاً : إنك قطعت جبل
أفكارى تعال غداً لأدرس طلبك ، واضطرت للتدخل ، فقلت لهذا الموظف
بلغة عربية لا يعرفها الضيف : هل لك أفكار ذات بال تخاف عليها أن تنقل ؟
ووضحت له أنه يخدم بلاده بحسن استقبال أمثال هذا الرجل أكثر مما
يخدمها بما يسميه « تقارير » وعلى ذكر التقارير أذكر أن أحد الملاحقين كان
يقتبس خبراً أقرب إلى التفاهة منشوراً على نطاق واسع فى جريدة يومية
ويكتبه بخط يده ويضعه فى ظرف ويحكم قفله ثم يكتب عليه « سرّى جداً »
وهكذا انتقل الخبر الذائع على يد هذا الموظف إلى خبر سرّى للغاية •

هذه لمحات قصيرة وسريعة عن حياة أعضاء السلك الديبلوماسى على العموم وإن كانت هناك قلة قليلة كانت تخاف الله وترعى الوطن بين هذا العطب المتفشى والانحراف المنتشر .

ماذا فعلت عندما انضممت لهذه الطائفة فى أكتوبر سنة ١٩٦٠ ؟

وماذا يمكن أن نقدّم من مقارنات بين السنين الطويلة التى سبقت هذا التاريخ وبين الشهور التى جاءت بعده ؟

الإجابة عن هذا السؤال وذاك خطيرة للغاية ، لقد أمضيت أكثر ، من خمس سنوات فى اندونيسيا قدمت فيها الكثير مما يخدم دينى ووطنى ، فى الجامعات وبين الجماهير وعن طريق الصحافة والإذاعة حتى كان اسمى بدون مبالغة على كل لسان ، وهناك مثال واحد أقدمه محددًا ، ففى مرة دعيت لإلقاء محاضرة فى اجتماع حافل بجوكجاكرتا ، ولكن اليوم المحدد لهذه المحاضرة كان يوم عودة الملحق العسكرى للقاهرة وهو « الأستاذ أحمد لطفى متولى » سفيرنا بعد ذلك فى لبنان . وكان الأستاذ لطفى متولى صديقاً لى ويتابع نشاطى فآثرت أن أكون فى وداعه وأعتذر للقائمين بأمر الحفل ، وقدمت اعتذارى مسيئاً وركبت القطار إلى جاكرتا على بعد حوالى خمسمائة كيلو متر ، وفى العاصمة ذكرت للأستاذ لطفى متولى الأمر فآثر أن أكون معه هذه الأيام القليلة الباقية له بجاكرتا ، وقال لتكن هذه إجازة من عملى المتواصل ، وفى اليوم التالى جاعنى الأستاذ لطفى متولى ومعه وفد كبير جاء من جوكجاكرتا ليرجوه أن يتدخل لأحضر هذا الحفل ، وقال لى سيادته : قم وعُدْ معهم فلا يمكن ردهم خائبين . وعدت مع الوفد إلى جوكجاكرتا لأحضر هذا الاجتماع وأتحدث فيه .

وكثيراً ما كنت وسيط صلح وخير فى المشكلات التى تدب بين موظفى السفارة ، فلما أصبحت تابعاً للسفارة تغير كل شئ :

صدرت لى تعليمات السفير صريحة بأنه لابد من استئذان القاهرة قبلًا مزاوله المحاضرات والأحاديث التى ألقاها ، ولما ذكرت بأن الفرصة تفوت

لو أرسلنا للقاهرة من جاكرتا وانتظرنا الرد ، تلقيت إجابة صريحة بأن هذا هو النظام ولا محيد عنه • وتوقف بذلك نشاطى تماماً •

وفي الصراع الداخلى الذى لم يكن يتوقف ، تحللت هذه الجبهة لاجتذابى وحاولت تلك نفس الهدف ، وأردت أن أقف مستقلاً أو محايداً فسخطت على هذه الجبهة وتلك •

وأُسدت السفارة تفسيراً يقضى بأن المركز الثقافى يتبع المستشار الثقافى بالسفارة ، وقبلت هذا التفسير ، فقد ثاب المستشار الثقافى زميلاً صديقاً ، وثان أسن منى وأقدم تخرجاً ، ولدن سرعان ما عاد فى إجازة ، وانتدبت السفارة شاباً صغيراً حدث الرتبة ليقوم بعمل المستشار الثقافى خلال غيبته ، فأراد هذا أن يمد سُلطانه إلى المركز الثقافى وأوان كثيرة قامت فى داريقى ، وأحسست أننى لم أعد استطيع أن أؤدى واجبى ، ولم أكن حريصاً على المرتب الضخم الذى حُدد لى فى وظيفتى الجديدة ، مادمت لا أؤدى عملاً يناسبه ، فذهبت للقاهرة أدلاب الإذن بالعودة ، ودهش أعضاء السفارة من تصرفى ، فالعهد عندهم أن يتمسك كل شخص بوظيفته هذا المرتب الكبير ، وأن يتحمل من أجله كل شئ ، ولدتى أم استأج ذلك وعدت للقاهرة فى أول يوايو سنة ١٩٦١ •

هل نغبط رجال السلك السياسى أو نشفق عليهم ؟

الإجابة التى أراها واضحة أمامى هى أن نشفق عليهم تماماً . إنها وظيفة الضياع ، ونصيب الأولاد من هذا الضياع كبير ، سواء تشرخوا فى القاهرة أو اصطحبوا ذويهم إلى الخارج ، وليس المال كل شئ ، ودلماً كان المال وبالأعلى جامعيه •

ولكن البلاد لا تستغنى عن السلك السياسى ، وعن التمثيل الدبلوماسى ، ولذلك لا بد من إعداد دقيق لهذه الدابقة حتى تعيش الأولاد ، وتعرف الإيثار ، وتدرك أن الذى يأخذ من عرق الفقير المصرى مئات الجنيهات كل شهر ينبغى أن يقدم لمصر ما يتكافأ مع هذا المرتب الكبير •

سوکارنو وحتّى :

لست أحب أن أصور كل ما أغرقه عن الزعيمين الإندونيسيين الكبيرين : سوکارنو وحتّى ؟ لأننى لا أريد أن أدخل فى نقاش داخلى إندونيسى حتى لا أفسد شعور هذا الشعب المرهف الحس . وفى كلمة مجملة كان سوکارنو زعيماً شعبياً تلفت حوله الجماهير وتهتف له ، وكان أحياناً يرقص معهم ويغنى ، وهو يتحدث لبق وخطيب ماهر ، ولكنه للأسف تعاون مع الشيوعيين وفتح لهم باباً كاد أن يقضى على البلاد ولكن الله سلّم ، وثار عليه الجيش وانتزع السلطة منه ، واختفى الرجل حتى مات وكان حتّى رجل الخاصة ، رجل الفكر والمثل العليا ، عالماً بحائثه ، كاتباً ومحاضراً عميق الفكر والدرس .

وكان هناك الحزب الإسلامى (ماشومى) بقيادة الدكتور محمد ناصر ، وهو مسلم عميق الإسلام يحب الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وهو كاتب طلى العبارة ، له شخصية جذابة ، ولكن صلته وصلة حزبه بالرئيس سوکارنو لم تكن طيبة ، ويمكن أن نقول إنها تشبه صلة الملك فؤاد ، والملك فاروق بحزب الوفد وبالنجاس باشا رئيس هذا الحزب ، والنتيجة واحدة فى الحالتين ، فإن الصراع بمصر بين الملك والوفد قضى على الاثنين فى النهاية كالصراع بين سوکارنو وماشومى ؛ وإن بقى فى نفوس الأشياء والأتباع ذكريات وآلام .

إلى إندونيسيا مرة أخرى :

أمضيت فى إندونيسيا ست سنوات وعُدّت منها سنة ١٩٦١ ، وبعد عشرين عاماً أى فى سنة ١٩٨١ تلقيت دعوة من المملكة العربية السعودية لأشترك فى دورة تدريبية تعقد فى جاكرتا مدة شهر ، وقد فرحت بهذه الدعوة لأنها تعيدنى إلى وطنى الثانى ، وإلى الناس الذين أحببتهم وأحبونى ، وسرعان ما شددت الرحال وذهبت إلى هناك .

كان اسمى لايزال معروفا حتى للجيل الجديد الذى لم يشهدنى معلما ومتحدثا قبل سنة ١٩٦١ ، وكانت كتيبى فى مقارنة الأديان وفى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية يعاد طبعها ويتسع انتشارها ، ولذلك كانت جموع من المسلمين على حلة وثيقة بى ، وبدأت عملى فى هذه الدورة وجددت لى مریدین ليعملوا فى حقل الدعوة الإسلامية •

وقد توالى وفود الزوار الأصدقاء لتحيتى ، وقُدِّمت لى دعوات كثيرة للقاءات غير الدورة التدريبية فاستجبت ببسرور وبشر •

وكان الطلاب الذين تخرجوا على يدي إيان وجودى فى اندونيسيا من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦١ قد وصلوا إلى مناصب رفيعة بالبلاد ، وأصبح بعضهم قادة وعمداء ومن كبار الموظفين ، وقد أقاموا لى أروع حفل شهدته ونعمت به فى حياتى ، وكان الحفل عبارة عن عشاء فى بيت واحد منهم ، وقد حضره عدد كبير من طلابى السابقين ، ومعهم أبناءهم الذين أديبت أعمارهم فى مثل أعمار الدلائب حينما كنت هناك فى الخمسينات ، وإذا كان الولد امتدادا لأبيه وأمه فقد استطعت أن أنسب أنثر الجيل الجديد لطلابى وطلباتى السابقين ، وامتد الحفل الى منتصف الليل ، وكان حافلا بالبهجة والسرور والمتعة ، وتخيلت نفسى رجلا زرع زرا فى أرض خصبة واهتم بمزرعته كل الاهتمام فأنت أكلها ، ولهذا نعمت بهذا الجمع وهذا الحفل كما لم أنعم من قبل •

نحن والشرق الأقصى :

هناك فى الشرق الأقصى ملايين المسلمين يعيشون فى إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وتايلاند وبورما والفلبين •••••

وقد حمل أجدادنا الإسلام لهذه المناطق فى أول الأمر ، ثم ظهر من بين السكان الأصليين من حمل عبء نشر الإسلام وخدمته حتى أصبح المسلمون يكوّنون أغلبية بين السكان فى بعض البلاد ، كما أصبحوا أقلية بحسب

حسابها في بلاد أخرى ، أو أقلية تصارع لتحافظ على نفسها ، وأحياناً صاروا على قدم المساواة مع غير المسلمين من حيث العدد والنفوذ .

والمسلمون على العموم في هذه المناطق لا يزالون في حاجة ماسة لمزيد من التعرف على الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ويوجد هناك مسلمون بالاسم ويترجى أن يقدم لهم الإسلام بمبادئه وتشريعاته وأخلاقه ، ليتعمق هذا الدين في نفوسهم ونفوس أبنائهم ، والعجيب أنهم جميعاً يتطلعون لمصر في هذا المضمار ، يتطلعون لمصر كمركز قيادة فكرى للمسلمين جميعاً ، وإذا سألتهم عن تاريخهم الإسلامى تبين لك أنهم لا يعرفونه غالباً ، ويرقبون أن يكتبه لهم المؤرخون المصريون .

وأحب أن أعترف أن مصر — كغيرها من الدول المسئولة — لا تؤدي دورها في هذا المضمار كما ينبغي ، فالمبعوثون المصريون لتدريس الإسلام والحضارة الإسلامية قلة قليلة تختفى في هذا المحيط الصاخب ، وأكثرهم يقدّمون الدراسات العادية عن الإسلام كالفقه والتفسير والحديث ، ولا يعرفون الدراسات التى يتطلبها العصر الحديث كراى الإسلام في السياسة ، واتجاهاته الاقتصادية وتعليماته في الميدان الاجتماعى أو الأخلاقى والتربوى والعسكرى ، وتلك هى الفروع التى تشملها الحضارة الإسلامية والتى تعدّ منحة الإسلام لهداية البشرية .

وأكثر هؤلاء المبعوثين أو كلهم لا يعرفون مقارنة الأديان وهو العلم الذى يعد سلاح الداعية ، وبدونه لا يستطيع أن يشق طريقه بنجاح .

وفي كلمة موجزة ينبغى أن نوضح أن هناك فرقاً كبيراً بين الدعاة وبين المدرسين ، وأن هذه البلاد تحتاج لدعاة أكثر مما تحتاج لمدرسين ، فالمدرسون يبدأ عملهم بعد نجاح الدعاة ، فإذا قدم الداعية الإسلام للضال واستطاع أن يجذبه لحوزة الإسلام ، بدأ بعد ذلك عمل المدرسين ليعلموا هذا المسلم كيف يصلى وكيف يصوم وكيف يؤدي مبادئ الإسلام ويلتزم بتوجيهاته ، أما الداعية فيعرف علوم المدرس معرفة تامة من فقه وتفسير وحديث وغيرها

من العلوم الإسلامية ، ولكن ينبغي أن يضيف لها علوم الدعوة ، وهى
بالإجمال :

— إجادة لغة من اللغات العالمية على الأقل ، ثم معرفة لغة القوم
الذين سيقدم لهم الإسلام ويدعوهم إليه ، ويمكن أن تكون معرفة الداعى
بهذه اللغة معرفة محدودة ، لأن حياة الداعية بين القوم ستجعله يطور
معرفته بهذه اللغة بسرعة .

— هناك صفات شخصية يتحتم أن تكون بارزة فى الداعية وفى قمتها
الإيمان العميق بالعمل الذى يزاوله ، وإحساس أنه يريد أن يعدى من فخره
وجهد لخدمة دينه ووطنه ، ثم وضوح الفكرة ، والاتقة اللسان ، وإجادة
الحوار والمناظرة ، ثم سماحة النفس ، واتساع الأفق ، وحسن العشرة ،
ثم الكرم ، وسمو الخلق ، والتطور الفكرى . وسعة الإدراك . وقبل هذا
وبعده أن يكون قدوة حسنة للناس . وأن يجعل الآية الكريمة « ادع إلى
سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » نبراساً له ونسواً يهتدى بهديه .

— الدراسة العميقة لعلم مقارنة الأديان . ودراسة مقارنة الأديان
ستضع أيدينا على جمال الإسلام وعان الدور الذى يحمله اينمل به
محاولات الأديان لهداية البشر ، وسيستفيد الداعية من « مقارنة الأديان »
فى مواجهة المبشرين بالمسيحية أو البوذية ، فهؤلاء يعرفون الإسلام
ويتلمسون ما يعتقدونه نقاط ضعف فيه ليهاجموه عن طريقها كتعدد الزوجات
والطلاق وانتشار الإسلام بالقوة ، ولا يجوز أن يقف الداعية موقف المدافع
فقط بل يجب أن يعرف كيف يهاجم أحياناً ، ولن يكون ذلك إلا إذا تعرف
على هذه الأديان ودرسها .

— الدراسة العميقة للحضارة الإسلامية بنوعيتها ، أى دراسة الحضارة
التجريبية . وهى إبراز دور الإسلام فى العلوم التى كانت موجودة قبل
الإسلام كترقية العمران وتلووير ما عرفه الناس فى جوانب الفكر البشرى
من طب ورياضة وفلك وموسيقى وغيرها ، ثم دراسة الحضارة الإسلامية

الأصيلة التي جاء بها الإسلام ولم تكن معروفة قبل الإسلام كاتجاهات الإسلام في السياسة والاقتصاد ، وفي المجال التربوي والاجتماعي والعسكري ، تلك الجوانب الحضارية التي تُعَدُّ منحة الإسلام لهداية البشرية .

— التعرف التام على تاريخ المسلمين منذ مطلع الإسلام حتى الآن في كل البلاد الإسلامية مع تصحيح ما ازدحم به التاريخ الإسلامي من أخطاء ، وقد جاء الخطأ للتاريخ من مصادر متعددة لعل أهمها أن تاريخ بعض الدول كتب في عهد أعدائها كتاريخ الدولة الأموية الذي كتب في عهد الدول العباسية ، وكذلك كُتِبَ تاريخ بعض الملوك والعظماء في عهد قاتليهم أو منافسيهم كتاريخ الحاكم بأمر الله الذي قتلته ست الملك أخته بعد صراع طويل بين الاثنين ، وكتاريخ الخديوي إسماعيل الذي كتبه الإنجليز أو من سار في فلكهم ، وكتاريخ سني على الكبير لإمبراطور صنغى العظيم الذي كُتِبَ في عهد أسكيا محمد الذي انتزع لنفسه السلطة بعد وفاة الإمبراطور ، والأمثلة كثيرة جدا على هذا النحو ، وقد صور هؤلاء الخلفاء سيرة السلف في أسوأ صورة ، فأزالوا حسناتهم ، وبالغوا في إبراز مساوئهم ، ونسبوا لهم الكثير مما هم منه أبرياء ، وقد حاولت في موسوعة التاريخ الإسلامي أن أصحح هذه الأوضاع وأحق الحق قدر الطاقة .

ومن أسباب شيوع الخطأ في التاريخ الإسلامي أن المستشرقين هم الذين كتبوه في مطلع النهضة الحالية ، فجاء أكثر ما كتبوه حافلا بالظلم بعيداً عن الإنصاف ، وللأسف كان المستشرقون هم أساتذة الجيل الجديد من المسلمين فتأثر بعض التلاميذ بأساتذتهم ، وبخاصة أولئك الذين لم يكن لهم باع طويل في الدراسات الإسلامية عندما أوفدوا إلى الغرب ليلتحقوا بجامعاته ، وكثيرا ما تقرأ مسلمين فتحسن أنهم صدى لمستشرقين ، لعمق آثار هؤلاء في نفوسهم .

ذلك — بإيجاز — هو الزاد الذي يتحتم أن يترود به الدعاة ، ولو كنا في عهد استعمار لقلنا إن الاستعمار هو الذي يحول دون إنشاء معهد

أو معاهد للدعاة ، ولكن ماذا نقول الآن ولدينا عدد يفوق الحصر من الكليات والمعاهد العليا ، عدد يجعل من الصعب أن تحيط بأسمائها أو تعرف مدلولاتها ، ولكن ليس هناك معهد واحد للدعاة ، ومثل هذا المعهد سيقدم للدين الكثير ، ويقدم ألوانا من العون والتأييد (١) .

وفي ختام حديثنا عن الشرق الأقصى أرى من الخير أن أورد من الواقع حدثاً عشته يوما من الأيام في صيف سنة ١٩٦٠ لعله يبرز للمسؤولين مسئوليتهم أمام الله وأمام التاريخ .

كنت في طريقى من إندونيسيا للقاهرة ، وتوقفت الطائرة في بانكوك عاصمة تايلاند لنزول بعض الركاب وصعود آخرين وللتزود بما تحتاجه الطائرة ، وبعد فترة أعلن أن هناك عطبا خفيفا يستدعى « قطعة غيار » من الخارج وأن الركاب لذلك سيمضون ليلتهم في تايلاند ، ومن عادة شركات الطيران أن تتبارى في إكرام الركاب في مثل هذه الحالة ، فسرعان ما أخذنا إلى فندق عظيم ، ثم أعددت السيارات الفاخرة لتقوم برحلات في العاصمة وفيما حولها لنشاهد الأماكن الأثرية بالبلاد ، ولنتعرف على معالم الحياة في هذه المدينة ، ووزعت علينا كتيبات تبرز أهم هذه المعالم ، وكان من بينها مسجد ، وكان اليوم يوم الجمعة ، وكنا قبيل منتصف النهار أى حوالى وقت الصلاة فطلبت من رائد الرحلة أن يأخذنى إلى المسجد ، فقد رأيته فرصة لأرى المسلمين عدداً وفكراً ، وبعد قليل كنت في المسجد ، ولم يكن المسجد مزدحماً بالمصلين وخطوت في المسجد ، وبدأت أصلى ركعتين تحية المسجد ، وقد لاحظت أن بعض العيون بدأت ترمقنى ، بل رأيت غمزات وإشارات خفيفة أخذت تتجه لى ، فإن ملامح وجهى كانت تنبئ عن أننى غريب ، بل كانت تشير إلى أننى عربى ، فليست فى شقرة الغرب ولا سمرة الإفريقى ، ولم يبق إلا أن أكون عربياً ، والعربى بالنسبة لأهل الشرق الأقصى رجل جاء من أرض النبى ، وينتسب له بالعدم والعنصر والجنس واللغة .

(١) أنشئت بعض معاهد الدعوة بعد ذلك ، وأرجو أن يكون لهذا الكلام نصيب فى انشائها .

وخطا نحوى شخصان واندفعا يسألان بإنجليزية ضعيفة ، وعربية
ركيكة عن حالى ، فذكرت لهما أننى مسلم عربى مصرى ، وأستطيع أن
أتحدث بالإنجليزية أو الاندونيسية أو العربية وتزايد عدد المحيطين بنا
ويدأ حديث بيننا ، وأخبرتهم عن اسمى وعملى باندونيسيا ، ولم يكن
اسمى غريباً عليهم فبعضهم سمعنى بالإذاعة أو سمع عنى من طلاب تايلاند
المسلمين الذين يتعلمون باندونيسيا ، وقفز سؤال مهم هو :

ألا تحب أن تخطب لنا الجمعة ؟

وبدون تفكير أجبت : نعم أحب ذلك •

وكانت هذه الإجابة تشبه تيار كهرباء انطلق فى الأسلاك ، فقد أصبح
هذا حديث كل الناس بالمسجد فى لحظة قصيرة ، وهنا تقدم شيخ من علماء
البلاد وقال إن خطبة الجمعة من الدكتور شلبى شىء يحتاج إلى تنظيم
لا بد من الأخذ به فوراً ، وأعلن أنه يقترح تأجيل الخطبة والصلاة ساعة
لنتخذ الأهبة لذلك ، وقبل الجميع هذا الاقتراح •

وبسرعة كانت هناك سيارة تحمل مكبر صوت ينطلق فى الشوارع تعلن
عن وجودى بالمسجد وأننى سألقى خطبة الجمعة وأؤم المصلين وأتحدث
للمسلمين ، وفى نفس الوقت اتخذت الاستعدادات لإحضار مكبر صوت
بالمسجد وخارجه وإعداد مترجم يعرف اللغة العربية يقف أدنى المنبر
وأمامه « سماعه » وهناك سماعه أخرى أمامى فوق المنبر ، واتفقت مع
المترجم على أننى سألقى خطبتى ، فقرة فقرة ، وأتوقف عقب كل فقرة
ليترجمها ، ثم أستأنف كلامى •

وانهال الناس إلى المسجد حتى ضاق بهم ، فبسطوا البسط خارجه ،
وحضر كثيرون من غير المسلمين ليروا هذا التجمع الهائل ، وأشرف البوليس
بكل أدب وذوق على النظام •

ولم أجعلها خطبة جمعة على النحو المألوف ، بل انتهرتها فرصة لألقى محاضرة طويلة في مقارنة الأديان وماذا حقق الإسلام للبشرية من خير ، وذكرت فضل القرآن الكريم في تطهير تاريخ الأنبياء السابقين ، وكان تاريخ هؤلاء الأنبياء مشوهاً تماماً في الكتب المقدسة التي سبقت الإسلام بسبب تحريف هذه الكتب ، وتحدثت عن الحضارة الإسلامية بجانبها التجريبي والأصيل ، ورأيت دموع الناس تذرف وروحانيتهم تبرز ، وبعد الصلاة انطلقت أصوات تترجمت لى بأنك لو بقيت هنا فإننا ننشر بك الإسلام بسرعة ، بل وأقسم بالله على ذلك — لقد سمعت واحداً من غير المسلمين يقول :

ابق معنا ونحن جميعاً ندخل الإسلام • وأجبت إجابة حزينة مريرة ولكنها كلمة حق ، قلت : إننى للأسف لا أضع الخطط ولكنى أنفذها ولست أستطيع أن أبقي ، فكل شيء مرسوم لى ولا بد أن أسير طبقاً لما هو مرسوم ، ووعدت أن أنقل رغباتهم لن يضع الخطط ، فاشعت في نفوسهم الأمل ، وقد فعلت ، ولازلت أفعل ، ولكن الاستجابة كانت محدودة أو كانت غير موجودة ، وأرجو أن يتحقق في المستقبل ما عجزنا عن تحقيقه في الماضي •

وأرجو أن أقبر أن مال الكويت والمملكة العربية السعودية وغيرهما من دول البترول ينبغي أن يلعب دوراً في هذا الشأن • ولو تعاون مال الأغنياء مع فكر المفكرين وإخلاص المخلصين لكانت النتيجة خير الجميع ورغاية الجميع •

وقبل أن ندع الشرق الأقصى وتطلعاته للإسلام نورد فيما يلي ما نشرته صحيفة أخبار اليوم في العاشر من فبراير سنة ١٩٧٣ عن رغبة أهل كوريا في التعرف على الإسلام ، وفيما يلي هذا النص لعل فيه تذكرة لمن شاء أن يتذكر •

مستول كورى يشرح

لماذا لم ينتشر الإسلام فى كوريا

المسلم السذى يزور جمهورية كوريا الجنوبية يلاحظ مدى اهتمام حكومتها بتشجيع الأديان • فليس هناك أى قيد على أى مواطن لإعتناق الدين الذى يؤمن به ، والمذهب الذى يتبعه •

وهناك نشاط كاثوليكي كبير •• هناك ٣٥٠ كنيسة •• وهناك مدارس ومستشفيات وملاعب رياضية وجامعات مسيحية فى كوريا الجنوبية التى يدين معظم سكانها بالبوذية •

أما النشاط الإسلامى فقد اقتصر حتى الآن على أربعة آلاف من المواطنين فقط •

والفرصة سانحة لنشر الإسلام فى كوريا الجنوبية لأسباب كثيرة ، منها ان الرئيس الحالى بارك سنج هى ينادى بحرية الأديان • وعلى من يهمهم نشر الإسلام فى كوريا أن يتحركوا بسرعة فى عهد بارك سنج هى ، فربما يأتى بعده رئيس جديد للجمهورية الكورية ، تكون له اتجاهات دينية أخرى ، فتضيع الفرصة على المسلمين •

والكوريون يؤمنون منذ القدم (بهنانيم) وهى كلمة معناها الاله الواحد الذى لا شريك له ، وهذا أقرب ما يكون إلى الإسلام ، لذلك لن يجد المبشر بالدين الإسلامى صعوبة فى مهمته بين الكوريين •

والكورى الجنوبى لا يؤمن بالالحاد ، ولا يؤمن بالشيوعية ، ولا يؤمن بالمسادة البهتة • أن الكوريين يؤمنون بالروح وبالعقل وبالدين الصحيح •• والإسلام يملأ العقل بمبادئه ويسير مع الفكر والزمان والتطور •

وتسأل المسلمين في كوريا الجنوبية عن أسباب عدم انتشار الإسلام في دولة فتحت قلبها لكل الأديان فتسمع من يقول :

مطلوب إمكانيات مادية كاهية ، نريد مسجداً كبيراً في العاصمة سيول .
الأرض غالية الثمن ، ولكن هذه المشكلة حلها الرئيسى بارك سنج هى ،
عندما أهدى المسلمين قطعة الأرض ، وحتى الآن لم تتجمع الأموال لبناء
الجامع الكبير .

والمنح الدراسية التى تصل كوريا من الدول الإسلامية قليلة جداً
ويكفى أن تعرف أن عدد الكوريين الذين أرسلوا إلى الدول الإسلامية في
منح مقدمة من تلك الدول لا تزيد على ٢٩ طالباً خلال الـ ١٠ سنوات
الأخيرة .

الخطر على الأقليات الإسلامية بالشرق الأقصى :

يُثبت التاريخ بما لا يدع مجالاً للشك أن غير المسلمين عاشوا ويعيشون
في رحاب الإسلام في أمن وسلام ، وكانوا في كثير من الأحيان ينعمون
بالغنى والترف أكثر من المسلمين ، ولكن الأقلية المسلمة لا تنال الأمن مع
الأكثرية غير المسلمة ، وهذا ما يتضح لو تذكرنا مسلمى الأندلس والمسلمين
في الهند وفي إسرائيل . ومسلمو الفلبين مثل صارخ في العهد الحاضر ،
وهذا يحتم علينا الجسد لنشر الإسلام في هذه المناطق لأن القوى المضادة
لا تكتفى بالتبشير بأديانها بل تسلك سبل الاضطهاد والعنف للقضاء على
المسلمين والنيل منهم . ويتحتم على المسلمين كذلك أن يتعاونوا ويردثوا
هذا العدوان .

وأرفع القلم تاركاً الحديث لشاهد عيان مسئول هو الدكتور محمود
حسن العروسى وكيل وزارة الخارجية المصرية ، وفيما يلى نص النقاش
الذى دار بينه وبين مندوب صحيفة الأهرام (الأستاذ شوقي مصطفى)

ونشرته هذه الجريدة في ١٩٧٢/٧/٢١ • ويتضح مما ورد في هذا النقاش من حقائق ، التزام المسلمين جميعاً برعاية هؤلاء المضطهدين ، والتزامهم بالعمل حتى لا يتسع نطاق هذا الاضطهاد فيمتد إلى مناطق أخرى ، وهاك هذا النص ، يقول الأستاذ شوقي :

أزمة الأقلية المسلمة في الفلبين ارتبطت في أذهان الكثيرين على أنها مشكلة اضطهاد ديني يتعرض له أربعة ملايين من المسلمين يسكنون الجنوب ويتمركزون في مجموعة جزر ميندانا • وهذا الاضطهاد الديني من أهم الأشياء التي أثارت قلق كثير من الدول العربية حول مصير تلك الأقلية ، وذلك بعد أن اتخذت الأزمة صورة مسلحة ، وسقط الكثير من الضحايا • ولذا قبلت مصر وليبيا عرض الرئيس الفلبيني ماركوس لإرسال بعثة مشتركة تتقصى الحقائق وترفع مقترحاتها لحل المشكلة • وقد أعدت البعثة التي رأسها الدكتور محمود حسن العروسي وكيل وزارة الخارجية المصرية تقريرها بعد عودتها في الأسبوع الماضي من الفلبين ، لعرضه على الرئيسين السادات والقذافي •

وقد قابلت الدكتور العروسي وبدأت حديثي معه بسؤال حول أزمة الأقلية المسلمة بالفلبين وهل لها جذور أخرى بجانب الجذور الدينية ؟

فأجاب سيادته : أساس هذه المشكلة أن منطقة ميندانا التي يسكنها المسلمون كانت منطقة مهمة اقتصادياً واجتماعياً ، بمعنى أن مشاريع الحكومة الفلبينية لتطويرها اقتصادياً كانت محدودة كما أن الخدمات الاجتماعية والتعليمية كانت قليلة ، فخريجو الجامعات من المسلمين قلة قليلة ، لأن مصاريف الجامعات باهظة ولا يستطيع أن يوفرها سوى الأغنياء من المسلمين وهم قلة ، أما الأحوال الصحية فهي سيئة للغاية ، وقد اعترف الرئيس ماركوس نفسه بأن ٦٠ في المائة من سكان هذه المنطقة لم يَرَوْا طبيباً في حياتهم •

وسألت سيادته : ولكن لماذا اتخذت المشكلة هذه الصورة العنيفة

حتى إننا نرى عصابات الكاثوليك المتطرفين تقابلها عصابات من المسلمين تحارب بعضها البعض وتشيع جواً مفرعاً بين السكان ؟

فأجاب : إن السبب المباشر لذلك — إذا تركنا مسألة التعصب الديني جانباً — هو مشكلة الأرض ، فلأرض في تلك المناطق غنية وخصبة وأمطارها وفيرة ، وأهم منتجاتها الأرز والموز والمانجو وجوز الهند والأناناس ، ويقال إن بها بعض المعادن التي لم تستغل بعد ، وليسوء الحظ فإن نظام ملكية الأراضي في تلك المناطق أحدث اضطراباً كبيراً ، ففي الماضي كان السلطان يمتلك الأرض وما عليها ، ومع تفتيت الملكية واختفاء الأقطاع تدريجياً ، كان الكاثوليك يقومون بتسجيل الأراضي لدى الحكومة ، أما المسلمون بسبب الجهل والتواكل فلم يهتموا بتسجيلها على أساس أنهم يعيشون عليها منذ مئات السنين . ومنذ عام ١٩٧٠ بذل بعض الملاك من الكاثوليك مجهودات كبيرة للاستيلاء على الأراضي بمساعدة عصابة إرهابية تسمى « إيلاجاس » أو « الفئران » وظلت تطرد المسلمين من أراضيهم بالإرهاب وحرقت المساجد ، وقد حرق حتى الآن حوالي مائة مسجد ورأينا بأنفسنا بعض المسلمين الذين قطعت آذانهم اليمنى وأصابهم وخاصة بين الصغار إمعاناً في الإرهاب ، وهكذا كانت مشكلة الأرض ومشكلة التعصب الديني تؤامين متلازمين بالفلبين .

ومن ناحية أخرى فإن الزعامات الإسلامية في تلك المناطق ليست متحدة ، فبعضها يؤيد الحزب الوطني الذي يرأسه ماركوس ، وبعضها يؤيد الحزب الجمهوري المعارض ، وقد أدعى ذلك إلى إضعاف وحدة المسلمين وعدم وقوفهم في جبهة واحدة للمطالبة بإصلاح أحوالهم .

وعدت أسأله : ألا ترى أن حرق المساجد وقطع الآذان والأصابع يعتبر مؤشراً عنيفاً للاضطهاد الديني ؟ وما رأيك فيما يقال من أن هناك عملية إبادة للمسلمين ؟

فأجاب : إن المعلومات المتوفرة لدى الحكومة تشير إلى أن هناك عناصر

تسللت إلى المنظمات الكاثوليكية المتطرفة مثل منظمة « إيلاجاس » بقصد إحداث الذعر بين المسلمين وطردهم من أراضيهم حتى تضطر الحكومة إلى إرسال قوات إضافية لحماية السكان ، الأمر الذي يترتب عليه خلو منطقة لوزون التي تقع فيها العاصمة مانيلا من قوات الأمن ، الأمر الذي يسهل معه بدوره استيلاء هذه العناصر على السلطة ، وقد اعترف الرئيس ماركوس بأن المنطقة المسلمة متخلفة ولكنه رفض فكرة الاضطهاد ، وفي رأيه وحسب مشاهداتي ليس هناك إبادة للمسلمين ، ولكن هناك ذعر وخوف بين المسلمين لأن عدد المسلمين اللاجئين الذين اغتصبت منهم أراضيهم أخذ في الازدياد ، وثمة شعور من الخوف بالنسبة للمستقبل ، وإذا لم توقف الحكومة عصاة إيلاجاس — وهذا ما وعدتنا به الرئيس ماركوس — وإذا لم تختلف الفروق الاجتماعية ، فسوف ينقلب الوضع الحالي إلى حرب دينية ، وربما كان حرق المساجد وقطع الأصابع والأذان هو بقصد التخويف ، هذا في الوقت الذي يثبت فيه إن كنيسة واحدة قد أحرقت من جانب منظمتي « البراكودا » و « القمصان السوداء » المسلمين ، وقد نشأت هاتان المنظمتان كإجراء مضاد لمنظمة « إيلاجاس » وقد قتل أفرادها بعض الكاثوليك المتطرفين أخذاً بالنار فقد قتل أكثر من ألف مسلم .

— هل تعتقد أن الإجراءات التي تتخذها حكومة الفلبين حالياً تعتبر كافية لوقف هذه الأعمال واستتباب الأمن هناك ؟

.. لا أعتقد أن الحكومة الفلبينية فعلت ما يكفي وهي تقع عليها مسؤولية حماية أرواح المواطنين ، وطالما كانت هناك أرواح تقتل وأموال تسلب فهناك مسؤولية على الحكومة ، وقد تحدثت مع وزير الحربية وقلت له إن عدم كفاية إجراءات الأمن قد يرجع إلى أن بعض جزر المسلمين نائية ، ولكنه أجاب إننا نتحكم تماماً في جميع أنحاء البلاد ، وفي رأيه أن الحكومة يجب أن تسعى كحل للأزمة إلى إقرار للنظام وخمالية الأرواح والضرب بيد من حديد على منظمة « إيلاجاس » وإقرار الأمن في تلك المناطق سيسمح بعودة الأهالي المسلمين إلى أراضيهم التي هجروها خوفاً

والتي اغتصبت اغتصاباً • وعلى المدى البعيد يتعين بذل مجهودات منظمة لرفع مستوى المعيشة في تلك المناطق المتخلفة فقد هالنا ما رأيناه من فقر وجهل ومرض بين المسلمين هناك •

— كيف تستطيع الدول العربية أن تساعد المسلمين في الفلبين ؟

• • للأسف ليست هناك أية سفارة عربية سوى سفارة مصر • والمبعوثون الدينيون هم من الأزهر فقط ، وفي الواقع يجب زيادة عدد المبعوثين من الأزهر ، وإعطاء مزيد من المنح الدراسية للمسلمين في الفلبين للدراسة في القاهرة والعواصم العربية ليس فقط في الشؤون الدينية ، ولكن في مجالات الزراعة والهندسة للاستفادة بهؤلاء في المشاريع الزراعية المختلفة ، مثل إقامة السدود والقنوات وتنظيم شئون الري • وقد ذكر لي أحد المحافظين المسلمين هناك أنهم لا يريدون طعاماً بل أجهزة ومعدات زراعية لتطوير أراضيهم ، ومن الضروري إقامة اتصال دائم مع حكومة الفلبين لمتابعة ما وعدنا به الرئيس ماركوس من أنه سيبدل مجهودات كثيفة لإصلاح الأمور في تلك المناطق البائسة •



تقارير من إندونيسيا عنى :

ولنعد إلى إندونيسيا أكبر دولة إسلامية بالشرق الأقصى أو بالعالم الإسلامي كله ، والتي تشمل عدة جامعات إسلامية يفد لها الطلاب من جميع ربوع المنطقة • أعود لها لأقرر أنها كانت — كما قلت من قبل — كريمة معي ، معترفة بالجميل ، ومن الوفاء لها أن أسجل هنا تلك التقارير الرقيقة التي أرسلت لأولياء الأمور بمصر عن جهودى هناك ، أسجلها هنا لتبقى لا دليلاً على عملى ، بل دليلاً على الخلق الطيب الذى يمتاز به هذا الشعب الكريم الذى لا يضيع عنده معروف •

R. H. MUCH ILJAS
MENTERI AGAMA R.I.
DJAKARTA

DJAKARTA. _____

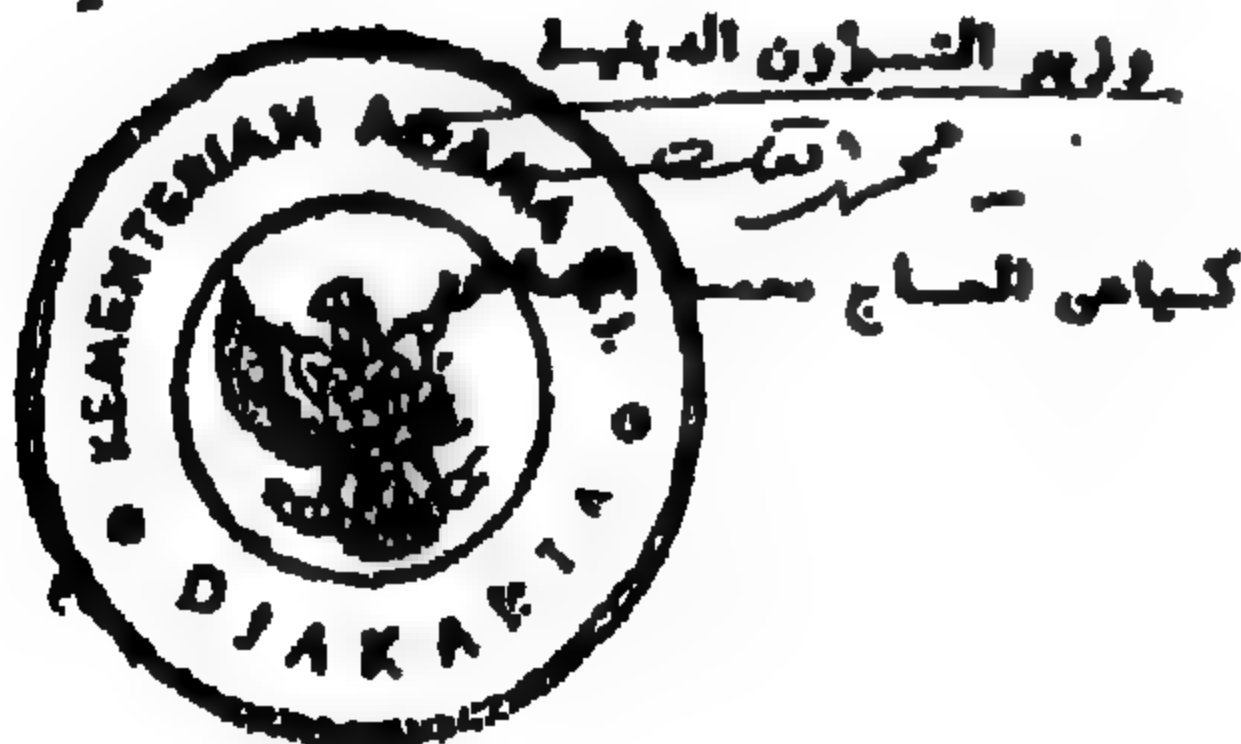
(شمسكرو وتقدير)

ييسرني في اللحظة التي أودع فيها بسعادة الأخ الكريم الدكتور أحمد شلهي
أستاذ الدراسات الإسلامية واللغة العربية بالكلية الإسلامية بجمكجا كرتا
والمتقرب من جامعة القاهيرة للتدريس في الجامعات الإسلامية باندونيسيا
أن أقدم شكرى وتقديرى على الجهود الطيبة التي بذلها سعادته في العمل
الثقافى والعلمى طيلة الثلاث السنوات التي قضاه في اندونيسيا، والتي كان فيها
مثال النشاط والعمل المجدى .

إننى إذ أذكر له ذلك مع مزيد الفخر والاحجاب، أتتسى له أطوار السير
تأدية مهمته، كما أسأله تعالى أن يجعل الفوز حليفه، وأن يحل به بعونه وتوفيقه

co وى القمرة ١٤٧٧

جاكارتا ١٣ يونيو ١٩٥٨





MENTERI AGAMA RI
JAKARTA

في خلال هذا الاسبوع يعاد الاستاذ الدكتور احمد شلبي اندونيسيا
عائدا الى الجمهورية العربية المتحدة بعد ان اتم بنجاح رابع ست سنوات
اسادا للتاريخ الاسلامي والحفارة الاسلامية بالجامعة الاسلامية الحكومية
اننا نستعرض الجهود الكبيرة التي بذلها الدكتور شلبي لخدمة الاسلام
والسلايين في بلادنا فنجد من الحق ما لنا ان نشكره شاكرا عظيما على هذه الجهود
وان نشكر عقيدتنا الجمهورية العربية المتحدة على تدبيره للعمل بتعاماتنا ولانزال
نأمل مزيدا من الوقت من الدكتور شلبي يواصل فيه جهوده ويستمر في خدماته
وهذا التقرير الموجز انما هو اعتراف بالجهد الكبير للسيد الدكتور على محاضراته
الخاصة والامامة للطلاب والباحثين في جميع ربوع اندونيسيا موكية لك على تميزه
التي تشرها لخدمة الثقافة في اندونيسيا
والله المستل ان يجزيه خير جزاء

ساكرتا في ٢٧ يونيو سنة ١٩٦١



وزير الشؤون الدينية

الشيخ محمد باقر

تقرير

الاستاذ الدكتور محمد علي عبد المنعم استاذ التاريخ الاسلامي
والعقيدة الاسلامية بالجامعة الاسلامية الحكومية هذه سنة ١٣٦١ هـ
من اول مارس سنة ١٣٥٥ الى آخر ابريل سنة ١٣٦١ هـ وبالاعتماد على
التاريخ الاسلامي والعقيدة الاسلامية فقد ساعد الدكتور علي في تدوين
هذه المواد من اممها اللغة العربية وادابها وعقائدها والاديان وتاريخ
التصحيح الاسلامي وغيرها .

وقد شارك الدكتور علي في تنظيم الجامعة والتدريس بها
وهيئة التدريس بها . وكان في ذلك مرجعا هاما لكثير من الموضوعات والبيانات
وفي خلال هذه السنوات طاب الدكتور علي باهم مزر التدريس في
الجامعات والمعاهد والهيئات والتي عدوا كثيرا من المحاضرات التي كانت
منار اهتمام الجماهير والمحافظة والادارة

وقد نشر الدكتور علي عددا كبيرا من الكتب اعيد طبع بعضها
عدة مرات . وبالنسبة لموضوعات كجيرة الاجمعية في اوقات التعمير
وكتب العقيدة الاسلامية بالاندونيسيا الى الان . ومن هذه الكتب المجموعة
الرواية التي فيها لتدريس تعليم الكافة العربية في هذه الطرق .

ثم هناك الكتب المتقدمة التي نشرها في هذه الفترات الاسلامية والتي
الجل عليها . الجليل بكتاب اهتمام

وكانت سلسلة الدكتور علي بتلاميذه وزملائه مستمرة للنسابة في
تلك حسب الجميع ونسب الجميع .

واعلمنا ان الجامعة الاسلامية والنسب الاندونيسي لا يزال
في حاجة لمزيد من جهود الدكتور علي . ومن اجل هذا التوجه
الجامعة على الوزارة تجديد هذه الفاتحة الوزارة واصدقت قرارها بذلك في
ولم نأمل ان يكون من الممكن مواصلة الجهات المسئولة بالجمهورية
العربية المتحدة على هذا التجديد في خدمة الاسلام والمسلمين في اندونيسيا .

ولنستلم هذا التقرير بذكر الجمهورية العربية المتحدة صوما
والمواضع الاسلامي ووزارة التوجيه والتعليم خاصة على الفصل
الذي اسدى لجلادنا في يد الدكتور علي للفصل هذه الفاتحة كما نذكر
بمزيد التفات والتقدير ذلك المكون الكبير الذي حصلنا عليه من الدكتور
علي داعين الله ان يحسن جزاه على ما قدم من خير .

والله المستعان .

كلمة الادب
رئيس اللجنة
مستشاري هيئة التدريس



•

في إدارة الوافدين والمبعوثين

عدت من إندونيسيا إلى أروقة وزارة التربية والتعليم المركزية كما كانت تسمى آنذاك (يوليو سنة ١٩٦١) ولم يكن لى ماضٍ فى العمل بالوزارات ولذلك أحسست أننى غريب فى هذه الوزارة على الرغم من أنها ترعى العلم وتنشر المعرفة ، ذلك لأن مجالى بها يوم عدت لم يكن فى قاعات المحاضرات أو دور العلم ، إنما كان فى المكاتب والشئون الإدارية ، ولكن لم يكن من ذلك بدءٌ على كل حال ، بيد أن وكيل الوزارة أدرك صلتى بالخارج طالباً وأستاذاً فعرض علىّ وظيفة « مدير مساعد » بإدارة الوافدين والمبعوثين فقبلت ، وكان مدير هذه الإدارة من الضباط الذين يباشرون ألواناً من النشاط فلم يكن وجوده بالإدارة منتظماً ، ولذلك ألقى علىّ « أكثر العبء »

والحقيقة أن الفترة التى أمضيتها بهذه الإدارة كانت — على قصرها — مفيدة جداً وتجربة جديدة علمتني من شئون الإدارة ما لم أكن أعلم ، مما سأقص هنا طرفاً منه .

اتخذتُ فى أول صلتى بهذا العمل خُلُق الجامعة ، ففتحت بابى لكل من أراد لقائى ، واتصلت بالوافدين اتصالاً مباشراً ، وظننت أننى بذلك فتحت فتحاً مبيناً لأقضى على الروتين ، ولأبث فى المسائل بسرعة وبدون وسائط ، ولقد نجحت الخطة فى أول الأمر ، ولكن ما إن عرف ذوو الحاجات أو مدعو الحاجات هذا التصرف حتى انهالوا علىّ أفواجا ، فأصبحت حجرة مكتبى أشبه بركن من سوق مزدحمة بالناس ، ولم أكد أبداً فى قضية حتى يقفز صوت من هنا أو هناك بمظلمة ، وأدركت أن هذه السياسة ستعطل العمل بدل أن تنجزه ، فعدت إلى الطريق المتبع ، أقفلت بابى وأصبح على الحاضرين أن يمروا بسكرتير ليُدخلهم واحداً بعد واحد .

وقد ساءلت نفسى : لماذا لم تنجح خطتى الأولى بمصر مع أنى رأيتها ناجحة فى بلاد كثيرة ؟

والإجابة هي المركزية الصارخة التي تعيش في بلادنا ، فتجعل رئيس المصلحة له يدٌ في كل شيء ، ولا يتم شيء بدونه ، بل تجعل الوزير نفسه يضع إمضاءه على حركات النقل والاستقالة لمدرس أو مدرسة من مئات الآلاف الذين يعملون بهذه الوزارة •

لقد كان نعى في هذه الإدارة أقسام كثيرة لمختلف الجامعات والمعاهد ويشرف عليها موظفون لهم درجة طيبة من الثقافة والخبرة ، ولكن الروتين أو اللوائح كانت تحتم أن يتشركوني في كل شيء على الرغم من رغبتى في التفرغ لدراسة القضايا الكبرى التي تهيم اللواهدين والمبعوثين •

وبهذه المناسبة أذكر أنه كان من قرينتنا عامل من عمال «القناة» الذين ألحقهم الدولة بالعمل بالوزارات عقب القرار الذى اتخذ آنذاك بعدم التعاون مع سلطات الاحتلال ، وألحق هذا العامل بالمطافئ بالقاهرة ، ولجأ لى لأحاول نقله إلى محافظة الشرقية ، وقد أدهشنى أن وجدت أن وكيل وزارة الداخلية لابد أن يوقع على قرار هذا النقل •

يا لله ! كيف تشغل وقت وكيل الوزارة ووقت موظفى مكتبه بنقل عامل لا هو فى العير ولا فى النفير •

وفى هذا العام (١٩٧٣) تقدمت مشرعة اجتماعية بمدرسة إعدادية بطلب لجامعة الإسكندرية لتلتحق بعمل بها ، ووافقت الجامعة ، وبدأ شوط طويل لتوافق وزارة التربية والتعليم ، ووافق وكيل الوزارة بالمحافظة التي تعمل بها المدرسة ، ثم اتضح أن الوزير نفسه لابد أن يوافق على ذلك ، وأن الخطوات التي تمر بها هذه المسألة طويلة ومعقدة مما جعلك صرف النظر عنها أيسر من تتبعها •

ومعنى هذا أن الروتين الذى عانيت فى مطلع الخمسينات وأنا أحاول نقل العامل ، وعانيت وأنا مدير مساعد للواهدين والمبعوثين لا يزال باقياً حتى كتابة هذه السطور ، ولا بد من قوة حاسمة لوضع حد لهذا اللغظ •

...وأخذت. أباشر غملي عن طريق الشكرتير، ولكن ذلك منحني خبرة جديدة أيضاً، فإن واحداً من الوافدين للإفريقيين حاول أن يدخل تحجرة مكتبي دون أن يلتفت دورها عن طريق الشكرتير، ومنعني عامل الباب من الدخول، فطرح أو غضب رة ونبتت الصويت فخرجت إليه وجاوت التفاهم معه ولكن صوته كان أعلى من صوتي، وبدأ كأنه يهدد بالاتصال بالهيئات العليا لأنني لا أريد مقابلته، وقلت له في هدوء إنني سأتصل بالهيئات العليا قبله لأحتكم لها، وأدرك أن تهديده سيطره به، فتراجع وأخذ يعتذر، واندحشت إذ يقف الضيف من صاحب الدار هذه الوقفة، وأحسست أننا ندلل بعض هؤلاء ونعطيهم أكثر مما يستحقون، وقد كنا في إنجلترا نتعلم على حساب أمتنا ومع هذا كنا نعترف بالجميل نحو أساتذتنا ونحو الشعب الإنجليزي كلما أكرم وجودنا •

ربما يخطر بالبال أننا ننتفع هؤلاء سياسياً بطريق أو بآخر، ولكن العجيب أن السنين تمر، وقد مضى على هذه الحادثة حوالي عشرين عاماً، ولا أزال أرى هذا الرجل في القاهرة حتى يبدو أنه استطاب الإقامة هنا، ومعنى هذا أنه لم يتنقل أفكارنا لبلاده، ولم يقيم بأي لون ينفعنا من الدعاية بين ذويه، وأصبح قاهرياً، ولو عاد لبلاده لكان فيها غريباً •

إنني أدرك فائدة الوافد للبلاد التي يتعلم بها وتربطه روابط وثيقة بأهلها، روابط ثقافية واجتماعية، ولكني أقرر أن من الضروري أن نحسن اختيار الوافدين، بأن يكون خلق الوفاء والولاء واضحاً فيهم، وأن يكونوا من عناصر صالحة، لها بيلادها كيان، وأن يكونوا من الأذكاء الموهوبين الذين يغررس فيهم غرس العلم فينمو ويزدهر، ينفع الواحد منهم به أهله، وينشر من فكرنا وثقافتنا، ويكون حلقة اتصال بيننا وبين بلاده • ولكني أقرر للأسف أن هذا النوع لم يكن كثيراً بين الوافدين •



ولم تطل بهذه الإدارة مدتي ، كانت فقط بضعة شهور ، أحسست خلالها بأني لا أقوى على العمل الإداري ، فاشتدت شوقي للجامعة ، ففي رحاب الجامعة حياتي ونعيمي ، وبدأت أحاول الوسائل التي تنقلني من جديد إلى حيث أحب أن أعيش ، كما سنرى في الشوط التالي من أشواط رحلة الحياة .

العودة للجامعة

العودة أو اللاعودة :

بعد كل هذا التطواف طيلة ثماني سنوات خارج الجامعة بما فيه من جهد وما حقق من خير ، آثرت أن أعود للجامعة مرة أخرى ، فالجامعة لي كالهواء بالنسبة للإنسان ، وكالوطن بالنسبة للغريب الشريد ، ولكن العودة للجامعة كانت عملاً متعذراً إلى حد كبير ، فقد كنت أشغل حينذاك الدرجة الثانية وعلى وشك أن أنال الأولى بوزارة التعليم العالي ، وكان سلم الوظائف أمامي مفتوحاً ، وكانت درجة الدكتوراه التي أحملها ، والمؤلفات التي كتبتها ، والتجارب التي خضتها ، تفتح أمامي سبل التقدم ، وكان إخلاصي للعمل واضحاً ، وجدي فيه متصلاً ، مما بشر بمستقبل مشرق في حياتي بالوزارة لو بقيت بها ، ولكن ذلك لم يصرفني قط عن الرغبة في العودة للجامعة ، ولكن كيف السبيل للجامعة ؟ وإلى أي الوظائف سأقدم ؟

إن إعلانات كانت تنشر من يوم إلى يوم عن وظيفة أستاذ مساعد أو أستاذ ، ولكنني كنت أدرك أن هذا النشر عمل ظاهري ، وأن هناك مستحقاً بالجامعة استوفى المدة وتعتبر هذه الوظيفة في الواقع أملاً أو قل حقاً له وإن كان القانون القديم يحتم الإعلان عنها ، فليس من اللائق أن أتقدم لهذه الوظيفة محاولاً أخذها من مستحق يترقبها .

بقي التقدم لوظيفة مدرس التي يكثر أن يعلن عنها وليس لها مستحق بالجامعة ، ولكن التقدم لوظيفة مدرس كان تصرفاً لا يقبله لي كثير من الناس ، فقد تقدمت بي السن ، ووصل زملائي في الجامعة إلى وظيفة أستاذ ، وكان مرتبي بالوزارة يعادل مرتب الأستاذ وفي قبولي لوظيفة مدرس صعوبات اجتماعية واضحة ، وصعوبات مالية ، إذ كان يتحتم تبعاً للقانون المعمول به آنذاك أن يضيع جزء كبير من مرتبي لأخذ فقط مرتب المدرس ، وكانت نهاية مربوطه أقل بكثير من المرتب الذي أتقاضاه ، ثم كيف أدخل هذه الوظيفة من الدرجة الثانية أو الأولى ، وقد دخلتها من قبل من الدرجة السادسة ؟

وصرخ في بعض الرفاق يحذرون من قبول وظيفة مدرس بالجامعة

ويصوّرون لى مدى الخسارة الاجتماعية والمادية التى ستتزل بى ، ولكنى فى الحقيقة لم أتردد يوماً واحداً فيما اتجهت إليه ، فقد كانت الجامعة كل حياتى وكل مجدى ، وكنت أحس أن على رسالة كمعلم لابد أن أقوم بها ، وكمؤلف لابد أن أؤديها ، ولا وسيلة لتحقيق هذه الرسالة إلا فى الجامعة .

وإذا كان بعض الرفاق قد حذّرونى من العودة للجامعة وشجعونى على البقاء بالوزارة ، فإن الجماهير العريضة فى العالم العربى والإسلامى وقفت موقفاً مضاداً ؛ وقفت تدفعنى للجامعة دفْعاً ، وذلك بإقبالها على كتبى إقبالاً فاق كل أملى ، فأخذتُ أجزاء موسوعة التاريخ الإسلامى وغيرها من الكتب التى كانت قد ظهرت لى تنفذ جزءاً بعد جزء وكتاباً بعد كتاب ، وأحسست بالمسئولية أن أسير فى إخراج باقى أجزاء موسوعة التاريخ وباقى الأجزاء من موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، وسلسلة مقارنة الأديان ، ولا يمكن السير فى إخراج هذه الكتب فى غير رحاب الجامعة .

وحزمت أمري ، واتجهت إلى رجل يتحتم على أن أذكر اسمه هنا ، هو أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ، وكان آنذاك عميداً لكلية دار العلوم . وعرضت عليه الأمر ، فرحب بى ، وقال : هذه كليتك وهى ترحب بك ، ولما أثرت فى جليستنا المشكلات الاجتماعية والمادية ، قال أحد الحاضرين إن معيداً بالجامعة يفضل أية وظيفة أخرى ، وشجعنى آخرون بأن مكنتى الاجتماعية لن تتأثر بكونى مدرساً أو أستاذاً ، فاستخرت الله وتقدمت ، ومن الحق أن ننسب الخير لذويه فنقرر أن مساعدات جمة وواسعة بذلها أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس وأيّده فيها أعضاء مجلس الكلية وأساتذتها ، لينواجهوا بها اعتراض الدكتور ضياء الدين الرئيس ورئيس قسم التاريخ آنذاك الذى عارض بشدة عودتى للجامعة دون سبب ، غفر الله له .

وعندما خطوت الخطوة الأولى فى فناء كلية دار العلوم للمرة الثانية تحسست ترابها بغبطة ، وقبّلت هواءها ، ومسست جدرانها وأثاثها برق ،

وقلت لنفسى : الآن أعود من جديد إلى كليتى وجامعتى ، أخدم بالحب كله ، وبالإخلاص كله ، ما وسعنى السبيل •

والحق أشهد أن الزملاء — على العموم — لم يعاملونى قط فى أقل من مستوى الطبيعى ، وكانوا يقدّموننى على أنفسهم مقدرين ظروف الأحداث التى مضت ، ولكن حدث مرة أن أُعِدَّ حفل بالدار فى مناسبة من المناسبات ، وكان اسمى بين أسماء الذين سيتحدثون فى هذا الحفل ، ووضع اسمى فى القائمة قبل اسم زميل كان يشغل وظيفة أستاذ مساعد وكنت لا أزال مدرّساً ، فاحتج هذا الزميل على أن ترتب الأسماء ليس طبيعياً ، وأثار احتجاجه عاصفة من الضحك ، وقال له الزملاء : إنه الدكتور شلبى بمكانته العلمية وتاريخه • ولكنه أصر على أن النظم الجامعية هى هى ، وبلغنى الأمر فترفقت به ورجوت القائمين بالأمر أن يكون اسمى آخر الأسماء ، وتمسكت بذلك ، وكان ما أردت ، وربما نالت كلمتى كثيراً من الحظوة لدى السامعين •

أقصد من هذه القصة أن أذكر أن بعض متاعب قابليتى ولكنها كانت أقل كثيراً من الراحة النفسية والنجاح العلمى الذى صادفته • وربما كان لهذا الوضع أثره الكبير الذى دفعنى لمزيد من الصراع لأحقق لنفسى تعويضاً يتناسب مع الحياة الجامعية ، فصدر الجزء تلو الجزء من موسوعة التاريخ الإسلامى ، وظهرت كل أجزاء موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، وكل أجزاء سلسلة مقارنة الأديان ، وانتشر كتاب « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » فى كل الأرجاء ، وترجم الكثير من مؤلفاتى إلى لغات متعددة ، وعرفت الإذاعة والتلفزيون والصحافة والمجلات طريقها لى ، وانهاى الخير من كل اتجاه •

على أن الزمن مرّ ، وأصبحت أستاذاً مساعداً ثم أستاذاً وتحقق لى من الأهداف أكثر مما كنت أطمح فيه ، والشكر لله واهب النعم ..



وفي الجامعة مشكلات اجتماعية كبرى ، مشكلات تعيش فيها ومشكلات تتبع منها ثم تورق وتنمو خارجها ، وسنعيش مع مشكلات الجامعة في الصفحات التالية ، ونذكر هنا أننا استبعدنا من هذه المشكلات ما سبق أن كتبناه مما عالجه التشريع الجديد الذى قضى على آفة الكراسى بالجامعة ، وقضى على رئيس القسم الخالد ، وقلل من دكتاتورية الحياة فى الجامعة ، وجعل أعضاء هيئة التدريس يختارون العميد كما يختار أهل القرية عمدتهم وأعضاء النقابة نقييهم .

ومع أن الكاتب ضنين بما يكتب ، ويرى فى الأوراق التى تحمل فكره قِطْعاً من قلبه ، فإننى نحيت هذه الأوراق جانبا لأن الهدف من هذا الكتاب هو محاولة الإسهام فى تطوير الحياة ، فإذا حُلّت مشكلة فمن الأولى أن نتطلع لسواها ، وألا نطيل الوقوف عندها بعد الحل .

والآن هيا بنا لنعيش مع بعض مشكلات الجامعة :

الجامعة والمجتمع

عشت في جامعة القاهرة فترتين تفصل بينهما ثماني سنوات ، امتدت الفترة الأولى من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٤ وبدأت الفترة الثانية من سنة ١٩٦٢ ولاتزال حتى كتابة هذه السطور في صيف ١٩٨٢ .

والذي عاش في الجامعة حياته متصلة ربما لا يدرك الفرق بين زمن وزمن أو ربما لا يحس الفرق ، لأن التطور البطيء لا يلفت النظر ، كما يحدث بالنسبة للطفل الذي ينمو يوماً بعد يوم ، أو ساعة بعد ساعة وأهله لا يحسون بذلك ، ولكن الذي يراه بعد غيبة يدرك هذا النمو بوضوح عند اللقاء الثاني .

والجامعة في نظري من ناحية صلتها بالمجتمع تختلف اختلافاً واضحاً في الفترة الأولى عنها في الفترة الثانية ، ففي الفترة الأولى كانت الكلية مَعْبُوداً لنا ، وكنا نمضي فيها أوقات هراغنا في لذة بالغة ، وكانت الصلة بين الأساتذة بعضهم والبعض قوية عميقة ، وكان التزاور كثيراً بين أعضاء هيئة التدريس ، وكان بالكلية سيارة واحدة يملكها أحد الأساتذة ، وكنا نسميها سيارة الكلية ، فمن حق كل واحد أن يركبها في حدود الطاقة .

وكان للكلية نشاط يتصل بالعالم الخارجي ، ويتميز في المناقشات ونتعرف على مشكلات الطلاب ونحاول حلها ، وكانت لنا رحلات وحفلات توثق الصلة بين الطالب والأستاذ ، وكنت أعرف طلاب الفرق التي أدرس لها جميعاً ، أعرف أشكالهم وأسماء أكثرهم ، وظروف عدد كبير منهم ، وكان الحب متبادلاً ، وإجلال التلميذ لأستاذه قوياً .

وكان للكلية نشاط يتصل بالعالم الخارجي ، ويتميز في المناقشات العلنية لرسائل الماجستير والدكتوراه التي كانت تجذب عدداً ضخماً من الجماهير ، وفي المحاضرات العامة التي كان يقوم بها الأساتذة من الكلية أو يُدعى لها أساتذة من خارجها ، كما كانت تتمثل في الإسهام في المقالات

والأبحاث التي تنشر بعدة صحف ومجلات ، وفي المساعدة في كثير من ألوان النشاط الذي يصل مجتمع الجامعة بالمجتمع خارجها •

وهكذا — بإيجاز — رأيت في الفترة الأولى نشاط الأساتذة داخل الجامعة وداخل المجتمع ، وبعبارة أخرى رأيت مجتمع الجامعة صحيحاً طيباً ، ورأيت صلة الجامعة بالمجتمع قوية عميقة •

ولما عدت للجامعة بعد غيبة ثماني سنوات رأيت كل شيء قد تغير تقريباً : رأيت صراعاً يدور في طبقة هيئة التدريس بدل التعاون الشامل •

ورأيت انعزالية بين هيئة التدريس من جانب والطلاب من جانب آخر •
ورأيت عزلة إلى حد كبير بين الجامعة والمجتمع •
ورأيت الحياة الروحية في المجتمع الجامعي تختفى أو تذبل •
لماذا ؟ وما الذي قاد لهذا المصير ؟

إن الأسباب التي أدت لذلك متعددة ، بعضها صنعناه بأنفسنا ، وبعضها جاء عفواً ، وتكاثفت هذه الأسباب وتعاونت لتتال من الجامعة وتضعف من رسالتها •

وأخطر ما عانىناه من هذه الأسباب أن الثورة دفعت بعض الطلاب لينتسبوا إلى اتجاهاتها السياسية ، وأشيع أنهم يقدمون التقارير عن أساتذتهم ، ولقد سئل أحد أصحاب النفوذ عن ذلك فأجاب بالإيجاب وقال : « اللي في رأسه بطحة يحسس عليها » وكان معروفاً عن بعض الطلاب أنهم يستطيعون الدخول على الوزراء دون كبير عناء •

ولم يكن هؤلاء الطلاب محددين ، وهذا جعل الشبهة تمتد للكثيرين مما أدى إلى قطع العلاقة الروحية بين التلميذ وأستاذه ، ومما زاد الطين بلة ، أن أشيع أن بعض الأساتذة لهم صلة بالمخابرات العامة ، وهذا قطع الوشائج بين الزملاء ، وأصبح الواحد يتحاشى زميله ويحتاط إذا تحدث إليه •

وكانت أعداد الطلاب بالجامعة كثرة بالغة مما جعل من المستحيل أن تستوعبهم أسر ، أو يتعرف عليهم الأساتذة ، أو يجرى معهم حديث اجتماعي .

وجاءت لعنة الإغارة إلى الخارج ، وأنا أسمىها لعنة مع ما تؤديه من خدمات لمصر وللدول العربية والإسلامية ، وسبب ذلك أنها صرفت الأنظار عن الداخل ووجهتها إلى الخارج ، وأصبح المدرس أو الأستاذ يحسب بدقة المدة الباقية له بمصر ليُصرَّح له بالخروج للعمل بالأقطار الإسلامية أو العربية ، وأصبح بقاءه بمصر ليس إلا استعداداً للسفر ، أو بلغة أخرى أصبح عمله بالخارج هو الأصل ، وعمله بالداخل ضرورة حتى يحين موعد السفر .

ودخل هيئة التدريس أناس ليخرجوا في العام التالي معارين منها إلى الخارج ، وتستطيع كل كلية أن تقدم كشفاً عجيباً عن بعض الزملاء الذين ساحوا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وأن مدة بقائهم بالجامعة لم تكن إلا راحة ، أو هدنة قصيرة بين رحلتين .

وفي كثير من الحالات طرق الأساتذة أبواب السفارات يطلبون العمل ، وكثيراً ما عوملوا بطريقة لا تناسب مستواهم ، وأذكر مرة أنني تلقيت برقية من إحدى السفارات العربية تستدعيني في وقت مجيئي لمقابلة بعض المختصين بها تمهيداً لأن أطلب للعمل بالقطر الذي تمثله هذه السفارة ، ولكن ظروف حياتي بالقاهرة : كتيبي وأولادي ، وقبل كل شيء أو بعد كل شيء القناعة التي عرفناها من ريفنا الطيب ، كل هذا جعلني لا أحب الإغارة إلى الخارج ، فانتهزت هذه الفرصة لأثار لإخواني الذين كنت أعرف أنهم يعاملون معاملة أقل من مستواهم ، فكلفت زوجتي أن تتصل بالسفارة لتخبر الملحق الثقافي أن الموعد الذي حدد في البرقية لا يناسبني ، وأن تحديد موعد لا يكون من جهة واحدة وينبغي أن يتم بالتفاهم معي ،

وتمّ بناء على ذلك تحديد موعد جديد ، وفي الموعد ذهبت إلى مبنى السفارة فحاول البواب أن يمنعني ، فأفهمته بأنني حضرت بناء على برقية وموعد محدد فأدخلني ، وذهبت لمدير مكتب الملحق الثقافي ، فطلب مني أن آخذ دورى مع الجالسين ، فنظرت حيث رأيت طابوراً طويلاً من الزملاء ينتظرون المقابلة ، فأحسست بالخجل ، وقلت للموظف : إنني حضرت بناء على موعد محدد وساعة هي الآن ، فأخبر من استدعاني بذلك ، ففعل . ودخلت ، واعتذرت . عن عدم رغبتى في السفر ، وأستطيع أن أصور — لولا عدم الرغبة في السير خلف التفاصيل — مدى انفعالات الاحترام وحركات التقدير التى ظهرت على اللجنة مع كلمات الاعتذار التى كنت أقولها ، لقد اعتدل من كان متكئاً ، وعثر على مكانه الطبيعى من يحس بالشموخ والكبرياء بسبب حرص المصريين على أن ينالوا الاعارة .

على أن الأساتذة معذورون تماماً في حرصهم على السفر ، ويكفى أن يعرف القارىء أن مرتب المعار يصل إلى حوالى عشرة أمثال مرتبه بمصر ، فالمدرس الذى يعانى ضنك الأربعين جنيها بمصر يتقاضى في بعض البلدان ما يعادل خمسمائة جنيه ، هذا عدا السيارات الفارهة والحصول على كل شيء بأيسر طريق .

وارتفعت تكاليف الحياة بمصر ارتفاعاً باهظاً ، فأتجه الأساتذة إلى الكدح المضمّن لتحقيق لقمة العيش ، وقبلوا انتدابات رخيصة السعر قاموا بها لتساعدهم في حياتهم ، ويكفى أن نعرف أن من الأساتذة من يسافر كل أسبوع إلى أسيوط أو الإسكندرية لإلقاء محاضرتين مكافأتهما جنيهاً قليلة ، وفي الرحلة كثير من العناء وضياح وقت طويل ، ولكنها سبيل للحصول على هذه القروش البسيطة ، والمهم هنا أن الكدح من أجل لقمة العيش قلل الصلة بين الأستاذ ومجتمع الجامعة وبين الجامعة والمجتمع العام .

والمأمول أن نتحاشى هذه العيوب كلها لتعود الجامعة مناراً يهذى طلابها ولتتمدد أشعته إلى الخارج وهماجة بهيجة .

وقد عالجنا التشريعات الجديدة التي صدرت في صيف ١٩٧٢ . بعض العيوب التي أشرنا إليها في الجامعة ، ويبقى أن نقترح حلولاً لما تبقى من مشكلات في المجال الذي تدارسناه في الصفحات الماضية ، وهذه الحلول هي :

أولاً : لا يجوز أن تصبح عضوية هيئة التدريس بالجامعات معبراً للإعارة إلى الخارج ، ويتحتم على من يدخل عضواً بهذه الهيئة أن يبقى بمصر مدة لا تقل عن ثلاث سنوات قبل أن يعار للخارج .

ثانياً : فيما يتعلق بالقبول بالجامعات يتبع التنظيم التالي :

(أ) الموهوبون فقط هم الذين تفتح لهم أبواب الجامعات ويفسح المجال لسواهم في الأعمال المختلفة بحيث يوجهون حسب استعداداتهم إلى الحرف والفنون المتنوعة بعد الحصول على الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية . ويفتح طريق الترقية أمام من يبرز نجاحاً في حياته العملية من هؤلاء .

(ب) تحدّد كل كلية من كليات الجامعة العدد الذي تقبله بناء على استطاعتها من جانب ، وعلى حاجة الدولة والتزاماتها من جانب آخر ، بحيث يجد كل من يتخرج من الجامعة عملاً ينتظره دون الوقوف في الطابور الطويل لانتظار لفترة من القوى العاملة التي توزع المتخرجين ، لا للحاجة إليهم ، بل رحمة بهم ، وبحيث يختفى ما نشاهده من نقص في المدرسين بالمدارس وفائض في كثيرين من المتخرجين سواهم .

الرشوة ٠٠٠ وفي الجامعة

إذا دَخَلَتْ الرشوة مكاناً أسرع له الانهيار ، وإذا دبَّت بارض جاء على أثرها الضياع والانحلال ، وإذا اقتحمت دولةً ولغى عنها الأمن والخير والرفاهية .

وقد وقف الإسلام من الرشوة موقفاً حاسماً ، وندد بمرتكبي هذا العمل القبيح ، قال تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتقتلوا بها إلى المحاكم لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم » (سورة البقرة الآية ١٨٨) وقال عليه الصلاة والسلام : « الراشي والمرتشى في النار » . وقال : ما فشت الرشوة في قوم إلا أخذوا بالرعب .

وبلادنا الحبيبة تعاني كثيراً من الأدواء الداخلية والخارجية ويقف العدو الشرس على أبوابها يهدد ماضيها التليد ، وعنصرها الطيب ، وخيراتها الجمة ، وتعاني كذلك مشاكل اقتصادية واجتماعية ولكن أخطر ما أخافه عليها هو الرشوة ، وكنت بطبيعة سني وثقافتى الدينية ومكانتى في المجتمع أخاف الرشوة ولا أفكر في أن أقدمها لتسهل لى أى عمل من الأعمال ، ولكننى لاحظت أن بعض حقوقى تعطل ، وأن أمور غيرى تيسر . فحسوت ذلك لرفيق كان يياشر مشروعاً كالذى أباشره ولكن دون عناء . فأوصانى بأن أقدم بعض المال لشخص معين . فصرخت فيه : إننى أخاف ذلك ، أخاف الله وأخاف الشخص نفسه أن يدعى أننى أقدم له رشوة . فأجاب قائلاً : عن خوف الله كلنا نخافه ، ولكن ذلك للضرورة ، وأما الشخص فأنا به قمين ، وأكد لى أنه سيرحب بما يقدم له ولن يغضب .

ولم أستطع أن أستجيب لنصيحة صديقى ، وآثرت أن أخطو إلى منتصف الطريق ، فاصطنعت مناسبة خاصة وقدمت له ما يسمى « هدية » فقبلها عن طيب خاطر ، ومنذ ذلك الوقت وهو يبذل أقصى الجهد لتيسير أمورى في ذلك المجال .

وهكذا اتخذت° الرشوة اسماً جديداً خداعاً هو « الهدية » وأحياناً سيمت « عمولة » ولا تغيّر هذه الأسماء من الواقع شيئاً ، إنها رشوة بلاشك مهما كان الاسم الذي يطلق عليها ، وقد أدرك الفكر الإسلامى اتجاهات التحايل للحصول على رشوة بغير اسمها ، فاتجة الفكر الإسلامى إلى تحريم الهدايا للعمال ، قال عليه السلام : هدايا العمال غلول (أى خيانة) وقد وضّح الرسول أن الهدايا للعمال أو الولاة يثَقِّصُ بها شيء من ورائها ، فقد ولى° عليه السلام رجلاً من الأزد ليجمع الزكاة ، فلما عاد وأخذ يقدم ما جمعه من مالٍ للرسول ، احتجز بعضه وقال هذا أهدي لى : فقال الرسول ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي إلى° ؟ فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا (١) .

ومما فعله الفكر الإسلامى للقضاء على الرِّشَا التى تقدّم باسم غير اسمها أن° منع الحاكم وأعوانه من أن° يدخلوا الصفقات العامة بائعين أو مشتريين ويقول عمر بن عبد العزيز في ذلك : تجارة الولاة منفسدة ، وللرعية مهلكة (٢) .

وهناك لافتة توضع في أكثر الجمعيات الاستهلاكية ، وقد كتب عليها « ممنوع إعطاء البقشيش » وقد اعتاد الناس أن يقرأوا ما بين الكلمات وأن يتجاوزوا المدلول الأبله لهذه العبارة وأصبح معناها هو « قدّم البقشيش تجد ما يسرك » وقد طفت بلاد أوروبا الراقية ولم أجد مثل هذه اللافتة ، مما جعل هذه العبارة ونظيراتها مشجعاً على عكس ما كتب عليها ، وتسرب هذا الاتجاه إلى كل الأشياء المناظرة ، فعلى الشاطئ لافتات تمنع لعب الكرة ولكن اللعب يدور تحت هذه اللافتات ، وتنتشر الصحف أن لعب الكرة بالشوارع ممنوع فيسرع الصبيان للشوارع يحتلون بها ويوشكون أن

(١) ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ٤٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٣ — ١٠٠ .
وانظر دراسة شاملة عن هذا الموضوع في كتاب ، السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامى للمؤلف .

يمنعوا المرور بها أو أن يسيئوا للمارة • وفي الحقائق لاقتات بالمحافظة على النظافة ويتجه الاهتمام — فيما يبدو — إلى محاربة النظافة حيث توضع هذه اللافتات وهكذا •

ولنعد إلى الرشوة لنقرر أنها إذا اقتحمت الجامعة تربت وتطورت مع أجيال الشبان ومع مرور الزمن ، وإذا عششت في هذا الجو المقدس أفرخت وتكاثرت بشكل سريع وواسع ، ذلك لأن طلاب اليوم هم موظفو الغد ، وجاملو راية الحركات الوطنية والفكرية ؛ وإذا عرفوا الرشوة واستساغوها نشروها في مدى وجيز بكل الأرجاء ، وإذا أعطوا الرشوة اليوم قبلوها غداً وكانت الكارثة •

هل عرفت الرشوة طريقها إلى الجامعة ؟

لست أدري • ولكنى أذكر من دنيا الواقع أمثلة محددة ، رجاء أن يكون لها أثرها في تصفية جو الجامعة المقدس •

أشرف على رسالة للماجستير لطالب مصري يعمل بالخارج ، وتدور المراسلات بينى وبينه عن بعض نقاط العمل العلمى ، وقد زارنى في إحدى إجازاته وسألنى عما إذا كنت أحتاج لشيء من الخارج ، وقبلت السؤال ببسر ، لأننا للأسف نحتاج إلى بعض الأشياء من الخارج ، وليست هذه الأشياء — للأسف مرة أخرى — موجودة في القاهرة التى كانت في يوم من الأيام موئلاً لطلاب كل الحاجات من مختلف الأقطار العربية والشرقية • ونماذج هذه الأشياء معروفة والحاجة إليها مأساة ، ومع هذا فقد ذكرت لتلميذى أننى أحب أن أعيش في أى بلد كما يعيش أهله وألا أتطلع إلى ما عند الآخرين ، وتبعاً لذلك لم يأخذنى الشوق إلى « الملوخية » وأنا بانجلترا ، ولا إلى « الفسيخ » وأنا بإندونيسيا ، ومع هذا الاتجاه فهناك أشياء لا غنى عنها ولا بديل لها عندنا ، ومثال ذلك بعض الأدوية البسيطة التى لا بديل لها هنا مثل دواء « أدكسولين » وثمنه خمسة عشر قرشاً وأنا محتاج له لالتهاب يظهر في شفتى أحياناً وليس له بديل ، ومثل قلع غيار

للسيارة لامناص من الحصول عليها من الخارج ، وأعطيت تلميذى مبلغاً من المال مقدماً يكفى لشراء ما طلبت ، وهددته أنى لن أقول عن مطالبى إلا إذا أخذ المال ، فأخذه ، وتفضل فأرسل لى ما طلبت ، وكتب لى بعد حين يسأل عما إذا كنت أريد شيئاً آخر لأنه أوشك أن يعود فى إجازة للقاهرة ، فطلبت إليه أن يرسل لى أولاً كشف حساب دقيق عن الصفقة الأولى ، واجابنى بأنه يرجو « الانفتاح » فى هذه المسائل لأن مرتبه يصل إلى خمسمائة جنيه ، ومطالبى بسيطة جداً ، ويرجو عدم « التدقيق » فكتبت إليه إننى قررت أو أوقف التعامل المادى نهائياً بينى وبينه فكتب لى يعتذر ، وأرسل الكشف المطلوب •

وطالب آخر ريفى يبدو على مظهره أنه إلى الفقر أقرب منه إلى الغنى ، قال لى مرة : إن والده يريد زيارتى • ودهشت لهذا الطلب ، فليس بينى وبين والده أية صلة ، ولم أره فى حياتى ولا مرة واحدة ، ومع هذا فقد رحبت بلقائه كخطوة ريثما أفكر معه فى سبب هذا اللقاء • وأحسست بما يسميه الصحفيون « الحاسة السادسة » بأن فى الأمر شيئاً ، ولكنى لم أشأ أن أصرح له بشيء ، بل اتخذت طريقاً غير مباشر فذكرت لهذا الطالب قصة الطالب السابق الذى وقع فى خطأ لم أغفره له ، وارتبك الطالب الريفى ، وصرّح بأن والده كان ينوى أن يحضر لى بعض منتجات الريف • وصرخت فيه احذّره ، وذكرت له أننى فلاح ، ويرد لنا من الريف كل ما نحتاج إليه من منتجات الريف ، وكان طالبا ساذجاً فألح فى هذا الموضوع ، مما جعلنى أقسم له أن ذلك لو حصل فإن ما يسميه هدية مع ماكتبه من الرسالة سيرسل للجامعة فوراً مع اعتذار عن عدم الاستمرار فى الإشراف عليه •

وطالب سورى لم أره فى حياتى ، اتصل بى تليفونيا متوسلاً للقاءى بزميل كريم هو الأستاذ أنور الجندى ، وجاء الموعد ولم يحضرا ، وبعد حوالى ساعتين اتصل بى هذا الطالب تليفونيا من بيتنا القديم إذ لم يعرف أننا انتقلنا إلى بيت آخر ، وقال إنه فى الطريق ، وأنه جاء وحده

لعذر طراً على الأستاذ أنور • وقلت له أن عندي عملاً بالتليفزيون الآن وإنني للأسف لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، وسألته إذا كانت له حاجة أستطيع أن أقضيها له ، فقال لي إنه يريد أن يسجل معي رسالة للماجستير ، فاعتذرت بأن عندي عدداً لا أستطيع الإشراف على أكثر منه ، ونصحتة أن يطرق باب زميل آخر ، وذكرت له أنني في المستقبل إذا تخرج بعض طلابي أمكن أن أفكر في الإشراف عليه ، وانتهت المكالمة التليفونية •

وبعد قليل اتصل بي أقاربي الذين يسكنون في المسكن الذي كان يتكلم منه الطالب السوري ، وقالوا لي إن الطالب ترك عندهم « لفّة » وإنهم رفضوا أخذها ، ولكنه تركها وأسرع ، وقد بذلت جهداً كبيراً لإعادة « اللفة » إلى هذا الطالب الذي ظن أنني أقبل هذا المنكر •

وهذه الأحداث المتكررة جعلتني أصرخ : هل أخذت مرة « رشوة » ؟
هشاع ذلك عني وراح الطلاب يتقربون إلي بالرشا ؟

وأجبت نفسي بأنني لم أقبل قط أية رشوة تحت أي إسم وأي ظروف •
فلماذا إذن يقع ذلك معي ؟

وسألته بعض الزملاء عن ذلك فطمأنوني بأن ما حدث لي حدث لغيري ، وأن ذلك أصبح عادة منتشرة •

ولست أدري بعد ذلك إذا كانت هذه « الهدايا » عرفت طريقها للجامعة وأن الطلاب تكلموا بها مع بعضهم البعض ، فراح كل منهم يقتحم ذمة أستاذه بهذا الثمن الرخيص •

وقد أثرت حديثي هذا في أمكنة أخرى ، وتساءلت عن السر في هذا الاتجاه ، وحاول بعض السامعين أن يهوّن عليّ الأمر وأن يوضح لي أن هذا الذي أشكو منه شائع في كثير من الأوساط تحت أسماء مختلفة ، وذكرني بعض الزملاء بالدعوات التي توجه لكبار الناس هنا وهناك

لزيرة بعض الأقطار وإلقاء محاضرة أو اثنتين هناك ، والتكريم الواسع والمكافآت الباهظة التي تدفع لهؤلاء ، ويحدث في إثر ذلك تسهيلات لأبناء هذه البلدان أو تيسيرات مختلفة مما يوحى بأن المحاضرات الميمونة لم تكن كل شيء ، وقد أحس بعض كبار الزائرين بما تحمله هذه الهدايا من معانٍ فرغضوا تسلمها ووجهوها للدولة ولم يأخذوها لأنفسهم .

تلك صيحة اكتفيت فيها بالحديث عن نفسى وعن تجاربى دون أى تلميح أو تصريح بغيرى ، وأرجو أن يقطع دابر هذا الوباء ، وألا يخدعنا أى اسم يحمله ، فقد قُدمت هدية لعمر بن عبد العزيز ، فرغض قبولها ، فقال له مقدمها : إن الرسول قد قبل الهدية . فأجاب عمر : هى لرسول الله هدية وهى لنا رشوة . أى أن الرسول معصوم عن الانحراف عن الحق بسبب الهدية ، فالهدية ستظل هدية بالنسبة له ، ولكننا غير معصومين عن ذلك ، وستنقلب الهدية إلى رشوة معنا ، وذلك قول فى منتهى الحكمة .

واعتقادى أن الرشوة بكل أسمائها ينبغى أن تعد جريمة كبرى يتجه القانون لبيان خطورتها . وللتحذير منها ، وينزل بمرتكبها أقصى عقاب .

مشكلة الكتب الجامعية من زوايا لا يعرفها الناس

الحديث عن الكتب الجامعية حديث قديم متجدد : وقد أصبحت مشكلة الكتاب الجامعي مشكلة عويصة ، يمكن القول إنها استعصت على الحل إلى درجة كبيرة ، وكل الناس يذكرونها دون أن يستطيعوا أن يحسبوا لها العلاج الشافي ، وسأحاول هنا أن أصور هذه المشكلة تصويراً حقيقياً . وأن أصف لها العلاج ، فأنا — كأستاذ وكزميل لأساتذة ومدرسين عديدين — أعرف عنها الكثير ، وأستطيع تشخيصها بدقة ، والتشخيص الدقيق يقود غالباً إلى العلاج الصحيح .

ولنبداً بسؤال جريء هو : هل كل أعضاء هيئة التدريس بالجامعات عندهم موهبة التأليف ؟

والإجابة الصريحة الجريئة هي بالنفي دون شك ، فالمدرس شيء ، والمؤلف شيء آخر ، وقد يكون المدرس مؤلفاً ، وقد لا يكون . والجيل الذي سبقنا من الأساتذة ، عَبرُوا حياتهم العلمية مدرسين بالجامعة وأساتذة ، وكانوا موهبتين في وقفاتهم بالدرجات وقاعات المحاضرات . ولكن الكثيرين منهم لم يدوّنوا شيئاً ، أو كتبوا كتابات قليلة ، وأسماء هؤلاء معروفة بوضوح في المحيط الجامعي .

وفي الخارج يُمضى الأستاذ عمره كله يحقق فكرة أو يعمد بحثاً ، فإهتمامه منتهج للكيف ، وإذا استعرضنا الأساتذة الذين درسنا عليهم في الخارج نجدهم جميعاً من هذا الطراز مثل برفسور لويس ودكتور ريس وبرفسور أبري .

وكثيرون من شيوخ الأزهر عبروا القرون وعاشوا يعلمون ما كتبته السابقون ، وقلدوا من أمسك منهم بقلمه ليكتب كتاباً أو مجموعة من الكتب .

وفي ضوء هذا الوضع لم تكن هناك مشكلة للكتاب الجامعي ، لا من حيث تأليفه وجودته ، ولا من حيث بيعه وتوزيعه •

وعندما بدأ التأليف في الجيل السابق اتجه المؤلفون إلى الفكر العام ، وكان هدفهم خدمة العلم ، ولم يكونوا يكتبون — في الغالب — للطلاب ، وإنما للمكتبة العربية وللمثقفين على العموم ، وتحت هذا الشعار ظهرت مؤلفات أحمد أمين وطه حسين وأحمد الشايب ، وكان الإقبال عليها من خارج الجامعة أكثر من الإقبال عليها من الجامعة ، وبخاصة أن بعض كتّاب ذلك الجيل لم يكونوا من أساتذة الجامعات مثل عباس العقاد والمازني وهيك وتوفيق الحكيم وسواهم ، وأقبل الناس عليهم إقبالا كبيرا •

وتطورت الأمور في الجامعة وأصبح التأليف ونشر المؤلفات أساساً للترقية ، ودخل عالم التأليف فئات من المدرسين والأساتذة المساعدين والأساتذة راضين أو كارهين ، ولا شك أن هناك كتباً رائعة وأبحاثاً ممتازة أخرجها الزملاء هنا وهناك ، غمّلت فراغاً كبيراً في المكتبة العربية ، واستحق مؤلفوها التقدير والإعجاب ، ولكن بجانب هذه المؤلفات ظهر إنتاج فجّ كُتِبَ فقط لتحقيق الترقية ، وهنا أقف وقفة لأذكر بصدق بعض مظاهر هذا اللون من التأليف ليعرف المسئولون والقراء أصل مشكلة الكتاب الجامعي •

مرّة بنا مرة ونحن جلوس زميل من الزملاء ، ورأيناه يتجه للمكتبة بحماسة ، فنناديناه ليجلس معنا ، فأجاب : آسف ، إنني ذاهب لأؤلف كتاباً لأن موعد الترقية قد أوشك أن يجيء • وهكذا اتجه هذا الزميل ليؤلف كتاباً بالضبط كما يذهب الإنسان إلى مطعم ليتناول الغذاء أو إلى النادي ليستريح •

ولابد أن نتخيل مدى مالهذا الكتاب من جودة إذ ألّف في مثل هذه الظروف •

هل هذا النوع من التأليف قليل ؟ ويمثل أصحابه قلة بين أعضاء هيئة التدريس ؟

الإجابة بالنفى ، وحسبك أن تعود إلى إحصائية لتدرك فيها أن أكثر ما يخرج أعضاء هيئة التدريس يظهر قبيل الترقية بفترة وجيزة ، بل يقدم بعضهم أجزاء من الكتاب قبل أن يتم طبع الكتاب ، أو يقدمه مجزءاً (ملازم) قبل أن يتم تجليده .

وفي ظروف كثيرة تحين فرصة أو فرص للترقية في وقت غير متوقع ، كالتي تحين عند كتابة هذه السطور (يوليو سنة ١٩٧٢) إذ جعلت مدة خمس سنوات كافية للأستاذ المساعد ليقدّم إنتاجه ليصبح أستاذاً ، وكانت المدة قبل ذلك سبع سنوات ، فقد اتجه الأساتذة المساعدون الذين أمضوا الفترة اللازمة ليؤلفوا بعض الكتب حتى يتقدموا مطالبين بالترقية ، واتجهنا نحن إلى حثهم لإعداد أنفسهم لهذه الفرصة ، ولولا هذه الفرصة لتوانوا وتمهلوا في التأليف .

وعندما يصل عضو هيئة التدريس إلى نهاية السلم أى إلى الأستاذية نجده يستريح من هذا التأليف أو التكليف ، وقل أن ينتج شيئاً بعد ذلك . وأعود فأكرر ما سبق أن أشرت إليه من أن موهبة التأليف موجودة عند كثيرين من الأساتذة ، وأن هؤلاء يؤلفون خدمة للحركة العلمية واستجابة لدافع داخلي علمي ، ولكن حديثنا هنا عن التأليف الذي يكتب للترقية أساساً ، وما أكثر هذا النوع .

وعلى هذا فالجامعة لا تكتفى من المدرس بالتدريس وإنما تطالبه بالتأليف ، وعلى المدرس أن يؤلف طائعاً أو كارهاً .

ثم تبدأ خطوة أخرى بعد التأليف هي خطوة النشر ، فمن الذى سينشر هذا الكتاب وينفق على إخراجه ؟ ولنتذكر أن متوسط تكاليف نشر الكتاب هي تقريبا ألفان من الجنيهات ثمنا للورق والأكليشيات وأجرة الطباعة . من الذى سيدفع هذا المبلغ ؟

الحقيقة الواضحة هي أن المؤلف أو مدرس الجامعة يواجه من الناشر سؤالاً روتينياً هو : هل هذا الكتاب مقرر ؟

فإذا كان الكتاب مقررًا قبله الناشر دون تردد ، والتزم المؤلف بتدريس مادته وتقريره على الطلاب •

وإذا لم يكن الكتاب مقررًا فلا سبيل لنشره ، أو أن السبيل لنشره خستيل للغاية وبخاصة للمدرسين الذين لا يزالون في أولى درجات السلم ولم تثتهر أسماءهم بعد •

حتى المؤسسات العامة التي يمكن اعتبارها حكومية مثل دار المعارف تسأل هذا السؤال ، فإذا كان الكتاب مقررًا عرف طريقه للمطبعة دون توانٍ ، وإن لم يكن مقررًا فأحسن ما يواجه به الكتاب هو الإحالة إلى لجان الفحص وقد يترفض دون إحالة إليها ، ولجان الفحص قد ترفضه وقد توصي بطبعه فإذا أوصت لجان الفحص بنشره فإنه يأخذ دوره بين مطبوعات الدار ولا يدري أحد متى يجيء هذا الدور •

والكتاب المقرر يكون أحياناً مأساة ، فقد يكون ضحلاً ، وقد يكون في موضوع غير مهم ، ولكن التدريس يخضع له فلا يصبح المنهج هو أساس التدريس ، وإنما يصبح الكتاب هو الأساس •

ولست أستطيع أن أذكر نماذج من هذه الكتب ، وفي ذهني منها عشرات النماذج ، لأن كتابي هذا لم يكتب ليشتهر بأحد وإنما ليسهم في إصلاح الأحوال •

وفي كثير من الحالات يخسر المؤلف مبلغاً مالياً إن نشر الكتاب على نفقته وذلك حيث تكون الأقسام قليلة الطلاب كقسم الوثائق والمكتبات بكلية الآداب ، حيث يمكن عدد الطلاب على أصابع اليدين ، وحيث يقل العدد ببعض الكليات ، فقد كانت كلية دار العلوم خلال سنوات كثيرة ، قليلة العدد مما لا يساعد على توزيع الكتاب توزيعاً معقولاً •

وعلى هذا فمشكلة الكتب الجامعية لا تمس الطلاب فقط ، ولكنها مشكلة يعاني منها الفكر ، ويعاني منها الأساتذة ، فالفكر الرفيع يعاني من فيض التأليف الذي يثمن من أجل الترقية لا من أجل خدمة العلم ،

وهو لذلك لا يجد وسيلة للانتشار إلا عن طريق الطلاب الذين يرتبط نجاحهم بمطالعة هذا الكتاب •

والمدرس بالجامعة ضحية أيضاً من ضحايا الكتاب الجامعي ، ضحية وهو يعاني من أجل التأليف لغرض الترقية ، وضحية وهو يلتزم بتوزيع هذا الكتاب تبعاً لوعده ضروري قدمه للناس ، وضحية وهو يقف أمام لجان الضرائب تحاسبه بعنف وتطلب منه نسبة كبيرة مما ترى أنه حصل عليه من ربح في بيع الكتب ، وهنا يتساءل المؤلفون ، وبعضهم يكتب في الذممة ، وبعضهم يكتب في الطب ، وبعضهم يكتب في السياسة والآداب والأديان والتاريخ والحضارة ، هؤلاء جميعاً يتساءلون : لماذا يعفى مؤلفو الأغاني ومؤلفو الأفلام والتمثيلات من دفع الضرائب على ربح صافي أرباحهم وما أكثر هذه الأرباح ؟ ولا يعفى من ذلك المؤلفون في العلوم والآداب والاجتماع ؟ ألا تقف الذممة والفكر السياسي والعلمي أو ما ماثل ذلك موقف المساواة مع الأغنية والفيلم والتمثيلية (١) ؟

وننتقل الآن إلى نقطة أخرى هي أن القوانين الجامعية ترى التأليف معياراً يقاس به عضو هيئة التدريس ، وهذا يسلمنا إلى مجموعة من الأسئلة هي :

- ١ — هل حقيقة يدل التأليف على مكانة المعلم العلمية ؟
- ٢ — وهل حقيقة لا يرقى إلى الدرجة الأعلى إلا من أسهم بأبحاث وكتب منشورة في خدمة العلوم والمعارف ؟
- ٣ — وهل فحص الإنتاج يتم بطريقة دقيقة فينال كل ذي حق حقه ؟

في الإجابة عن السؤال الأول نكرر ما سبق أن أشرنا إليه من أن جودة التأليف لا تدل على براعة المؤلف كمعلم ، فكثيرون من المؤلفين يضيقون بالوقفة في المدرج ، وقد يعجزون عن السيطرة على جماهير الطلاب ، أو تكون أصواتهم غير قوية وكذلك كفاءة المعلم لا تستلزم

(١) كان هذا التصرف المشين في عهد عبد الناصر ، وقد صححت هذه الأحوال بعده .

مهارة في التأليف ، فقد يكون المعلم قادراً على فهم الفكرة من مراجعها وقادراً على نقلها إلى الطلاب ، ولا يستلزم هذا ملكة اقتراح مشكلة لم تكتب من قبل ، وإعداد مراجع لها ، ووضع خطة لبحثها إلى غير ذلك مما يتطلبه التأليف ، ولعل حاجة الجامعة إلى مدرس أشد من حاجتها إلى مؤلفين ، أو قل بوجه الدقة إن الجامعة إذا احتاجت إلى مائة مدرس مثلاً فإنه يكفيها عشرة من المؤلفين .

وفي الإجابة عن السؤال الثانى أقول فى إصرار إن الإجابة بالنفى ، وإن الناس جميعاً يرقون ، وأننا نغير فى التقرير لنجعله صالحاً كجواز مرور للدرجة الأعلى ، وأن أقصى ما تستطيع اللجان عمله هو التسوية قليلاً ، أو طلب مزيد من الأبحاث أو تأجيل سنة ، ثم تكون الترقية ، ولو لم يخسف شيء ذو بال إلى ما قدمه عضو هيئة التدريس من قبل ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول أن يقبل شخص ما عضواً فى هيئة التدريس بعد حصوله على الدكتوراه ، ثم يركن على الرف ، ويسبقه من كانوا بعده ، ليس هذا معقولاً ولا واقعاً ، فواقع الجامعة يقرر أن الصف يمشى كطابور الجند ، ولو أصبح اللاحق سابقاً لحصل صراع ما أجدرنا أن نتحاشاه .

اللجان الدائمة للترقية :

وفي الإجابة عن السؤال الثالث تجدنا وجهاً لوجه أمام لجان الترقية وبخاصة ما يسمى اللجان الدائمة ، والحديث عن هذه اللجان طويل ومريع ، وقد تعرضت الصحافة لها بكثير من النقد ، وأحصت عليها صوراً عجيبة من الانحراف ، وسأنقل هنا مذكرته جريدة الأخبار يوم ١١ من إبريل سنة ١٩٧٣ عن إحدى هذه اللجان ، يقول المحرر الأستاذ محمود عارف :

« شهدت قاعة لطفى السيد بجامعة القاهرة حدثاً لا يتكرر كثيراً .. فقد أصدر مجلس الجامعة برئاسة الدكتور حسن إسماعيل رئيس الجامعة قراراً بإجماع الأصوات بترقية اثنين إلى وظيفة أستاذ مادة الكيمياء ، وهما الدكتوران : انجيل حبيب وجمال مصطفى بكلية الطب وترقية الدكتور

سعد الزنفلى إلى وظيفة أستاذ بكلية الصيدلة ، وذلك على خلاف ما قرره
اللجنة العلمية .

« ولقد جاء إجماع مجلس الجامعة بأحقية الثلاثة فى الترقية بعد أن
تبين المجلس أن هذه اللجنة وقعت فى تناقض خطير مع نفسها . فهى توافق
على ترقية البعض وترفض الآخرين رغم أن أبحاث الفريقين واحدة . .
ونظرت أبحاثهم التى تقدموا بها للترقية فى فترات ليس بينها فاصل
زمنى كبير . . فقد عقدت اللجنة اجتماعاً فى يناير والثانى فى مارس من
العام الحالى .

« إن الأصل فى اللجنة العلمية أيا كان تخصصها إنها أعلى سادسة
علمية ؛ كلمتها هى القانون وأعضاؤها قضاة يحكمون بين الناس بالعدل .
لا تستهويهم الأهواء ولا تغريهم المنافع المتبادلة .

« ولكن ما حدث أمر يؤسف له ، لأن الأستاذية تسمو على الأحقاد .
وتعفى عن ارتكاب صغائر الأمور ، فهى رائدة تضيف ولا تهدم ، تشرى
الحياة الجامعية بالعلم النافع والخلق القويم . . ولا يكفى أن يرفض مجلس
الجامعة قرارات هذه اللجنة ، بل ينبغى أن يكون هناك الثواب والعقاب .
هذه ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن المجلس الأعلى للجامعات يبحث إعادة
تشكيل اللجان العلمية فى جميع التخصصات ، فهل لنا أن نطلب إعداد
صيغة قسم يؤديه أعضاء اللجان الجدد أمام رئيس المجلس الأعلى
للجامعات قبل توليهم مسئولية هذا العمل الخطير . وهذا أمر ليس
بجديد ، فهو نظام معمول به فى النيابة والهيئات القضائية » .

وكلمة الأستاذ محمود عارف قوية وصريحة لا تحتاج لمزيد من البيان ،
ولكنها تفتح لى الباب لتقديم دراسة تحليلية دقيقة عن أسباب هذه
« المزالق » التى تعرضت لها هذه اللجان .

وكلمة مزالق هذه مقتبسة من حديث صحفى آخر نشره الدكتور

عبد المغنى خلف الله الأستاذ بجامعة القاهرة بجريدة الأخبار في ٢٥/٤/١٩٧٣
يتحدث فيه عن مزالق بعض اللجان ونقاط الضعف فيها .

ولا بد أن الدراسة التي أقدمها هنا ترتبط باللجنة الدائمة للتاريخ ،
فمعرضتى بها أوسع وصلتى بها أعمق ، ولى معها تجربة تدعو للدهشة ،
وأنا أشير لهذه التجربة وأنا أستاذ وقد وصلت إلى أرقى درجات السلم ،
ولكنى أخاف على الأجيال القادمة أن يكون مصيرها فى أيدي هذه اللجنة .

وعندما أتعرض للحديث عن اللجنة الدائمة للتاريخ أجد أيضاً من
المعلومات التى لو درست لأمكن أن يتغير وجه هذه اللجنة ، والمعلومات
عندى على كل حال ، وأنا مستعد للدلاء بها لو اتجهت العناية لتصحيح
الأوضاع فى هذه اللجنة ، وأكتفى هنا بالقليل من القول حتى لا ننشر على
العالم أخطاء تردى فيها بعض من تلعب بهم الميول على نمط ما روته كلمة
الأستاذ محمود عارف .

وخلاصة ما أذكره هنا هو :

- ١ — هناك تعصب واضح لمعهد ضد معهد فى هذه اللجنة .
- ٢ — هنا أريد أن أقول إن اللجنة إما أن نصفها بأنها لا تقرأ الإنتاج
الذى يُقدَّم لها أو أنها لا تفهم ما تقرأ ، فليختر أعضاء هذه اللجنة أى
الطريقتين أيسر لهم ، وعندى الأدلة واضحة ومحددة على هذا القول .
- ٣ — فى حالات معينة استبعدت اللجنة ترجمات قام بها المؤلف من
اللغة العربية إلى لغات أجنبية ، بحجة أن الأصل العربى قدم لترقية سابقة ،
ونسيت اللجنة أو تناست ، أن النقل إلى اللغة الأجنبية عمل قائم بذاته ،
فالترجمة من اللغات الأجنبية أو إليها عمل علمى يحسب للمؤلف أو المترجم .
- ٤ — فى حالات معينة استبعدت اللجنة طبعات جديدة بها زيادات
مهمة بحجة أن الكتاب قد قدم لترقية سابقة على الرغم من تنبيهها إلى
التطور الكبير فى الدراسة فى الطبقات الجديدة التى حدثت بعد الترقية
السابقة .

وأساس العناء الذي ترزح هذه اللجنة تحته هو انتقال الأمر من الرعيل السابق إلى الجيل الجديد ، فيوم أن كان أساتذتنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور محمد عبد الهادي شعيرة والمرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة وأمثالهم يحكمون علينا كانت النزاهة طابع الحكم ، ولكن الأمر قد تغير يوم ضمت اللجنة زميلا سبق إلى الأستاذية فُضِمَ إلى اللجنة وأصبح يحكم على زميل له تأخر عنه عاماً أو عامين • وربما كان هذا أقدم منه تخرجاً أو أكبر منه سناً ، وفي هذا الجو ظهرت المنافسة بل الأحقاد •

ويندهش القارئ عندما يرى هذه اللجنة تجيز من لم تعرف المكتبة العربية له مؤلفاً واحداً ، وتعرقل أو تحاول أن تعرقل من شهدت لهم كل الأوساط العلمية في الداخل والخارج بالكفاءة ، ومن أثروا المكتبة بمؤلفات عديدة ظهرت طبعات متعددة منها •

وكلمة أخيرة عن هذه اللجان فإن عضويتها خالدة تقريباً ، ومعنى ذلك أن العضو فيها يتحكم في الطابور الذي يقف خلفه لأنه لا بد لهذا الطابور أن يمر عليه ، وليس هذا التحكم ظناً بل هو واقع تؤيده شواهد محددة •

وفي كلمة أخيرة أقترح أن يوقف نشاط هذه اللجان ، وأن تؤلف لجان خاصة لكل حالة ، لعلنا نقضى على هذا السيف المصلت على جماهير المثقفين •

عودة لمشكلة الكتاب الجامعي :

ولنعد لمشكلة الكتاب الجامعي لنقرر أن التأليف للترقية حَرَمَ المجتمع الجامعي من التأليف الهاديء الهادف المتمهل الذي لا يرمى إلا لخير الناس وخدمة العلم •

وفي ظل هذا التأليف المرتبط بالترقيات اختفى التأليف الجماعي أو قل ، وعن طريق التأليف الجماعي كان يمكن أن تزود المكتبة العربية

بطاقاتٍ يكمل بعضها بعضاً ليكون العمل في مجموعهِ ذخيرة علمية مفيدة ، فلو أن أساتذة التاريخ عَنُوا بكتابة التاريخ واتجه كل منهم لكتابة حقبة تخصصه ، لتكون من العمل الجماعي موسوعة ضرورية دقيقة في أقصر وقت ممكن ، ولو فعل ذلك أساتذة الفلسفة والقانون وغيرها من العلوم لعاد ذلك بالخير على المكتبة العربية وعلى المثقف العربي ولكن ذلك لا يتم في ضوء الوضع الحالي ، لأن التوقيت الزمني لا يوافق الجميع ، ولأن الاهتمامات مشتتة ، والعمل الفردي هو هدف الترقية الفردية ..

اقتراحات لحل مشكلة الكتاب الجامعي :

لقد وعدنا في مطلع هذه الدراسة أن نصف العلاج لهذه المشكلة ، فماذا عندنا لها من علاج ؟

والإجابة جريئة نسجلها في النقاط التالية :

أولاً : ينبغي أن نتذكر تماماً أن التأليف الحالي — بشكل عام — لم يخدم الفكر ، ولا يدل على نبوغ المدرس ، وإسهامه في خدمة الثقافة محدودة للغاية ، فينبغي أن يتوقف الإلزام به ليصبح التأليف بدافع الرغبة لا بدافع الترقية ، وهو بهذا سيقبل قلة ظاهرة ، وبالتالي سيزول عبء التكليف بشراء هذه الكتب .

ثانياً : كل الناس في مختلف الأعمال يرقون لمناصب دون تأليف بل بإجادة العمل الذي يوكل لبعضهم ، وإذا كان لابد من أبحاث علمية فينبغي أن تكتفى الجامعة بتقديم هذه الأبحاث مخطوطة أو مكتوبة على الآلة الكاتبة ، وتقوم الجامعة بنشر ما تراها ممتازاً منها ، وهذا أيضاً سيزيل الكثير من الكتب التي تخلق مشكلة الكتاب الجامعي .

ثالثاً : تهتم الدولة اهتماماً جريئاً وواضحاً بحل مشكلة مرتبات أعضاء هيئة التدريس ليُنَحَّى الكتاب تماماً من أن يكون مصدر رزق ، وسنتكلم بعد قليل عن الشكوى المالية لأعضاء هيئة التدريس .

رابعاً : يتوقف طبع المذكرات توقفاً تاماً ، فأكثرها للاستهلاك المحلي ولا يليق بالجامعة .

خامساً : وللمحافظة على المستوى العلمى للجامعة يوجه أكبر اهتمام لاختيار أعضاء هيئة التدريس من أول درجات السلم فلا ندع فرصة للتسلق والتسلل ، ويكون ذلك باختيار المعيدى من بين العشرة الأوائل لكل فرقة ، والتعرف على قدراتهم خلال عملهم بالدراسات العليا ويمكن الاستغناء عن أى واحد لا يثبت كفاءة ممتازة خلال هذه الدراسات . وإذا دخل المعيد هيئة التدريس بعد حصوله على الدكتوراه ترك له التأليف ليكون منطقة حرة بالنسبة له ، ويرقى بعد مدة معينة إلى أستاذ مساعد ، ثم بعد مدة أخرى إلى أستاذ ، على أن يكون للتأليف ميزة خاصة يحصل عليها من يؤلف شيئاً ذا بال ، فقد يسمى مدرساً متخصصاً ، ويكون للتخصص علاوة مالية كتلك التى تخصص لرئيس القسم تشجيعاً على التأليف الراقى الذى لا يلجأ له إلا الموهوبون ، وتظل هذه العلاوة تصرف للتخصص مدة ثلاث سنوات مثلاً ثم تقطع إلا إذا قدم عملاً جديداً فيه إبداع وموهبة .

وبمناسبة الحديث عن تربية المعيدى ليصبحوا أعضاء بهيئة التدريس ، أقرر أن من الضرورى أن نلاحظ فى توجيههم مواهبهم الذاتية وما بهم من حس وذوق حتى يصبح مدرس الأدب أديباً ، ومدرس العروض شاعراً ومدرس البلاغة بليغاً فصيحاً ، فبعض الدراسات تحتاج مع الاطلاع والبحث إلى حس وذوق وموهبة خاصة .

سادساً : يقرر القسم المنهج الذى يدرّس ، ويوصى بكتاب من اثنين أو من ثلاثة ليستعين به الطلاب ، سواء كان مؤلفو هذه الكتب ضمن هيئة التدريس أو خارجها ، ويتحتم على من يقوم بالتدريس أن يلم بالمنهج كله فى محاضراته ، ويحدد ثمن مناسب لكل ملزمة من الكتب المقررة وعدد مناسب من الملازم لكل ساعة من ساعات الجدول ، ويمكن أن

يكون ذلك في حدود ثلاثة قروش للملزمة ، وعشرين ملزمة للساعة من ساعات المحاضرات النظرية ، وفي الدراسات العملية ينظم ما يقابل ذلك .

سابعاً : تسهم أطراف متعددة في تيسير الكتاب للطلاب بوجه عام وللفقراء منهم بوجه خاص ، وأقترح لذلك أن يسهم المؤلف بنسبة مئوية من الثمن تخصص للطلاب جميعاً باعتبار الكتاب يباع منه عدد كبير ، فكأنه يباع بأسعار الجملة ، وتكون هذه النسبة بين ٢٠٪ و ٢٥٪ وتسهم الكلية بمبلغ تشتري به نسخاً تعادل ٥٪ من عدد الطلاب ، ويمكن أن يسهم صندوق الطلبة والحكومة أو الحكم المحلي بمبالغ مماثلة ، وتعار هذه الكتب للطلاب الفقراء بطريق المشرف الاجتماعي الذي يعرف هؤلاء الطلاب والطالبات .

ثامناً : يتم الاتفاق مع المؤلفين على عدم إجراء تغيير ذي بال عند إعادة الطبع إلا كل سنتين ، بحيث يمكن الانتفاع بالنسخ المعارة لدفعتين من الطلاب ، مع ملاحظة أن استعمال هذه الكتب مدة عامين سيقضى عليها تقريباً ، فلا بأس من تجديد الطبع مع الزيادات وتجديد الشراء على هذا النسق .

ولعلنا بذلك نكون قد وصفنا الحل الصحيح لمشكلة الكتاب الجامعي ، وأوقفنا سيل الكتب التي ليست إلا معبراً للترقية ، وهو معبر يخلق مشكلات جمة في نواح متعددة . والله الموفق .

استاذ الجامعة وشكواه المالية

الحديث عن شكوى أساتذة الجامعات من قلة مرتباتهم حديث مشهور .
ولكن ما جذور هذه القضية ؟ وما مدى العناء الذى يقاسيه هؤلاء ؟

أريد هنا أن أعرض هذه القضية بدقة ، فهى فى الحق ليست قضية الأساتذة وإنما هى قضية رأى العام ، قضية عشرات الآلاف من البيوت التى تتطلع لتلحق أبناءها كل عام بالجامعات ، ولكنها قلما فكرت فى الأساتذة الذين سيتلقون أبناءهم هناك ، وهذا فى الحق يسجل عتبا على رأى العام ، ونقداً لتفكيره ، فكيف تحرص الأسرة بمختلف الوسائل لينال ابنها درجات عالية فى الثانوية العامة حتى يلتحق بالجامعة . ولا تفكر إطلاقاً فى الجامعة التى ستتلقى هذا الابن ؟

هل الجامعة بناء شامخ يضم الأولاد ولا شىء بعد ذلك ؟

إن المربين يقولون إن الجامعة أستاذ وطالب ومنتبة ومعمل . وليس البناء الشامخ وقاعات المحاضرات إلا تحسينات أضافها التقدم المادى . وكان سقراط يعلم مريديه تحت ظلال الأشجار ، وكانت مساجد المسلمين تجذب العلماء والطلاب ، وطالما أخرجت للعالم خيرة العقول فى مختلف العلوم .

ويحدثنا التاريخ أن خلفاء المسلمين كانوا يصفون الهبات والمرتبات على المعلمين بشكل وصل أحياناً إلى حد الخيال ، فقد كان المأمون فى بيت الحكمة يعطى للمترجمين زنة ما يترجمونه من الذهب الخالص . فالذى يترجم كتاباً يأخذ ثقله ذهباً ، ولم تكن الكتب تكتب على أوراق ، وإنما على سعف النخل والقماش وأحياناً على قطع من الحجارة ، وهذا يدلنا على الأجر الضخم الذى كان يناله المترجمون والمفكرون ، ويحكون من الجاحظ أنه دخل البصرة مرة ، ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة . فسأله ميمون بن هارون : ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم الجاحظ وقال :

أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنحل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فأنصرفت عن البصرة وكان لي فيها ضيعة لا تحتاج إلى تجديد أو تسميد (١) .

ومعلم الجامعة ليس ككل المعلمين ، لأنه يعطى من عقله ، ويعرض قبله ، ويشكّل المادة من جديد ، فهو لا يعلّم كتاباً وضع له ، ولكنه يتحرك داخل المادة بفكره ، ويقترح ، ويضيف ، ويبتكر ، وهو يعيش مع الأبناء في مرحلة خطيرة ستبقى آثارها في نفوسهم بعد التخرج ، وهو يتلقاهم وثقافتهم عامة فيمنحهم التخصص الذي سيظل معهم طيلة العمر ، فدوره في تكوين الشباب خطير ، وحقه على الدولة عظيم .

وللأسف لم يتجه الرأي العام للتفكير في حياة الأساتذة والمدرسين في الجامعات ، مع حرص الرأي العام أن يلقي بأبنائه في أحضان هذه الجامعات ، وتصوّر معي أن جامعات العالم — وهي في أشد الحاجة إلى الأساتذة — جذبت علماءنا ومفكرينا وأغرتهم بالمال الوفير والراحة الجمّة فأخذتهم إليها ، فإلى من ستلقى الأسر بأبنائها ؟

بل هناك ما هو أشق من ذلك ، فقد اتجهت الحكومة إلى إصلاح مرتبات الأساتذة ، وصرّح رئيس الحكومة أن مرتبات الأساتذة تختلف عن سواها من المرتبات ، فقد بقي « كادر » الجامعة حيث وضع من أمد بعيد ، وتطور « الكادر » العام ، وكان لابد من أن تمتد يد الإصلاح إلى مرتبات أساتذة الجامعات ، واقترح رئيس الحكومة إصلاحات مرضية إلى حد ما ، ولكن للأسف وجِدَ من الآباء من يعترض على هذا الاتجاه الإصلاحى في اجتماع المؤتمر القومى (يوليو سنة ١٩٧٢) وحاول بعضهم غمز هذه المحاولة أو عرقلتها .

(١) معجم الآباء ج ٦ ص ٧٠ — ٧٦ .

وبعد هذا العتب الذى نوجهه للرأى العام نعود للمسألة لنقذارسها ،
ولنعرضها بدقة على الرأى العام ، ليعرف عنها ما لا يعرف .

من هم أساتذة الجامعة ؟

المدرس بالجامعة له تاريخ طويل قبل أن يصل إلى هذا المنصب ؛ إنه
ذلك الذى كان صبياً يكدر ، ويعمل أكثر من سواء من التلاميذ ، وكان
يحرص على كل حصة وعلى كل درجة ، وكان بالتأكد من أوائل الناجحين
وكثيراً ما كان أولهم ، وخاض مراحل التعليم على هذا النمط ، وفى اللىساس
أو البكالوريوس كان أول الناجحين أو من أوائلهم المعدودين .

ولهؤلاء الأوائل طموحهم وحقوقهم ، إنهم من الخامات الطيبة التى
تعتز بها الأمم ، وتتلقى الجامعة هؤلاء الممتازين لتبدأ معهم شوطاً جديداً
من البحث والدراسة ، فإذا كان المتخرجون الآخرون قد أخذوا يجنون
باللىسانس أو البكالوريوس نتائج نجاحهم ، فإن الأوائل الذين أخذوا
معيدتين بالجامعة راحوا من جديد يكدرحون ويذاكرون ويعيشون فى المكتبات
والمعامل عدة سنوات تحت ضنك شديد ليحصلوا على درجة الدكتوراه ،
وأكثرهم يترسكون إلى الخارج فى بعثات ليحصلوا على الدرجات العليا
منها ، وهناك فى الخارج تصرف لهم مرتبات تتناسب مع البلاد التى يتعلمون
بها ، وقد كنت طالباً بجامعة كمبردج بانجلترا ، وكانت تصرف لنا مرتبات
سخية ، وكان هناك كذلك مرتب خاص للملابس يصرف لنا مرتين فى العام ،
ومبلغ يصرف كل عام لشراء الكتب والمراجع ، وكان متوسط ذلك حوالى
مائة جنيه استرليني شهرياً ، وهو كما قلت مرتب سخى بالنسبة لنا ، هذا
بالإضافة إلى الرحلات العلمية الداخلية والخارجية التى تتحمل الدولة
تكاليفها .

وهناك عيون مفتوحة تنظلم لطلاب الدراسات العليا بالخارج ، وهناك
إغراءات واسعة تعرض عليهم ليعملوا بالخارج عقب تخرجهم ، وكثيراً
ما نجحت هذه الإغراءات فبقى أعضاء البعثات بالخارج ولم يعودوا إلى

مصر عقب حصولهم على الدكتوراه ، والذي دفعهم إلى ذلك ليس فقط ما تعرضوا له من إغراء مادي وأدبي ، بل ما كانوا يعرفون أنه سيكون مآلهم عندما يعودون إلى مصر ، فقد كانوا يعرفون أن الثلاثين جنيهاً أو الأربعين في انتظارهم ، وأن نصفها يدفع إيجار مسكن ولا يتسع النصف الباقي لتكاليف المواصلات والملابس ، أما المراجع والدواء والطعام فلا يبقى له في الميزانية نصيب .

ومع هذا فالكثيرون منهم يعودون حباً في الوطن ووفاء له ، ورغبة في خدمة الأجيال التالية ، وأملًا في تحسن الأحوال ، ولكن الحقيقة المرة طالما صدمت بعضهم هفقت توازنه عندما فقدت الميزانية توازنها ، وكثيرون منهم لم يستطيعون الزواج ، والمتزوجون لم يستطيعوا أن يربعوا زوجان وأبناءهم ، وبخاصة أن هؤلاء الأولاد بعضهم ولد ونشأ في أوروبا وأمريكا وذاقوا — لا أقول الترف — ولكن طعم الكفاية ، فلم يكن من السهل أن يعيشوا في الحرمان . وأرجو أن يقنع القارئ بأن الدكتور المدرس في الجامعة يقتضيه هذا المركز أن يسكن سكناً ملائماً ، وأن يلبس ويحيا هو وأولاده في مستوى لائق ، وأن يكون في ميزانيته نصيب للمراجع والدوريات وبعض الأجهزة التي لا تقوم حياته العلمية بدونها ، والتي يشتري أكثرها من الخارج ، وبما يسمى العملة الصعبة ، فإذا لم نحقق لأستاذ الجامعة هذه الضروريات فإنه لن يؤدي عمله كما ينبغي .

وقبل أن أسترسل أقف وقفة قصيرة تصّور من الواقع مصير نماذج من الزملاء ، حاولوا أن يعملوا بمصر ولكن قهرتهم الأحداث .

كان لنا زميلٌ عاد من أرض الشمال ، وكان قبل عودته يسكن مع أسرة عميدها يشتغل « قبطان » إحدى البواخر التجارية ، وفي مصر بدأ الزميل يتقاضى الثلاثين جنيهاً ، وحاول أن يجد مسكناً فسمع عن المئات أو الآلاف التي تدفع مقدماً أو . . . وراح يسكن في فندق فلم يكف مرتبه أجراً للفندق ، وعاش في دوامة هائلة ، وفي يوم تلقى خطاباً من عميد الأسرة

التي كان يسكن عندها يقول له إن باخرته ستمر ببورسعيد في يوم هذا .
ويطلب الرجل مقابلته للاطمئنان عليه .

وشدّ الزميل رحاله إلى بورسعيد للقاء الرجل ، وعلى ظهر الباخرة
سأله الرجل عن أحواله ، فوصفها الزميل إليه . وذكر له ما يعانيه في
حياته التي لا يبدو أنها ستصل إلى الاستقرار ، قال له الرجل : وماذا
يرغمك على هذا العناء ؟ قال الزميل : وكيف الخلاص منه ؟ وحينئذٍ تلقى
الزميل إجابة غيّرت مجرى حياته ، فقد قال له الرجل : ابق حيث أنت
على ظهر الباخرة ، وعد إلى رخاء العيش الذي ألفتته بالشمال . والتقطت
أرض الشمال هذا الزميل كنزاً من الفكر والأمل نظير مطالب الحياة
العادية .

وعندما كنت طالباً بجامعة "مبردج" ، أن معي زميل اسمه سعد
وهو أيضاً من أبناء المعادي وكان تخصصه بعيداً عن تخصصي ، كنت أدرس
في مجال الدراسات الإسلامية ، وكان يتخصص في النبات ، وبعد أن حصل
كل منا على درجة الدكتوراه سافر هو إلى أمريكا ليعمل هناك ، وعدت أنا
للقاهرة وللثلاثين جنيهاً ، أو بالخبط (سبعة وعشرين لا غير) وحدث أن
عرّضت عليه إحدى الكليات الأمريكية أن يعلم بها اللغة العربية .
على أن تدفع له مرتباً ضخماً يزيد عن المرتب الذي يتقاضاه كمختص
في النبات والتربة ، ولكنه اعتذر ، وقال : لست متخصصاً في اللغة العربية .
فتلقى عاصفة من الضحك ، وقيل له : ألا تستطيع أن تقرأ الصحف العربية
بلهجة عربية أصيلة ؟ ولما أجاب بالإيجاب . قالوا له : هذا نل ما يعطينا .
ومع هذا فقد أثر زميلنا أن يبقى حيث يقضى تخصصه ، ولم يكن في حاجة
إلى المال الزائد ليغريه بالتحول إلى مدرس لغة عربية ، وقال للمستولين :
إنني أستطيع أن أكتب لزميل متخصص في اللغة العربية ، والدراسات
الإسلامية ليحضر لكم ، وذكر اسمي لهم ، فرحبوا بي ، وقالوا في هذه
الحالة يصبح المرتب أكبر وأكبر .

وكتب لي صديقي سعد بذلك وذكر الرقم الذي يُسجل للعب ، وأذن

جذورى كانت قد تعمقت بمصر ، وكنت أجيد فيها كفايتى فلم أؤثر هراقها .
وعدد كبير من الزملاء سافروا فى صيف من الأصياف للخارج ، ومن
هناك أرسلوا استقالاتهم للجامعات واستقروا فى أعمال تدبر عليهم ربها
وغيراً ، وفرشوا بذلك من ضحك العيش الذى لاقتوه بمصر .

ولست أحب أن أسترسل فى ذكر هذه النماذج ، فهى أشهر من أن
نطيل عندها الوقوف .

على أن أساتذة الجامعات عندنا لديهم فرص لا تتوافر لسواهم ،
فالجامعات العربية كلها تقريباً تتطلع إليهم ، وطلبات الإعارة كثيرة للغاية ،
وتقتضينا مسئولياتنا العربية والعلمية أن نحقق لهذه الجامعات حاجتها
ما استطعنا ، لنبنى معها مستقبل أمتنا العربية ، والإعارة — كما أشرنا من
قبل — انتقال بمرتبة المدرس أو الأستاذ إلى حوالى عشرة أمثاله بالقاهرة
مع كثير من التسهيلات فى نواح مختلفة ، وعندما يعود المدرس من
الإعارة تواجهه من جديد نفس الصدمة التى واجهته وهو عائد من البعثة .

كلمة مهمة نعرض بها حديثنا عن أساتذة الجامعات المصرية بمناسبة
الإعارات لنتكلم عن قَدَرِنا كدولة تنتج الرجال وتعدّهم ثرواتها إذا
أنتجت الدول الأخرى مختلف الصناعات أو المعادن ، فقد حققت مصر
استقلالها كله أو أكثره عن تركيا من مطلع القرن التاسع عشر ، وأنشأت
المدارس والجامعات والمعاهد ، وخطت فى سبيل التقدم والمعارف خطوات
واسعة ، وعندما حصلت الدول العربية الأخرى على الاستقلال لم تجد
غير مصر ملجأ لها لتستعير منها المعلمين والمفكرين ليسهموا مع إخوانهم
العرب فى بناء دولهم وحضارتهم ، وقام المصريون بهذا الدور بنشاط
ملحوظ فى مختلف البلاد ومختلف الميادين الفكرية . وهكذا كان لبلادنا
الشرف أن أنتجت الرجال الذين حملوا المسئولية العلمية فى البلاد العربية ،
بل حملوها إلى البلاد الإسلامية كذلك ، ثم تعدوا هذا النطاق إلى دول
أخرى فى أوروبا وأمريكا اعتمدت على أبناء مصر فى دراسات مختلفة ،
وبخاصة فى الدراسات العربية والإسلامية .

وهكذا ينبغي لنا أن نتذكر دائماً أن لدينا طاقات من الرجال يمكن أن نفيد بها ونستفيد ، ويتحتم أن نعى بهذه الطاقات لتظل لنا وتنفع سوانا .
وآلا نهملها فنتركنا إلى وطن غير وطنها الذى نشأت فيه .

هذا وسيظل الأستاذ المصرى نموذجاً لا يباريه سواه فى نشاطه ومواهبه التى اعترف بها الجميع .

ولنعد لمرتب المدرس أو الأستاذ بالجامعات المصرية لنذكر أن بعض يعارون للجامعة الأمريكية فى قلب القاهرة ، وليس فى الإغارة للجامعة الأمريكية بالقاهرة اغتراب أو بعد عن الأهل والوطن ، ومع هذا فالمرتب يقفز قفزة واسعة فيصل أو يقرب من مرتب المعار للخارج ، مما يجعل المقارنة عسيرة بين الأستاذ بجامعة القاهرة ، وزميله الذى جذبتة الجامعة الأمريكية بميدان التحرير .

ونقطة أخيرة نختم بها حديثنا هى : مامرتب الأستاذ العراقى فى جامعات العراق ؟ والأستاذ السورى فى جامعات سوريا ؟ والأستاذ السودانى فى جامعات السودان ؟

لقد عملنا مع هؤلاء فى بلادهم ، وكانت مرتباتنا كمعارين مغتربين قريية جداً من مرتباتهم فى بلادهم ، حتى فى البلاد التى لم يتدفق فيها البترول كالسودان . ولا داعى لأن نذكر فى هذه المقارنة مرتبات الأساتذة الإنجليز والأمريكان لأن الخيال لا يلعب بعقولنا ، ولأن أهداها قومية وطنية أكثر منها مادية ، وكل ما نطلبه أن نحقق لأنفسنا وذوينا ضروريات الحياة بيسر لنتفرغ للمهمة الكبرى التى نتطلع لها عشرات الألوف من الأسر كل عام .

الدراسات العليا بالجامعة

الدراسات العليا تكوين جديد للإنسان الجامعي ، وهذا التكوين يتخذ وسائل جديدة غير تلك التي كانت تتبع مع الطلاب قبل الحصول على الليسانس أو البكالوريوس ، فالطالب في فرق الليسانس و البكالوريوس يتلقى محاضرات تشرح له المناهج المختلفة ؛ وفي كثير من الأحوال تتجه للاتساع أكثر من اتجاهها للعمق ، ولكن الحال يختلف في الدراسات العليا ، فليس فيها محاضرات ، وإنما هي إرشاد وتوجيه ، فالوجبة لم تعد تقدم للطالب ، وإنما عليه أن يعدّها هو بإرشاد أستاذه ، والفكرة لم تعد تلقى له وإنما عليه أن يبحث عنها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر تتجه الدراسات العليا للعمق واقتراح المشكلات وحلها أكثر من اتجاهها للاتساع والتعميمات ، فمرحلة الاتساع والدراسة العامة يفرض أن الطالب قد انتهى منها في فرق الليسانس أو البكالوريوس .

ففي فرق الليسانس يقود الأستاذ السيارة وعليه كل مسؤوليات المركب ، وفي الدراسات العليا يدرّب الأستاذ مريده على القيادة وعلى التزاماتها بإشرافه وإرشاده حتى إذا نجح قادها بنفسه بدون مرشد .

تلك هي الدراسات العليا كما تعلمناها وكما أوضحناها في كتابي « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » وهذا يجعل مهمة الدراسات العليا صعبة ويجعل الذين يستطيعون حمل أعبائها من الطلاب قليلين .

والدراسات العليا أساساً تتجه للمعنيين لتكوين الجيل الجديد الذي سيجمل عبء العمل في الجامعة بعد الجيل العامل ، وتوضع الوثائق والمكتبات والمعامل في خدمة هذا الهدف ويكون مع المعنيين أفراد آخرون من الموهوبين الذين يحاولون الحصول على الدرجات العليا ليكونوا أقدر على حمل المسؤوليات بالقطاعات المختلفة بالدولة ، فهم هدية الجامعات للمجتمعات ، ليحملوا لها أحدث ما أحرزه العلم من تقدم وكشف ، حتى يشير العمل في ضوء العلم ، فيتحقق بذلك ما يقوله الإمام الغزالي :

العلم بدون عمل جنون ، والعمل بدون علم لا يكون •

وأساتذة الجامعات يبذلون جهداً ضخماً لا يعرفه الكثيرون ، ويشرفون على طلاب الدراسات العليا ، فكثيراً ما يساعدونهم في اختيار موضوع البحث ، وموضوع البحث نواة لعمل يمكن أن يقوم به الأستاذ لنفسه وينسب له ، ولكنه يؤثر به تلميذه ومريده ، ثم يساعده في تخطيط البحث ورسم معالمه الكبرى ، ولا يدرك إلا العارفون مدى الفرق بين تخطيط وتخطيط ، وفي كلمة موجزة هناك تخطيط يجعل تنفيذ العمل عسيراً أو مستحيلاً وتخطيط آخر يجعل التنفيذ يسيراً وسهلاً ، ودور الأستاذ في التخطيط واسع إذ أن الطالب قليل الدربة في هذا المجال ، وليست له تجارب تساعده لوضع خطة حكيمة •

ويسير الأستاذ مع الطالب بعد ذلك يرشده إلى المراجع أو يمدّ به ، ويمنحه كثيراً من فكره وآرائه لتبدو في النهاية منسوبة للطالب ، وكثير من الحق قطع من قلب الأستاذ ، وعندما يكتب الطالب أجزاء من رسائله يتناولها الأستاذ ليقراها ويراجعها ويرشد الطالب إلى التحقيق والتحقق والزيادة والحذف ، ويضطر الأستاذ آنذاك يترك عمله هو ، وكتبه التي تنسب إليه لينجز عمل تلميذه ، إن الإشراف على رسائل الدراسات العليا نوع واضح من الإيثار ، يقدمه جيل إلى جيل خدمة للعلم وللإنسانية •

ماذا يأخذ الأستاذ نظير ذلك ؟

الإجابة أنه لا يأخذ شيئاً ، بل يعطي من وقته وجهده وفكره ويعطى عمله ، ولا أحد يدري بذلك تقريباً ، ومع هذا فالأساتذة راضون ومقبلون على هذا العمل ، وهم يطلبون الجزاء من الله ، ويأملون أن يكونوا بذلك قد أدوا حق الوطن •

ولكن لنا وقفة مع الدراسات العليا ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار . هالقانون يبيح للطالب الذي يحصل على تقدير « جيد » في الليسانس أو

البكالوريوس أن يتقدم للالتحاق بأقسام الدراسات العليا ، واعتقادي أن الحصول على جيد ليس كافياً على الإطلاق ، وما أجدرنا أن نعطي الحق لذويه ، وأن نقرر أن الدراسات العليا ينبغي أن تكون للموهوبين فقط ، أي يتحتم أن يكون هؤلاء حاصلين على تقدير « جيد جداً » أو « ممتاز » وبهذا نريح ونستريح ، فهناك طلاب طموحون ولكن لا ينبغي طموحهم على أساس سليم ، ويدفعهم هذا الطموح للالتحاق بالدراسات العليا مع تقدير « جيد » والحق أقول أن هؤلاء يتعثرون دائماً ، وأكثرهم يفشلون ، والذين يتمون دراستهم قل أن ينتجوا عملاً ذا بالاً .

وهناك اقتراح نثبته هنا ، وهو تقليد متبع في بعض جامعات العالم ، وذلك أن كل قسم من الأقسام يقترح كل عام موضوعات محددة للدراسة ، وتوزع هذه الموضوعات على المعيدين ، وما يتبقى منها يختار له أكفأ المتقدمين للدراسات العليا من خارج الجامعة ، ونحن بهذا نتحاشى رسائل كثيرة لا تخيف جديداً مهماً للفكر العلمى أو الأدبى .

وكلمة أخيرة عن مناقشة الرسائل ، أثبت فيها ملاحظة تحققت لدى من طول الخبرة ، هي أن مناقشة الرسائل لا تُعَدُّ في الواقع امتحاناً للطالب ، ولكنها في كثير من الأحوال « استعراض عضلات » يقوم به بعض المتقدمين ليثبت به مقدرة خاصة ، أو ليغمز به زميله المشرف على الرسالة ، وهذه الاتجاهات يتحتم أن نتوقف ، وأن تكون المناقشة موضوعية لا غير ، ثم إن المدة التي تقضى غالباً في المناقشة وبخاصة في الرسائل النظرية طويلة للغاية ، لأنها تمتد إلى خمس ساعات أحياناً أو أكثر ، وهي مملوءة بالهجوم والنقد ، ويحس المستمع أن الإعياء أصاب الطالب الذي يتناوب المهاجمون أدوارهم عليه ، ويجلس هدفاً لحراهم طيلة هذه المدة ، ثم تكون النتيجة منحه أسمى التقادير ، والذي نراه أن المدة ينبغي ألا تتجاوز الساعتين في الماجستير والثلاث ساعات في الدكتوراه ، وأن يجعل الممتحن هدفه إثارة أهم النقاط التي تحتاج إلى مزيد من الإيضاح أو الشرح ، لا أن

يستعرض صفحات الرسالة صفحة تلو صفحة ، ثم يتحتم أن يكون التقدير مناسباً للمناقشات التي دارت حول الرسالة •

والمأمول بهذا أن تكون الدراسات العليا أعظم جدوى للطلاب وللجامعة والمجتمع •

وبعد ... لقد وقفنا مع الجامعات ومشكلاتها وقفة طويلة تستحقها منا هذه الجامعات التي ترعى الفكر وتنمي العقل ، ولعلنا بذلك قضينا بعض الحقوق لهذه المنارات العظيمة •

في السودان

الروابط بين مصر والسودان :

ارتباط مصر بالسودان ارتباط وثيق ، خلقتة الطبيعة ، وعززه التاريخ ، وقواه الدين والدم واللغة ، ومن العبث أن توجد دوافع للفضل بين مصر والسودان ، فإن الإحساس العميق بين المصري والسوداني ينتصر دائما على الدوافع الشريرة ، ويعيد الحب والود بين الشغبين ، أو قل بين الشعب الواحد الذي انتصر أعداؤه مرة فقبسوه شعبين ، وكلما أدرك هؤلاء الأعداء أن وسائل التجمع ستكتسحهم وتقضى على مؤامراتهم ، كلما أدرك هؤلاء الأعداء ذلك شددوا من قسوتهم ، وزادوا من الحواجز التي وضعوها بين الشمال والجنوب ، ولكن ذلك كله إلى حين ، ولن يستطيع العشب الطفيلي أن يقف في وجه التيار الجارف .

وقد كان من وسائل الدوافع الشريرة لتجزئة الوطن الواحد ، أن أخفوا تاريخ جنوب الوادي على شماله ، وكان عيباً واضحاً أدركناه ونحن طلاب ووعيناه ونحن مدرسون وأساتذة ، فقد اتضح لنا أن تاريخ السودان لا ينال حقه من الدراسة ، وأن المصريين يعرفون من تاريخ فرنسا وإيطاليا وإنجلترا أكثر مما يعرفون من تاريخ السودان ، وإذا جهل المصريون ذلك فإن جهل العرب كان أشد وأشمل .

ولم يقنع الاستعمار بهذه التعمية ، بل راح يذيع غمزات تثير جزءا من الشعب على جزء آخر ، وتصوره في صورة تريد من القطيعة .

من أجل هذا رحبتُ بالدعوة التي وُجِّهت لى سنة ١٩٦٦ لأشغل منصب رئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية ، وكان مدير الجامعة هو الأستاذ الدكتور كامل الباقر ، والدكتور الباقر صديق قديم زاملنى فى الدراسة بكلية دار العلوم ، وزاملنى فى الدراسة بإنجلترا ، وعرفت فيه صفات جمة تجذب التعاون معه ، عرفت فيه تنوع المواهب وعمق الإخلاص ، وعرفت فيه العروبة الأصيلة والثقافة

الإسلامية الرفيعة ، ولهذا رحبت بهذه الدعوة واستجبت لها على الرغم من أنني كنت قد عقدت العزم عقب عودتي من رحلتي الطويلة بإندونيسيا ألا أرتبط برحلات طويلة أخرى في أية جامعة ، ولما خطر ببالي هذا العزم قلت لنفسي : إنني في السودان لن أكون غريباً ، وإن انتقلتي من جامعة القاهرة إلى جامعة أم درمان ليس إلا لانتقالاً من مدينة إلى مدينة داخل الوطن الواحد في أضيق حدوده ، واستقر الرأي على السفر .

وكان مما قوى الاتجاه للاستجابة أنني أردت أن أدرس المنطقة التي كنت وصلت لها في دراستي بموسوعة التاريخ الإسلامي ، وهي المنطقة التي تقع جنوب صحراء إفريقية ، والتي خصصت لها الجزء السادس من هذه الموسوعة ، فقد أيقنت أن هذه الرحلة ستتيح لي دراسة السودان وأنا بين أهله ، وأن أجمع مزيداً من المراجع عن هذه المنطقة لا تتوفر في القاهرة ، وربما استطعت أن أنتقل من السودان إلى سواء من الأقطار الإسلامية حوله ، وقد حققت هذه الرحلة كل هذه الأهداف أو أكثرها .

وكان هناك سبب آخر قوى عزمي للسفر للسودان ، ذلك أنني كنت دائماً أحلم بجامعة إسلامية بقلب إفريقية ، غالبلاً الإسلامية بقلب إفريقية لم تنتشر بها الحضارة الإسلامية بعد ، ولا تزال في حاجة إلى مزيد من الدراسات الإسلامية ، والبلاد غير الإسلامية المجاورة للأقطار الإسلامية تحتاج إلى من يقدم لها دعوة الإسلام ، فإن خريطة الإسلام تتصل بشعوب لادينية وينبغي أن ننقذ الناس من اللادينية أو من البدائية ونجذبهم إلى عبادة الله ، وكانت أحلامي تمتد فتصور لي أن جامعة إسلامية في أم درمان ليس من البعيد أن تفتح لها فروعاً هنا وهناك على الحافة التي يلتقي بها المسلمون بسواهم لتكون هذه الفروع مشاعن إسلامية على الطريق .

وفي جو هذا التفاؤل والأمل أعلنت استجابتي ، وبدأت أعد العدة لأرحل إلى الجنوب .

ذهبت إلى قريتي لأودع أهلي ، وبقيت بينهم بضعة أيام ، ولما عدت

للقاهرة راعنى أن عرفت أن رجال الشرطة يدقون بابى من حين إلى حين ،
وأنهم تركوا إخطاراً لى بأن أذهب لوزارة الداخلية فور وصولى ، ولكنهم
مع هذا يعاودون التردد على المنزل للتأكد من عودتى من الريف ، وليعيدوا
التأكيد بضرورة الذهاب لهذه الوزارة دون تأخير . وأسرعت للذهاب بين
الدهشة والقلق ، وهناك استقبلنى ضابط صغير الرتبة ، وسألنى :

هل تريد أن تذهب إلى السودان ؟

أجبت — وقد عرفت أن الموضوع يتصل بهذه الرحلة — : لا ، لا أريد .

لعماد يقول : عندنا أوراق من جامعة القاهرة تقرر أنك تريد الذهاب
للعمل بجامعة أم درمان .

فأجبت : السؤال واضح وإجابتى عليه واضحة . لا أريد الذهاب
لجامعة أم درمان وأنا مستعد أن أكتب لك بذلك الآن .

— إذا كنت لا تريد الذهاب فلماذا كتبت لنا الجامعة بذلك ؟

— اسأل الجامعة ؟ أو افترض أننى كنت أريد ثم عدلت عن رأىى .

وهنا دخل ضابط أكبر سناً وأعلى رتبة ، وتعرف على وجهى من
برامج التليفزيون التى أقدمها ، فرحب بى بحرارة طيبة ، وطلب لى بعض
المشروب ، وسأل عما جاء بى إلى مكاتبهم ، فقلت له : كأنك ترى أن الحضور
إلى هنا فيه شئ من الشبهة !! وضحكنا وأصبح الجو ودياً جميلاً ، وأطلع
على الأسئلة والإجابات فقال : ما هذا ؟ ، وأجبت بأن الرحلة إلى السودان
إذا كانت ستتلتزم أن ترسل أفواج الشرطة إلى بيتى عدة مرات خلال
الأيام الماضية ، وإذا كانت الرحلة إلى السودان ستتلتزم الحضور إلى
هنا وتستدعى هذا الاستجواب ، فإن فى يدي أن أعتذر عن عدم القيام
بها وكفى الله المؤمنين القتال . وذكر الضابط الأول أننى كنت قد فصلت
من الجامعة ، وأن هذا يستدعى بعض الإجراءات للسماح بالسفر ، فقلت

له : كان الفصل من الجامعة سنة ١٩٥٤ ، ونحن الآن سنة ١٩٦٦ ، وفي خلال هذه السنين الطويلة عينت بوظيفة ديبلوماسية ، وعدت للجامعة ، وأسندت لى كثير من الأعمال الهامة ، فهل لا يزال الفصل من الجامعة يلاحقنى ؟

وانتهت هذه الجلسة بالتراضى ، وشددت الرحال إلى عملى الجديد .

وفى السودان التقيت بأهلى ورفاقى ، وتحقق لى واقعياً ما كنت أفكر فيه ، الدم العربى ينساب فى كل وجه ، واللغة العربية الفصحى غالبية باهرة ، والإحساس برباط الود متبادل ، وتأثر بعض الناس بدعايات الاستعمار موجد ، ولكن غير منتشر ، وكان علينا أن نزيله ، وروى الدكتور كامل الباقر هفاقة شفاقة سمحة ، مع ذكاء نادر وعلم وفير ، ونائب المدير فضيلة الأستاذ مجذوب مدثر ثروة هائلة من العلم والخلق ، وأغاب الموظفين أصدقاء ودودون ، والطلاب كلهم إقبال وأمل . فى هذا الجو الحافل أمضيت عاماً وبعض عام ، وأمضيت هذا الوقت فى الجامعة وفى المجتمع ، علّمت فى الجامعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان ، وكان إقبال الطلاب عظيماً يدعو للبهجة والأمل ، ولقد حاولت أن أسكب لهم نفسى وأضع بين أيديهم معارفى ، وقد تلقوا بغبطة وشغف ما وضعته بين أيديهم ، حتى ليمكن القول إن الدراسة التى شرحناها كانت أطول من الزمن الذى قضيناه معاً .

أما مع الجماهير فكانت لى جولات فسيحة واسعة ، فقد كانت الهيئات والمدارس تدعونى لمحاضرات عامة فى المناسبات الإسلامية داخل الخرطوم وخارجها ، وكنت ألبى هذه الرغبة بكل ترحاب ، وأقدم لكل جيل وكل جماعة ما يتناسب مع فكرها وثقافتها ، وقد نظمت الجامعة دراسات لهيئات مختلفة ، وكنت أشارك فيها جميعاً ، فرجال الصحافة والإعلام قدمنا لهم دراسات مختلفة اشتركت فيها بنصيب كبير ، والأئمة ورجال الوعظ أعدت

الجامعة لهم حلقات دراسية قدمت فيها لهم الكثير عن الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان ، وكذلك فعلنا مع أمناء المكتبات ، وغيرهم ، وهذا جعل الجامعة مشعل نور للمجتمع كله .

الاستعمار والتبشير :

وقد خلق الاستعمار في السودان مشكلة كما خلق مشكلة في كل مكان نزل به ، فالأكراد في العراق ، والإسلام والمسيحية في لبنان ، وزنوج الجنوب في السودان . . . ولولا الاستعمار ما وجدت هذه المشكلات ، والاستعمار يَبْقَى في يده هذه الورقة ليلعب بها عندما يحتاجها ، فإذا لم يحتج إليها أهملها وألقى بها بعيداً ، ولما تم للسودان استقلاله ، وحسب أن الأمر أصبح بيده ، وحاول أن يلعب دوره الحر في السياسة العربية والإسلامية والحماية ، حرك الاستعمار هذه الأداة . والذي يتتبع تاريخ التبشير في إفريقية وآسيا يدرك أن المبشرين فشلوا تماماً في نشر المسيحية عن طريق الكنيسة أو عن طريق التبشير المجرد ، وهنا تحركت العقليّة الاستعمارية فاقترحت طريقاً للمبشرين لينالوا بعض النجاح . وكان أن أسلمتهم زمام التعليم . وتركت لهم ثئون المدارس . ثم أسلمتهم زمام الصحة وتركت لهم الإشراف على المستشفيات ، والطفل ضعيف المقاومة والمريض ضعيف المقاومة كذلك ، وبهذا استطاع المبشرون أن ينفذوا إلى نفوس الصبيان والمرضى وأن ينشروا المسيحية بينهم ، وأن يتخذوا من هؤلاء أعواناً لهم عن طريق وضعهم في وظائف حساسة عندما يشبثون أو يصححون .

وعندما أراد السودان أن يتحرك بحرية تامة أثار المستعمرون أدواتهم في جنوب السودان ضد الحكومة الشرعية والحكم الوطني ، وقادت المدارس والمستشفيات وخريجوها هذه الثورة ، فاضطرت الحكومة أن تؤمم المدارس والمستشفيات وأن تشرف عليها بإشرافاً مباشراً ، وأدرك المبشرون بذلك أنهم فقدوا الحصون التي يحتمون بها ، فثارت الكنائس على هذا القرار ،

فأمرت الحكومة الكنائس وأعلنت أنها ستشرف عليها وتعيّن بعض المسيحيين السودانيين لقيادتها ، وزادت الثورة اشتعالا ، واتخذت الغابات مقراً لها ، واستعانت بعصابات المرتقة •

والمهم أن تصرف الاستعمار في السودان طيلة الفترة الاستعمارية حال دون انتشار الإسلام واللغة العربية بالجنوب ، بل أضعف الدين وقضى على ما كان معروفاً من اللغة العربية كما فعل بالنسبة للغة العربية في الجزائر • وكانت النتيجة أنني لم أجِد أمامي بجامعة السودان أى طالب من أبناء الجنوب ، وكانت هذه مأساء طالما تحسرت عليها •

ولا تزال هذه المشكلة تعيش حتى الآن ، والإسلام لا يعرف تفاضلاً عن طريق الجنس ، وفي أحضانه التقت كل الأجناس والألوان ، ولعل ذلك يهيئ مستقبلأ أحسن لهذه المشكلة الخطيرة •

وقد حصل لى موقف فى الجامعة يستحق الذكر ، فقد كانت جامعة أم درمان تعتمد اعتماداً رئيسياً على المصريين ، وكنا بها نمثل حوالى تسعين فى المائة من أعضاء هيئة التدريس لمختلف فروع المعارف ، وظهرت فى الجو الحزبى همسات تتساءل :

— أليس من بين السودانيين من يستطيع أن يدرس التاريخ الإسلامى ؟

— أليس من بين السودانيين من يستطيع أن يدرس كذا وكذا •

وأراد الأستاذ الدكتور كامل الباقر — وهو عالم حصيف ذكى مخلص — أن يقضى على هذه الهمسات بطريقة عملية ، فدعا السيد الاستاذ الصادق المهدي لزيارة الجامعة وكان سيادته قد استقال حديثاً من رئاسة الوزراء ويقف قائداً للمعارضة التى تتبنى مثل هذه الهمسات ، وحضر رئيس الوزراء السابق ومعه بعض وزراء وزارته ، وكنت ألقى محاضرتى للفرقة الثانية عندما سمعت دقائق على الباب ، ثم انفتح الباب عن هذه النخبة الكبيرة من

القادة ، واستقبلتهم بسرور ، وعرضت أن يتفضلوا بالجلوس معنا رداً
من الزمن ليروا طرقنا الحديثة في تدريس التاريخ الإسلامى ، فوافقوا •

واندفعت أعرض رءوس مسائل عن مقدمات التاريخ : مجال التاريخ
الإسلامى ، فلسفة التاريخ ، مناهج التاريخ ، تفسير التاريخ ، الالتزام فى
التاريخ *****

ثم انتقلت لعصور التاريخ الإسلامى فوضعتها عصراً بعد عصر .
وأبرزت ضرورة أن تشمل الدراسة الدول المنسية فى التاريخ وهى تلك التى
تقع جنوب الصحراء الأفريقية أو فى جنوب شرقى آسيا •

ثم اثبتت للحديث عن الحضارة الإسلامية مبيناً أنها تشمل نوعين هما
الحضارة الفكرية والحضارة التجريبية ودور الإسلام فى كل منهما •

والتقطت السودان لأبين الدور الذى يمكن أن يقوم به فى خدمة
قضاياها وخدمة القضايا العربية والإسلامية بإفريقية بسبب موقعه كهمزة
وصل بين العرب والزنج •

وفى دقائق محدودة كنت قد استوعبت الخطوط البارزة للتاريخ
الإسلامى كله ، ووفقتنى الله فى ذلك العرض أروع توفيق ، فخرج هؤلاء
القادة وهم يقررون أن قلة من الناس تستطيع أن تدرس التاريخ الإسلامى
على هذا النحو ، وخفتت الأصوات التى كانت تتهاوس ظانة أن من اليسير
أن يستبدل بالمصريين غيرهم •

الدول العربية ونكسة ١٩٦٧ :

وموقف آخر ضخم عانىنا فيه هذه الفترة ، وكان للسودان فيه موقف
مشرف يذكر بكل خير ؛ ففى صيف سنة ١٩٦٧ حصلت الهزيمة المريرة التى
مُنينا بها ، وانقضت علينا هذه الحثالة البشرية تعربد وترمجر ، وكانت
من قبل كالفئران تعيش فى الجحور ، فهبت كالعاصفة تنال منا وتسيطر على

على أرضنا وتهزم جيشنا ، لأن سياسة هذا العهد الأسود وجهوا كل اهتمامهم ضد الشعب ، وعفلوا إلا عن مصالحهم الخاصة ، وقد عانينا شر عناء من هذه الهزيمة ، ولكن أكبر نصيب من هذا العناء حل بالمصريين الذين خانوا يحملون بالبلاد العربية ، فانتشر بسبب هذه البلاد العربية ترى مصر ملزمة بأن تدافع عن العرب وتنتصر ، وترى أن على مصر أن تعاني الجوع والحرمان لتعد أنجيوش وتشتري الأسلحة ؛ وأن عليها أن تنتصر ؛ فإن انهزمت فالويل لها ، ليس من اليهود فحسب ، بل من العرب ، الذين يتحتم أن يعيشوا في ترف العيش ، وأن تريق مصر الدماء والمال لتضمن السلامة لهؤلاء المترفين .

لقد عرفت في التاريخ الوسيط جماعات الأحابيش التي كانت تكثرى بالمال لتدافع عن قوم أو تشترك في الدفاع عنهم . وعرفت في التاريخ الحديث جماعات المرتزقة التي تقوم بنفس الدور . ويذكر التاريخ الوسيط والحديث أن هذه الجماعات كانت إذا هزمت وسقط منها عدد من القتلى في ميدان القتال ، فإن الأمم التي أكثرتها كانت تتقدم في الحال لتقدم لها تعويضات باهظة ولتشجع هؤلاء على استعادة مكانتهم ليستأنفوا تنفيذ الدور الذي عهد لهم به .

لو كانت قوى مصر من المرتزقة لاستحقت من العرب عندما انهزمت أن يقدم لها العرب التعويضات والتشجيعات الوافية . ولكن جنود مصر يحمون العرب بلا مقابل ، والويل لهم من العرب إن فشلوا في الحماية .

إنه قد رُمنا ، ونحن نرضى نستعد للكفاح وأن ننفق عليه قوتنا ونؤثره على حاجات أنفسنا ، وأن نسقط في الميدان ، ونهب من جديد حتى تلعو كلمة الله ، وليعش في الترف من يحب أن يعيش ، وليلازم الامبالاة من يحب اللامبالاة ، فلميادين القتال رجالها ، ولتتع الحياة هواتها .

وأغلب الظن أنه لم يخطر ببال أحد من العرب أن العدو يتربص بهم جميعاً ، وأن هزيمة فيلق عربي معناه سير العدو خطى أخرى للأمام

ليسيطرو على مناطق عربية جديدة ، فتخطيط العدو بعيد المدى ، وأطماعه تتصل بمناطق الثراء والمال بالوطن العربى .

كان على العرب بعد هزيمة ١٩٦٧ أن يلتزموا بدخول المعركة بعد أن ضعفت مصر عن احتمالها في تلك الفترة ، وأن يقفوا في صف واحد أمام اليهود ، ولكن الذى حصل أنهم وقفوا في صف واحد ضد مصر ، وأنزلوا سخطهم بالمدرسين المصريين والأطباء والمهندسين الذين يعملون ببلادهم ، وكم لاقى هؤلاء المكافحون من عدوان العرب عليهم ، ذلك العدوان الذى شمل السخرية والكلمات البذيئة والتهجم القاسى .

ماذا كان موقف السودان من هذه الأزمة ؟

الحق أن موقف السودان كان نبيلاً النبيل كله ، كريماً إلى أبعد حالات الكرم ، لقد قاسمونا مرارة الهزيمة ، وأحسست بالجرح ينساب في نفوسهم كما كنا نحس به وكانت كلمات العزاء والأمل دستور هؤلاء القوم الكرام .

لو كنت في أى بلد عربى وجرى لى ما جرى للزملاء لهرولت عائداً لبلادى كما فعل البعض ، ولكنى في السودان لم أحتج إلى ذلك ، وهذا الموقف كان عظيم الأثر في نفسى ، وأنا الآن أنقله من جنبات النفس إلى الكلمة المكتوبة الخالدة .

قضية الاعارة للخارج :

وهذا الموضوع يشدنى للحديث عن موضوع آخر ، ذلك هو قيمة المعلم المعار من قطر إلى قطر ، وأقرر أنه لا يعرف مايعانيه المعار الغريب إلا المعار الغريب نفسه ، وقد مررت بهذه التجربة مرتين ، مرة في إندونيسيا وأخرى في السودان ، مع أنى كنت موفق الحظ في المرتين فالشعب في إندونيسيا ، وفي السودان يعرف الرسالة الضخمة التى يحملها المعار

ويعده رسول الفكر ، ترك الأهل والوطن لينقل فكره وتجاربه إلى الآخرين ، فهو بذلك يقدم تضحية تفوق كل تضحية ، وليس هناك أى جزاء مادي يعدله ما يقدمه هذا المعلم ، والتاريخ يذكر أن الخليفة المأمون كان يقدم للمترجمين والمؤلفين بدار الحكمة وكرن أعمالهم من الذهب الخالص ، ولما تردد خازن بيت المال في ذلك مرة لأن أحد هؤلاء قدم أعماله العلمية مكتوبة على أشياء ثقيلة الوزن ، صاح به المأمون : أعطه دون تردد ، فإننا نأخذ منه الباقي ونعطيه الفانى ، نأخذ دماء قلبه ونعطيه حطاما ، وليس هناك شئ يكافئ دماء القلوب •

وحسب من لا يدرك الصعوبات التي يعانيتها المعار أن يتذكر أننا ونحن في الخارج مات أفراد منا وأعدناهم لمصر جثثا وكانوا قد ودعوها شبانا يفيضون بالحياة والحيوية ، وسقط آخرون مرضى وحملناهم إلى الطائرة ليلفظوا أنفاسهم الأخيرة في جنبات الوطن ، ومرض آخرون أمراضا بسيطة كالزكام مثلا أو الصداع ، وعجزت كل الأدوية أن توقف هذا المرض ، واضطر الأطباء أن يعلنوا أن الدواء الناجح أن يعود المريض لوطنه ، وعاد هؤلاء وعادت لهم الصحة عندما استنشقوا نسمات الوطن •

و في مطلع هذا القرن عندما أنشأنا الجامعات المدنية بمصر ، وفي منتصف هذا القرن عندما بدأنا حركة التصنيع ، والآن ونحن نبني جيشنا طبقا للنظم العسكرية والأجهزة العسكرية الحديثة ، كان لابد أن نستعين بأعداد هائلة من الأساتذة والخبراء ، وقد دفعنا أضخم المرتبات لهؤلاء وأولئك ، وأحسننا معاملتهم إلى أبعد حد ، وحاولنا أن نجعلهم ينسون آلام الاغتراب ، وقد يكون لى أن أقدم هنا مزيدا من التفصيل باعتبارى أعيش في ضاحية المعادى التى تضم عددا كبيرا جداً من هؤلاء الأساتذة والخبراء ، وأشهد أن سكان المعادى على اختلاف طبقاتهم يشتركون بطريق أو بآخر في تكريم هؤلاء الذين جاءوا من بلادهم لعوننا ونقل خبراتهم إلينا ، ترى ذلك في نادى المعادى الذى يترك المواطنون حقوقهم في الملاعب لهؤلاء الغرباء ، وتراه في المواصلات حيث يقدم المصريون ضيوفهم على أنفسهم ، وكذلك

ترى ذلك في دور العلم التي يلحق بها هؤلاء الضيوف أبناءهم ، وفي المحال التجارية التي يؤمها هؤلاء لشراء مطالبهم ، وهيئات أن ترى أنانياً أو مستغلاً إلا في القليل النادر مما يعد شذوذا لا تخلو منه أى بلد من البلدان .

على أن مصر لم تستقبل الخبراء والمعلمين فقط ، وإنما استقبلت آلاف الطلاب الوافدين الذين جاءوا إلى مصر يوم كانت وحدها موئل العلم في العالم العربى وفي إفريقية ، وقد كنت أستاذاً بكلية دار العلوم وبها طلاب من ست وأربعين جنسية عبر قارات العالم ، ماذا فعلت مصر مع هذه الجيوش الجرارة من الطلاب ؟ الذى لإشك فيه أن مصر أحسنت الإحسان كله لهؤلاء ولا تزال تفعل ، وأعطيناهم من التسهيلات والمساعدات ما يحصل عليه الطلاب المصريون ، ولا تزال نخصهم بكثير من العون ، ليس ذلك من المن فى شيء ، فقد كنا نعتقد ولا تزال نعتقد أن مصر للجميع ، وأنها وطن لكل غريب . ومما يدل على ذلك أن كثيرين استوطنوا مصر نهائياً ، أو أطالوا بها مدة إقامتهم ، أو سافروا وعادوا إليها ، وهذا شيء نفخر به ونعتز بالتمسك بحوافزه .

ماذا تفعل الدول العربية أو بعضها بالخبراء والأساتذة المصريين ؟

لقد بدأت الدول العربية تنشئ المدارس والجامعات بعد استقلالها ، أى في العقد السادس والسابع من هذا القرن ، ولم تجد الدول العربية غير مصر ملاذاً لها لتستعير منها مختلف التخصصات والخبرات ، وليست هناك دولة أخرى تنافس مصر فى إمكانها أن تعين أخواتها العربيات ، فالطبيب الإنجليزى أو المهندس الفرنسى لن يستطيع أن يؤدي عمله بسهولة مع جماهير أكثرها لا تجيد اللغات الأجنبية ، وقد حاولت بعض الدول العربية أن تستعير من الباكستان بعض الخبراء ، ولكن ظهر أن كل واحد من هؤلاء يحتاج إلى مترجم يلزمه . أما الدراسات الإسلامية واللغة العربية وآدابها فهي علوم تعدد وفقاً على الفكر المصرى الذى يجوب بها الأرض جميعاً لينشرها ويخدمها .

واستجابات مصر بكل معانى الكرم فأثرت الدول العربية بخير
أبنائها ، نعم بخير أبنائهما ، فقد كنا نقوم بامتحانات لاختيار أحسن
العناصر الراغبة في السفر ، وتقدم هذه العناصر الممتازة للدول العربية ،
ووضعنا أسساً للاختيار، تجعل أعلى الكفاءات أحق بالسفر •

ولقد كان طبيعياً أن تشكر مصر هذه اليد ، وأن تعترف هذه الشعوب
العربية بفضل الإشعاعات الفكرية التى يحملها المصريون إلى أبناء عموماتهم
في الوطن العربى ، وبخاصة أن الحاجة لاتزال ماسة وستظل ماسة
جيلاً وأجيالاً ، وبوجه أخص فيما يتصل بحملة درجات الدكتوراه الذين
يبدو أن مصر ستبقى المعين المهم أو المعين الوحيد لهم لمدة لا يمكن
التكهن بها •

هل شكرت الشعوب العربية مصر على موقفها الحافل بالإيثار ؟

وأنا أقول الشعوب وأعنى ذلك لأن عتبى متجه للشعوب ، ولأن
الهيئات الرسمية بالبلاد العربية تقوم بواجباتها على وجه مرض ولو لم
يكن ذلك لتوقفت هذه الإعارات ، أما الشعوب فنسمع عن معاملاتها للمعارين
المصريين بما يدفع للاشمئزاز ، ويالاهول ذلك إن كان صدقاً كله أو أكثره ،
وقد ظهرت مع هذه المعاملة كلمات قاسية مثل التعيش — الزحف المصرى •

ولقد سمعت عن مسئول مصرى كبير أحسن الله جزاءه ، أدرك
ما يعانيه المصريون في موقف معين ، فهتف : إذا كان هذا إحساسكم نحو
المصريين فنحن مستعدون أن نسحبهم لمصر في الحال ، وبالأضخامة الفراغ
الذى سيخلفه هؤلاء لو تم هذا التصرف ، وأعتقد أننا لانهب أن نفعل ذلك ،
ولكن لانهب كذلك أن يساء إلينا •

موقف مصر من الدول العربية :

هناك فكرة خطرت ولا تزال تخطر ببال الكثيرين هي أن تتفرغ مصر لنفسها رديحاً من الزمن تعيد بناء الحياة المصرية والقرية المصرية والإنسان المصري ، على نمط ما فعل الاتحاد السوفيتي الذي أحاط نفسه بسياسات أسموه حينذاك « الستار الحديدي » ولم يفتحه إلا عندما أعاد بناء نفسه في مختلف الميادين ، فخرج إلى الناس قوياً مارداً ، وعلى نحو ما فعلت الصين عقب ثورة ماو ، ولو فعلت مصر ذلك لحققت نجاحاً عظيماً ولقدمت لها إمكانياتها وسائل لنهضة عظيمة .

ولكن هذا الاتجاه لم يؤخذ به ، فقد غلب التفكير الذي يرى أن وضع مصر بين الدول العربية لا يجيز لها أن تعرض عن العالم كما فعل الاتحاد السوفيتي ، وكما فعلت الصين ، وأن التزام مصر نحو الدول العربية يحتم أن تقتسم معها حلو الحياة ومرها ، وأن مصر لو أدارت ظهرها للدول العربية عشر سنوات أو عشرين سنة ثم عادت لتتجه لهذه الدول فقد لاتجدها ، فكثير من الدول العربية لا تقوى على مواجهة الحياة وحدها ، ولو وقفت وحيدة في الحياة لمسيبتلها التيار ، وبقيت مصر تعيش للعرب ، وكانت هذه تضحية وإيثاراً في دنيا نرجو أن تعرف التضحية والإيثار .

تحية إلى السودان في ختام حديثنا عن السودان ، لقد كانت السودان بلادى طيلة إقامتى بها ، وكان أهلها أهلى ، وإني لأشيد بما نعمت به من ودء هناك خلال الفترة الخصبة التى أمضيتها مع الإخوة بجنوب الوادى .

اسات عامة

مقدمة

في رحلة الحياة هناك نقاط متناثرة مهمة لا تدخل تحت موضوع واحد ، ولا تحتويها فترة واحدة من فترات هذه المرحلة ، وقد جمعت هذه النقاط تحت هذا العنوان العام « لمسات عامة » ، وسيرى القارئ مدى مالهذه اللمسات من أهمية لافي حياة صاحب الرحلة فحسب ، بل في حياة كل إنسان بوجه عام •

زوجة الكاتب

كثيرون من المؤلفين يصدرّون كتبهم بإهدائها إلى الزوجة والأولاد ،
ذاكرين أن التفرغ لهذا الكتاب حرم الزوجة والأولاد من رعاية يستحقونها
وراجين أن يكون في إهداء هذا الكتاب لهم ما يعوّض هذا التقصير .

ولا شك أن كتبي طالما تسبّبت في حرمان زوجتي وأولادي من وقتها
كان يمكن أن ينعموا به لو لم تستول دراساتي على وقتي وجهدي ، وطالما
فررت من أولادي لأخلو إلى قلمي وعقلي ، أو أبعدتهم عني إذا حاولوا
أن يقتحموا على " خلوتي " ، ومع هذا فلم يخطر ببالي أن أهدي أي كتاب
من كتبي إلى زوجتي وأولادي ، وكنت أنظر إلى أي إهداء من هذا اللون
نظرة فيها شيء من الامتناع أو الدهشة ، فهذا الإهداء لن يعوّض الزوجة
ولا الأولاد شيئاً على الإطلاق . واعتقادي أنه شيء قام به شخص ثم
قلده آخرون حتى صار تقليداً أشبه بالروتين يقوم به بعض المؤلفين حتى
أولئك الذين لايسبب الكتاب لألهم أي لون من ألوان الحرمان .

وماذا يمكن أن ينال الصغير من سطور إهداء حملت اسمه ربما
قبل أن يعرف القراءة ؟ وماذا يمكن أن تنال الزوجة من هذه السطور ؟
ثم إن القارئ الذي اقتنى هذا الكتاب ، ماذنبه أن تطالعه الصفحة الأولى
بحديث المؤلف عن زوجته وأولاده ، وإذا صح أن هذا الإهداء يمنح
أي تعويض للزوجة والأولاد فأجدر به أن يكتبه المؤلف في نسخة بخطه
يقدمها لزوجته وأولاده دون أن يجعل ذلك إعلاناً يفرضه على من لا تهمه
هذه القضية ، وبخاصة أن المؤلف ليس وحده الذي يحرم آله من
المتع بسبب عمله ، فكثيرون من الموظفين والعاملين يقاسمون نفس
التصرف بدرجة أو بأخرى .

ومن أجل هذا لم أكتب قط إهداء من هذا اللون ، وجعلت صلتى
مباشرة بالقارئ دون وسيط يقدمني إليه أو قريب يستأثر بصفحة من

صفحات الكتاب ، ومن الحق أن أقرر أن زوجتى ترى هذا الرأى ولم تتوقع أبداً إهداء من هذا اللون .

ومن أجل هذا وجدت فى « رحلة حياة » فرصة لأتحدث عن زوجتى أو أتحدث إليها ، فهى شطر حياتى ، ولها دور مهم فى رحلة هذه الحياة ، والحديث عن زوجة الكاتب يستدعى أن أقص قصة تحمل المعنى الدقيق لطبيعة الكاتب وحقوقه ، فقد أحسست مرة باضطراب صحى فاتصلنا بعيادة الأستاذ الدكتور « أبو شادى الروبى » الأستاذ بكلية طب القاهرة ، وطلبنا من مساعد الطبيب أن يضع اسمى ضمن أسماء الراغبين فى أن يعرضوا أنفسهم على الطبيب ، وفى الموعد المحدد ذهبت إلى العيادة تصحبنى زوجتى ، وذكرت اسمى للممرض ومددت يدى بالأجر المحدد للكشف ، ولكن الممرض رفض أخذ الأجر وأسرع يخبر الطبيب بخضورى ، وسرعان ما حضر الطبيب بنفسه ورحب بى ودعائى إلى غرفته وتفرغ لى ، وأبدى سروره بلقائى ، قلت له : إن الممرض لم يأخذ أجر الكشف كأنه خدع بلقب دكتور وحسبنى طبيباً ، وأنا لست بطبيب فأرجو أن تأذن له بتسلم المبلغ المحدد ، فابتسم الرجل وقال : ليس الأمر كما توقعت ، فنحن نعرف أنك لست طبيباً ، ولكنى أعرف قدرك وأعدك من حقك على أن أشرف على صحتك وأعالجك . قلت له : إن دفع الأجر يشجعنى على العودة لك كلما أحسست بمرض ، ولكن الامتناع عن أخذ الأجر المحدد قد يخجلنى فلا أعود إليك إن احتجت إلى عونك ، فأجاب : ان أنت لم تحضر لى سعيت أنا إليك ، وأضاف إن الكاتب ثروة قومية ، ومن حقه على الأطباء أن يعنوا به ويحافظوا عليه .

تلك ومضة طيبة من الأستاذ الدكتور أبو شادى الروبى أحسن الله جزاءه ، ولكن كم من الناس فى المجتمع يحمل هذا الإحساس تجاه الكاتب ؟ وكم منهم يرى الكاتب على حقيقته ؛ عقلاً يشع للآخرين ويذبل وهو يضىء دنيا الناس وكم منهم يدرك العناء الذى يلاقيه الكاتب والمؤلف وهو يبحث

وينقد ويفكر ، ثم وهو يتعرض للنقد والهجوم بالحق وبغير الحق ؟ قلة قليلة من الناس تدرك هذا في الكاتب .

والأستاذ أنيس منصور كتب مرة ساخراً يروي أنه كان ينزوى بسيارته المتهاكة يوماً حينما وقفت بجواره سيارة فارمة أنيقة ، ثم أطلت منها فتانة (راقصة) وداعبته بسؤال مهم هو : أيهما أفضل الكتابة أو الرقص ؟ وابتسم الأستاذ أنيس منصور ، وقال مداعباً : وكيف لى بالرقص ؟ على أنه في أعماقه يقرر أن هذا هو قدرنا ونحن به قانعون .

ومنذ سنتين أو ثلاث سنوات ظهرت في ميدان الغناء فتاة ، وقد رأيتها آنذاك عند بناء التليفزيون العربى ، كانت تركب سيارة تاكسى ، وكانت ملابسها عادية ومظهرها بسيطاً ، وقد رأيتها حديثاً فذهلت ، إنها تركب سيارة فاخرة ، يقودها سائق مدرب ، يفتح الباب لها وينحنى ، وتلبس ملابس الأميرات أو الملكات . ولم أحسدها ولم أغبطها ، لأنى رضىت بقدرى وأخلصت الود لعملى ككاتب ومؤرخ ، وحسبى أن يوجد فى المجتمع قلة قليلة من أمثال الدكتور أبو شادى الروبى تعرف حق الكاتب وتكن له هذا القدر من التقدير .

وإذا كان الكاتب قد رضى بقدره ، وآثر أن يطمع فى الخلود أو يحلم به ، وفضل ذلك على رفاهية الحاضر وترف العيش ، فأنسى له بزوجة توافقه على هذا الاتجاه وترضى بهذا المصير ؟ وبخاصة إذا اعترفنا بحقيقة لا بد من الاعتراف بها ، وهى أن الكاتب مرهف الحس يصبح أحياناً كالطفل يحتاج إلى من يداخله ويهدده ، وهو لا يخضع لقوانين الروتين التى يخضع لها باقى الناس ، يتفقه تفكيره فى قضية ما أن يغيب عن الوجود فترة لا يحتمل خلالها صخب الحياة ولا مطالب المرأة ، ويغرق أحياناً فى عمل فينى كل ما حوله وكل التراماته ، ويعجز أحياناً عن حل مشكلة علمية يتدارسها ، فينعكس ذلك على نفسه اضطراباً وقلقاً ، فإذا انتصر على مشكلة وجد لها حلاً فرح ورقص ، وأنى للكاتب أن يجد له

زوجة تشاركه هذه الأحاسيس ، وتدله وتغفر هناته ، وترضى بأن تربط مصيرها فرحاً وحزناً بمشكلات الكتابة بدلا من أن تربطها بفخر الثياب ومطالب الحياة .

إن من العسير أن نجد زوجة من هذا اللون ، وأرجو ألا أكون بذلك قد باعدت بين الكاتب وبين الفتيات ، فمن الحق أن نقرر أن الكاتب عندما يجد الزوجة المناسبة يتخذ منها مصدر إلهام ، ويكتشف فيها مظاهر حسن يصعب على الآخرين كشفها ، ويضفى عليها من عبارات الحب سحراً تهيم به ، ويرى مطالبها قبل أن تراها هي ، ويسعد وهو يحقق هذه المطالب ، وسرعان ما تصبح من أسعد الزوجات وترى في الحياة بجواره أسعد حياة ، وإن كان بها نوع مما تراه الأخريات حرماناً وشظفاً ، وأشهد أن زوجتي (السيدة كريمة إمام) من هذا اللون وهي تبذل أقصى الجهد لتعاونني فيما ارتبعت به من أعمال .

إننى أستطيع أن أجزم أن بها استعداد الفنانة الكاتبة ، ولكن ذلك الاستعداد لم يوجهه التوجيه الصحيح في الوقت المناسب ، فوجدت في وسيلتها لتحقيق مآربها ، وهالها أن يكون زوجها كاتباً ، ومؤرخاً ناجحاً إلى حد معقول فراحت تصب نفسها لمساعدتى ما وسعتها الحيلة ، حتى يمكن القول بصدق ودقة أنه لولا جهدها ما وصلت إلى ما وصلت إليه على الأقل من ناحية الكم .

لقد كانت تعمل مدرسة بالمدارس القومية يوم أن قدر لنا الزواج . وكنت أسمعها تتحدث عن تلاميذها بحنان وإعجاب ، وكانت تقص على أحداث يومها وحياة زميلاتنا ، وأدرك من قصصها شدة ارتباطها بعملها ، ولذلك ترددت طويلاً قبل أن أطلب منها أن تتفرغ لى وتدع عملها ولكن استجابتها لى كانت أسرع مما توقعت ، وقالت وهي توافق : اننى بذلك سأشاركك في أعمالك الكبيرة ودراستك العلمية والجامعية ، فكأنك تنقلنى (م ١٨ — رحلة حياة)

من العمل بهذه المدارس إلى حياة أرفع وأعلى • وشكرتها ، وبدأنا حياة
أُسْرِيَّة متعاونة خصبة •

كنت أملى عليها أكثر ما أكتب منذ ذلك الحين ، وكانت تُعيد لى
المراجع ، واضطلعت بتصحيح تجارب المطابع فكنت أقرأ التجارب مرة
واحدة للتحقيق العلمى ، أما ماعدا التحقيق العلمى من مشكلات فقد تركته
لها ، وأجادت حمل مسئوليته • وكنت أكتب للتليفزيون والإذاعة والمجلات
والصحف كتابة سريعة بقلم الرصاص ، ولا أراه بعد ذلك إلا منسقا مرتبا
بأجمل خط وأدق نظام •

وقامت بدور السكرتيرة خير قيام وإن كانت لا تحب هذا اللقب ،
ولا أحبه لها ، فهى تتلقى المحادثات التليفونية وتأخذ مذكرة بها ، وتتصرف
بلباقة حولها •

وخطاباتى الكثيرة التى ألترم بكتابتها إلى المادحين أو الناقدين أو
الناشرين ، أمليتها بسرعة خاطفة لأجدها بعد حين منسقة معدة للإرسال ،
وما على إلا أن أوقع فى نهايتها ، وحتى هذا التوقيع أجادته ، فأصبحت
تقوم به ، ولم أخش ذلك ، إذ ليست لى ثروة ذات بال أخاف أن تتصرف
فيها بما يخالف رغبتى • وطالما استشرت فى بعض المواقف العلمية أو
الفكرية ، فأبدت رأيا حسيفا أخذت به ، وطالما قرأت لها ما كتبت أو قرأته
هى ما ترحت تعديلات ذات بال فاتبعت رأيها ، وهناك حقيقة يتحتم إبرازها
هى أنها تحب هذا العمل ، فهى لا تؤديه كواجب ، وإنما كربة ، ولا أذكر
أنها ضجرت منه يوما أو تكاسلت عنه • وفى كثير من الأحيان أكون
مشغولا بمشكلة علمية تؤرقنى وتقض مضجعى ، وأحيانا ألتقط — وأنا
بالفراش — الحل لهذه المشكلة ، وهى تغط فى نوم لذيذ ، وأوقظها أو تنيقظ
هى عندما أضىء النور لأدون هذه الفكرة ، وتكتب عنى ما أريد بدقة
وحنان ، وهى تقول : أمل ما تريد لعلك تستريح بعد ذلك فتنام •

وتنتقل زوجتي إلى طبيب ماهر عطوف عندما أشكو أى مرض ،
وتدفعنى للشفاء دفعا ، وأرانى مضطرا للإقبال على الشفاء إشفافاً عليها
وتهدئة لعواطفها الحليية .

* * *

وبعد ، هل يجب القارئ أن تكون زوجته كزوجتي ذكية شديدة
الارتباط بزوجها ؟ لست أدري ماذا ستكون عليه إجابات القراء ، ولكنى
أذكر أننى قرأت مرة دراسة قامت بها إحدى الهيئات بإيطاليا فقد اتجهت
هذه الهيئة بسؤال إلى مئات الشابات اللاتي يتطلعن لفتى الأحلام ، وكان
السؤال هو :

ماذا تحبين فى زوج المستقبل ؟

طويلا أو قصيرا ؟

غنيا أو فقيرا ؟

وسيما أو عاديا ؟

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

متوقد الذكاء أو عادى الذكاء ؟

واختلفت الإجابات حول هذه الأسئلة ، ولكن فى السؤال عن الذكاء .
اتجهت الغالبية المطلقة من الفتيات لرفض أن يكون الزوج متوقد الذكاء ،
وعلن ذلك بأنه يتحسس كل شىء ، ويتعرف كل هفوة ، ويقدر الأمور
بدقة العبقرى فيحاسب بناء على تقديره ..

وزوجتى فى الحق ذكية جداً ، وفيها مميزات الذكاء وسخافاتة ، أما
مميزاته فقد تحدثنا عن بعضها ، وأما سخافات الذكاء فمنها أننى لا أستطيع
أن أذنى عليها شيئاً إذا أردت ذلك ، ومنها أن حاسة الشم عندها حادة ،

فإذا صافحتنى امرأة تستعمل نوعا معينا من العطور عرفتته وتساءلت .
من أين هذا العطر إليك ؟ وهكذا بها نزوات الأذكىاء كما أن بها مآثر
الذكاء .

هل أستطيع أن أسترسل فأورد بعض المتاعب التى تثيرها زوجتى
أحيانا ؟ أغلب الظن أننى لا أستطيع ، فقد هددت* بأنها ستستعمل مقص
الرقيب وهى تعيد كتابة هذه السطور لتدفع بها إلى المطبعة ، ولذلك فمن
الأفضل ألا أستطرد فى ذكر هذه المتاعب ، وإن كان من الحق أنها قليلة
جداً ، وليس لها ثقل يذكر عندما توضع فى الميزان أمام الفضائل .

شئ مهم يتحتم أن أذكره ، هو أن للمرأة سلاحا تستعمله ضد
الرجل ، ذلك هو سلاح الدموع ، ولكن زوجتى عندها سلاح آخر أكثر
حدة ومضاء من سلاح الدموع ، ذلك هو المرض الذى يطرأ عليها بقسوة
عندما أغضبها ، فإذا حدث خلاف حول أمر ما وكنت صاحب حق سرعان
ما ترتفع درجة حرارتها ويسرع نبضها وتحمّر عيناها ، وأرانى مضطرا
أن أبعد الغضب عني لأصبح طبيبا يقدم الابتسامة والدواء ، واعتقادتى —
وأرجو ألا أكون مخدوعا — انها لا تصطنع هذا الاتجاه ، ولكنه سلاح
منحته لها الطبيعة لتنتصر به على* كلما كان من الحق أن يكون لى شرف
الانتصار .



وبعد ، هذه لمحة عن زوجتى « السيدة كريمة إمام » لعلى بها أكون
قد وفيت لها بعض دينها ، ولعلى بها أكون قد عوضتها عن الكلمات التى
يكتبها بعض المؤلفين لزوجاتهم فى صدر مؤلفاتهم ، ولعلى بها أخيرا
أدفع عديداً من الزوجات لتعاون كامل مثمر مع الأزواج ، وأدفع الأزواج
إلى العرفان بالجميل .

أولادى

زينة الحياة ، وقطع من القلب ، قضت ظروف حياتى التى ذكرتها من قبل أن أعيش بمنأى عنهم عدة سنوات ، عندما كنت أعمل بإندونيسيا ، وكانت لقمة العيش تدفعنى للغربة وحبى لهم يشدنى لأبقى بينهم ، ولكنى — من أجلهم — تغلبت على قلبى وسافرت وأطلت السفر ، فهم جديرون لذلك بكلمة هنا فى رحلة حياتى •

ولهم فضل يتصل بالناحية العلمية ، فطالما عملوا لى ، نقلوا من مسوداتى بعض المقالات ، أو صيخوا تجارب الطبع ، أو عملت يدهم الصناع فى إعادة ترتيب مكتبتى ، هفى حالات كثيرة آخذ كتباً من رفوفها ولا أعيدها لمكانها ، وتبقى كذلك حتى تمتد أيديهم وبخاصة البنات للمكتبة بالترتيب والتنسيق والتجميل، وإن كانت دراساتهم وأعمالهم الخاصة تستغرق أكثر وقتهم • أما الأطفال من أولادى فكانت ابتسامتهم توحى بالكثير من الإلهامات والإشراقات ، وكان لهم فضل من الناحية الاجتماعية ، فطالما ألزمنى براحة كنت منصرفاً عنها ، ودفعونى إلى أن آخذهم إلى نزهة أو رحلة ما كنت أقوم بها لولا رغبتهم وإلحاحهم ، وبهذا كانوا يعيدون لى النشاط لأستأنف العمل برغبة أكد وعزيمة أقوى •

والأولاد امتداد للإنسان ، فهو يعيش فيهم بعد أن ينتهى عمره ، ومن أجل هذا أبذل أقصى الجهد لأعيش فيهم فى المستقبل أحسن مما عشت بنفسى فى الماضى ، وأريد كذلك أن أربطهم بجهدى وتجاربى التى تؤكد أن الإخلاص فى العمل وحب الوطن والوفاء للدين تؤتى ثمارها طيبة ناضرة ، وتنعكس على النفس راحة وعلى القلب طمانينة ، وعلى المال سعة ، فالإخلاص الجم عميق الأثر فى حياة الإنسان •

يارب بارك أيامهم وألهمهم التوفيق ، واجعلهم امتداداً صالحاً يخدم اله ووطنه ودينه بكل أمانة وإيثارة ، مع الحب والتمنيات لسهر ورضاء وعادل وعبير وحسام الدين ووسام •

صورة شبابى

لدينا صورة مكبرة بالمنزل التقطت لى وأنا فى سن الخامسة والعشرين ، وهى توشك أن تنطق بالصحة والقوة والأمل والجمال ، رآها رفيق لى فوقف أمامها مبهوراً ، وسألنى : كم تدفع لتعود لمثل هذه السن مرة أخرى ؟ وأجبت فى حزم : لا أريد أن أعود على الإطلاق لتلك السن ، هل تريدنى أن أصارع من جديد ، وأكلفخ من جديد ، وأسير من جديد هذه المسيرة الطويلة ؟ لا ، لا ، لا ، إننى لا أقوى على الصراع مرتين . ومرحباً بالشعر الأبيض وبحاضر الحياة ومستقبلها ، وشكراً لعصر الشباب الذى احتمل مختلف المتاعب ليوصلنى إلى ما أنا فيه ، على أن للتقدم فى السن ميزة كبرى ، فعلى الرغم من أن الصحة لا تساعد على العمل الطويل ، ولكن التجارب المليئة بالخبرات تجعل الوقت القصير يمنح من الإلهامات والفوائد ما لا يمنحه الوقت الطويل عند الشباب . فالشباب لا يزال الفراغ يملأ نفسه والأوهام تلف عقله ، وإن أراد الشاب أن يتخلص من الفراغ والأوهام جدّ وكدح ليصل إلى غايته ، ولكنه سىرى نفسه آنذاك قد تقدم فى السن وتخلّى عن الشباب أو تخلّى عنه الشباب ، إنها سنّة الحياة .

قد يسخر الغنى من الفقير ، وقد يسخر الصحيح من العليل ، وقد يسخر الناجح من الفاشل ، ولكن من الخطأ أن يسخر الصغير فى السن من الكبير ، فكل شاب ليس له بحال من الأحوال — إن عاش — إلا أن يصبح كبيراً ، فهى خطوة لا بد آتية ، وحسبك أن تستعرض ماضى حياتك ، وترى ما قدّمته للوطن والدين والانسانية من خدمات خلال هذا الماضى . وتسعد أو تبتئس وأنت تراجع هذا الحساب ، وسترى أن مساهمتك الواسعة فى هذه المجالات تمنحك قوة وسعادة أكثر مما يمنح الشباب لجماعات الشبان . إن من حق الإنسان وهو يتطلع إلى شِعره الأبيض وإلى الأخاديد التى حفرها الزمن فى وجهه أن يتطلع كذلك إلى ما خلف من جهد وما أرسى من قيم وخدمات ، وذلك وحده هو المقياس الصحيح .

وفرة الإنتاج العلمى وتفسيره

ماذا قدمتُ للمكتبة العربية والإسلامية من ناحية الكيف ؟

ليس هذا موضوع بحث هنا ولكن البحث يدور هنا حول ما قدمتُ من ناحية الكم ، فهناك موسوعة للتاريخ الإسلامى ، وموسوعة للنظم والحضارة الإسلامية وسلسلة لمقارنة الأديان ، بالإضافة إلى كتب أخرى باللغة العربية أو الإنجليزية أو الأندونيسية والماليزية وقد شغل هذا العدد من الكتب أذهان بعض الناس ، فراحوا يتحدثون ويفكرون ، وربما وقف بعضهم مشدوها فاستسلم للظنون والخواطر ، متناسيا أن شيوخنا الأوائل كتبوا أضعاف ما كتبنا كما فعل الطبرى والاحمدهانى وغيرهما .

وعلى كل حال فإننى هنا أقف لأضع التفسير الدقيق لهذا الإنتاج ، وأول تفسير أقدمه هو عملية الترتيب والنظام ، فمؤلفاتى ليست جزافا ، وإنما خضعت لسياسة طويلة المدى ، فمئذ بدأتُ أكتبُ رسالتى للدكتورة عن « تاريخ التربية الإسلامية » قبيل منتصف هذا القرن وضعت خطة طويلة لدراسة الحضارة الإسلامية التى تعد التربية الإسلامية جزءا منها ، وقسمت الحضارة إلى سياسة واقتصاد وتربية ونظم اجتماعية وعسكرية ، وأعددت حافظة خاصة « ملفاً » لكل موضوع ، وأخذت أقرأ عن التربية وأجمع المادة عنها ، ولكنى عندما أقابل أى اقتباس أو أى مادة عن السياسة أضعها فى الملف الخاص بها ، وكذلك أفعل مع الاقتصاد والنظم الاجتماعية والعسكرية ، فلما انتهيت من دراسة تاريخ التربية وجدت عندى مادة لا بأس بها عن الموضوعات الأخرى ولما انتقلت إلى السياسة أقرأ مراجعها وأدرس مصادرها قابلتني نقاط مهمة تتعلق بالاقتصاد والنظم الاجتماعية ففعلت بها ما فعلته من قبل ، وهذا وفّر الوقت توفيراً ملحوظاً . ومثل هذا حدث فيما يتعلق بالتاريخ والأديان .

وهناك نقطة مهمة ترتبط بهذا الموضوع هي أنني لم أعرف الراحة بين كتاب وكتاب كما يحدث لكثير من الزملاء الذين يؤلفون في موضوعات مختلفة ، فإن الواحد منهم ينتهي من موضوعه ، ثم تمر به فترة راحة قد تمتد شهوراً أو سنين ريثما يخطر بباله موضوع جديد ليبدأ فيه ، ولكنى كنت أنتهى من جزء لأبدأ في جزء آخر بعد راحة قصيرة أو — أحيانا — بدون راحة ، وكان هذا أيضاً من عوامل السرعة في الإنتاج .

وعامل آخر ساعد مساعدة فعالة على السير في التأليف بسرعة ، ذلك هو الإصرار على التضحية من أجل الهدف ، وذلك هو تطويع النفس على الحرمان من النتائج المادية والمعنوية السريعة رجاء الوصول إلى نتائج أوسع وأشمل مع مرور الزمن ، ولأضع هذا في حقائق محددة أذكر أن الإعارات للخارج لم تجتذبنى قط مع ما فيها من إغراء مالى ، وكنت أحيانا أطلب شخصياً فأعذر ، فقد كانت القاهرة مركزاً أساسياً لى فى كثير من الأحيان بسبب وفرة المراجع وضرورتها ، وبسبب أن الأقطار الخارجية تستنفذ طاقة المعار لتستفيد منه أكبر فائدة ، وتقدم له ما يغريه بالعمل الإضافى الذى لا يدع نشاطاً للتأليف والتفكير . أما رحلتى إلى إندونيسيا فقد كانت لضرورة خاصة . وكانت رحلتى إلى السودان ذات هدف علمى واضح .

ويدخل فى هذا النطاق موقفى من المحاضرات الإضافية أو المقالات التى تطلبها المجلات والصحف . فلم يجتذبنى هذا ولا ذاك مع ما فيه من فائدة سريعة لأنه استنفاد لجهد رأيت دائماً أن يوجه لخدمة المدى البعيد .

وعامل ثالث كان عظيم الأثر فى الوصول لهذه النتيجة ، ذلك هو طواعية اللغة والقدرة على الأداء فإذا كانت عندى فكرة فإن نقل الفكرة إلى عبارات جميلة سهلة مسترسلة كان دائماً يسيراً . والحق أن كثيرين من المؤلفين يجيدون الأفكار أو يسعون لإجادتها . ولكن بقدراتهم اللغوية

محدودة للغاية ومعرفتهم بقواعد اللغة وأساليبها ضئيلة ومع ذلك لا يتجهون لرفع مستواهم في هذا المجال • وتراهم وهم يكتبون كأنما ينحتون من صخر • إن اللغة وسيلة ضرورية لمن يعاني التأليف ويمارسه وبدون السيطرة على اللغة يظل التأليف قاصراً •

والحديث عن اللغة العربية بالنسبة للمؤلفين العرب يقودنا لمقارنة خطيرة ، هي أن الطبيب الإنجليزي والمهندس الإنجليزي والمؤرخ — الإنجليزي •••• أقدر على لغته من الطبيب والمؤرخ والمهندس العربى أو قل المصرى بوجه خاص ، وما يقال عن الطبيب الإنجليزي يقال عن الطبيب الفرنسى أو الألمانى •

إن طواعية اللغة عامل مهم بالنسبة لكل من يمسك القلم ليكون مؤلفاً ، وبدون اللغة الطيبة نفقد الأداة السليمة السلسة للتعبير عن النفس ، وقد كنت يوماً شاعراً كما ذكرت من قبل ، فلما تخلّيت عن الشعر أو تخلّى الشعر عني بقيت المقدرة على التعبير الجميل سلاحاً رائعاً يسرّ على كتابة ما جال بالخاطر أو مادبره العقل •

وعمل رابع وأخير أقدمت عليه بحزم ، ويمكن القول إن قليلين قد استطاعوا أن يتقدّموا عليه ، ذلك العامل يتمثل في زوجتى التى طلبت إليها أن تتخلّى عن عملها لتتفرغ لمساعدتى على نحو ما شرحت من قبل • وربما كان مرتب زوجتى يدعو للاغراء ، لأنه وصل آنذاك رقماً عالياً ، وكان المستقبل يوحى لها بالمزيد من الرقى ، وكان عملها سهلاً فقد كانت قبل أن تستقيل تشغل وظيفة « عضو فنى » ، وكان مقر عملها على بعد خطوات من المنزل ، ولكن كل ذلك لم يخدعنى ، ووجدت في بقائها بجوارى ما يساعد على مزيد من النجاح في العمل والسرعة فيه ، فأثرت ذلك دون تردد ، وكان لهذا وزنه الكبير في سهولة سير العمل •

تلك هي الأسباب الحقيقية العملية لكثرة الإنتاج ، وهي نموذج لمن شاء أن يرى ، ولأن يتطلع للمدى البعيد دون أن يدع نفسه فريسة لومضات خير لا تلبث أن تنطفئ وتذهب أدراج الرياح •

وقبل كل شيء وبعد كل شيء هناك عون الله وتوقيقه ، والمدد الضخم الذي نتلقاه منه ، فيدفع عجلة الحياة إلى حيث يشاء وأهب الحياة •

الترشيح لمجلس الشعب

لم يكن في الحساب قط أن أرشح نفسي لمجلس الشعب ، فهو شرف لم أجدنى يوما ما مؤهلا لمباشرة ، ومسئولية لم أحس قط أنني أستطيع حملها ، ولكن الظروف دفعتنى دفعا لأصبح مرشحا أو على عتبة الترشيح ، فأفادنى هذا الموقف فائدة كبرى ، وتعرفت على معالم للحياة لم يكن من اليسير أن أتعرف عليها •

بطريق المصادفة البحتة حضرت سنة ١٩٦٩ اجتماعا في مدينة « أبى حماد » عقد لتختار القيادات مرشح الدائرة لمجلس الشعب ، ومدينة « أبى حماد » هى مقر الدائرة التى تقع فيها بلدتنا ، وكان رئيس الاجتماع زميلا كريما هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو هاشم ، وهو خطيب ممتاز وعالم فاضل ، سيلر بلباقة على الاجتماع ، وأثار في الحاضرين إحساسا بمقدرته ومكانته في مجال السياسة واللغة ، وبعد أن خطب فأجاد بعثت له ببطاقتى ، وعليها تحية ورجاء أن يمنحنى فرصة لكلمة قصيرة ، وعرض الأستاذ محمود أبو هاشم هذه الفكرة على الحاضرين بأدب جم قائلا: إن أستاذة يحضر هذا الاجتماع ، ومن الوفاء أن يير التلميذ بأستاذه ، وأن هذا الأستاذ (وذكر اسمى) يطلب الكلمة وطلب رأى الحاضرين ، فوافقوا بالإجماع •

لقد وصفت آنفا مكانة الأستاذ محمود أبو هاشم بين الحاضرين ، وكان أغلبهم لا يتوقع أن هناك من يفضلهُ أو حتى يماثلهُ ، فما بالك أن يوجد أستاذ له ، وأنا لم أكن أستاذًا للأستاذ محمود ، ولكن أدبه العالى وضعنى في هذا المكان • والمهم أن الحاضرين استقبلونى أروع استقبال من كان يعرفنى من قبل ، ومن كان يسمع عنى دون أن يرانى ، ومن سمع عنى خلال هذا التقديم الكريم •

وانطلقت أتكلم ، وشددت أسماع الحاضرين بحديثى ، ذكرت أن

دائرتنا في موقف دقيق ، إنها على خط النار ، وينبغي إعدادها اعداداً خاصاً لتقوم بواجباتها تجاه الوطن ، وأن ممثل هذه الدائرة مسئول عن هذا الواجب ، وناديت بأننا لا يمكن أن نخلى بلدان الدائرة بلداً إثر بلد أمام العدو الزاحف ، بل لابد أن نصمد ونموت في المعركة ، ويتحتم أن يكون الفلاح مزارعاً ومحارباً ، وكذلك يكون التاجر والموظف بهذه الدائرة ، وذكّرت الحاضرين بما قدمناه من جهود في الحملات المختلفة التي تعرضت لها بلادنا حتى شرفت بيوتنا وأسرنّا بأعداد كبيرة من الضحايا والخسائر. ونحن نقف على باب قطرنا المجيد ندافع عنه بإصرار واستماتة •

وانثنيت لواجبات مجلس الشعب في هذه الحقبة المريرة ، ذاكراً أن هذا المنصب لم يعد للترف وإنما للكدح والجهد •••••

وعندما انتهيت من خطابي كانت هناك همسات بأن هذا المتحدث ينبغي أن يكون ممثل الدائرة في مجلس الشعب ، وعدت إلى قريتي دون أن أحس بهذه الهمسات أو دون أن أعلق عليها ، ولكن سرعان ما انهالت الوفود على منزلي تطلب مني أن أرشح نفسي وتبايعني على الاستجابة • ولم تنقطع الوفود من كل قرية ومن كل تجمع ، وشاهدت ما يمكن أن يسمع إجماعاً على ترشيحي •

نكان الناهب بالريف وتكريم المعلم :

وانفعلت انفعالا سيّطراً على علمني كثيراً مما لم أكن أعلم ، إنهم يتهمون قرانا بالجهل ، ويتهمون أهلينا بالريف بأن المال والرشوة تحرك وجدانهم ، والذين يقولون هذا هم الذين لم يعرفوا الريف ولم يتدارسوا أحواله وقيم الحياة فيه ، ليت هؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد جاءوا إلى دائرتنا ليروا وليسمعوا كيف تصرف الناس وماذا قالوا ، لقد كانت الدائرة كلها أصواتاً تهدر بالترحيب وهتافات تحمل التحية ، وتجمع طلاب الجامعات على اختلاف ثقافتهم وكأنني أستاذ لكل

منهم ، طبعوا المنشورات على حسابهم ، وطاقوا بالقرى يحملون ماسموه بالبشرى ، والتقى المتعلمون هنا وهناك يؤيدون ويبياعون ، واستجاب الزارع والتاجر والصانع بشيء من الزهو لأنهم سيعثون أستاذا بالجامعة ليخون ممثلا لهم بمجلس الشعب ، ولم يطلب الناس منى مالا ، ولا طمعوا في عون ، وإنما جاءت وفودهم تطلب شيئا واحدا هو أن أزور القرى ليتم لقاء بينى وبين الجماهير التى اتبعت بى دون لقاء ، أما أهل بلدتنا « عليم » فقد تخلوا عن أعمالهم وأهملوا مصادر رزقهم وتفرغوا للدعاية والزيارات ، وراح كل منهم يتجه إلى أقاربه وأصدقائه فى تلك القرية أو هذا النجع ، ورحلت أزور البلاد فيستقبلنى الناس بسرور وغبطة ، وكانت زغاريد النساء ترتفع فى الجو ، وتحيات الرجال تملأ الأسماع والقلوب ، وتقربت للمتعلم ولغير المتعلم بكتبى فقدمت مجموعات منها لبعض البلاد ، كما ألقيت كلمات فى حشود الناس ، وكانت لغة العلم وسيلة قوية للقربى ، وطريقا سهلا للنفوس .

وأذكر أننى ذهبت مرة للعزاء ، ولكن أهل الفقيد اقترحوا أن ألقى كلمة فى السراى بين جموع المعزين ، ولم أكن أنوى الكلام ، فموقف العزاء لا ينبغى أن يستغل فى الدعايات الانتخابية ولكن رغبة الناس دفعتنى إلى حديث طويل عن فلسفة الحياة وعن فلسفة الموت ، وعن الفكر الإسلامى فى الحياة بعد الموت ، وعن آداب المآتم ، وعن التراماتنا لنؤدى واجباتنا فى الحياة ، واستطردت فى استحياء إلى مناسبة الانتخاب ، ولكن الناس شجعونى على الاستطراد فى القول بأن ألقوا بعض الأسئلة ، وكانت مجاملة طيبة منهم ، أن يتيحوا فرصة لى لأتكلم فى جموع من أكثر القرى المحيطة بنا ، ومن المجاملات التى أذكرها متصلة بهذا الموقف أن بعض المعزين من قرى لا تدخل فى حدود دائرتنا جاءوا يطلبون منى أن أجعل ترشيحى عن دائرتهم ، فلما أخبرتهم بأن هذا غير ممكن راحوا يغبطون أهل دائرتنا على ارتباطى بها .

وهناك مجموعة من الشبان فى بلدة مجاورة لنا اتصلوا بالمرشح المنافس

وطلبوا منه عدم نزول بلدتهم منعاً للفتن والاضطرابات .

لقد كانت موجة رضا بالغة الحسد في الروعة ، تركت في نفسي أدليب الذكريات ، وربما يسألني القارىء عن نتيجة الانتخاب فأقول له : إن الترشيح لم يتم فقد تبين لنا أن مرشح الدائرة لابد أن يكون في جداول الاتحاد الاشتراكي بها ، وأنا لم أكن أحب الاتحاد الاشتراكي ولا أوثق به ، ومع هذا كنت للأسف عضواً به في نطاق عملي بالقاهرة لا بالريف . وجرت محاولات لنقل القيد ولكنها لم تتم ، وعدت أدراجي إلى القاهرة وبمضي الحبيب الذكريات بالنسبة لآلنا في الريف الذين دالما ظلمهم القواد . لقلة تعرفهم عليهم ، ولو عرفوهم لأدركوا أن المحتد الحبيب والانس الدلية والإباء والشمم تتخذ من الريف مكانها المختار .

تحية لدية تحمل اعمق عرفان بالجميل إلى باءتنا ، اما جديها ، واني اولئك الذين وقفوا بجانبى وبذلوا أقصى الجهد لمساعدتى ، واستاذى هنا أسماء هذه القرى وهؤلاء الرفاق خوفاً من أن أنسى بلداً أو شخصاً فيسى ، ذلك إلية ، وبإسهم العام الذى زعمونى به اعلمهم على حدهم الذين والدين بكل إخلاص وعمق من أى موقع أقف فيه .

كيف نتعرف على المرشحين بالمدن ؟

بقيت نقطة مهمة تتصل بالانتخابات أعرضها رجاء أن نجد لها حلاً . لقد رُشِّحت في دائرتنا ، وكان سهلاً على أهل الدائرة أن يعرفوا نكلى عنى وعن سواى من المرشحين ، فعائلات الريف بينها اتصال واضح . ويمكن أن نتعرف بيسر على كل النواحي التى تهم الناخب فى المرشح .

ولكن كيف يمكننا أن نحسن الاختيار بالمدن التى لا يعرف الجار فيها جاره ، ولا يعرف الساكن فى عمارة شيئاً عن السكان الذين يسكنون معه نفس العمارة ، وقد رأيت فى المعادى حيث أسكن عشرة من المرشحين بعدهم

من حلوان وبعضهم بين طرة أو دار السلام أو المعادى ، ووجدتني لا أعرف شيئاً عن أى منهم ، وسألت بعض الناس فلم يكن المسئول بأعلم من السائل ، ووقفت حائراً ، وأخيراً قررت ألا أدلى بصوتي ، أو بلغة أخرى ألا أضع صوتي حيث لا أعرف مقره ، وآثرت أن أدفع الغرامة على أن أختار لمجلس الشعب من لا أعرف عنه شيء ولا عن صلاحيته أية إشارة •

لقد كانت الأحزاب من قبل تختار لنا ، فكان انتخاب الناس لمرشح الوفد مثلاً معناه حرصهم على أن يجيء الوفد إلى الحكم بمبادئه واتجاهاته ، ولكن بعد إلغاء الأحزاب اضطربت الأمور ، ولذلك أقدر أن المجالس البرلمانية بدون أحزاب هيئات لا أساس لها ولا أمل فيها ، وهي تمثل الحاكم ولا تمثل الشعوب •

طلاب الجامعات من ريفنا وحياتهم في بيتنا

عندما كنت طالباً بالتعليم العالي كنت ملتحقاً بالقسم الداخلى . وكانت دار العلوم تهييء لنا المسكن والزاد ، وعلى هذا نجوت مما يعانيه الطلاب في القاهرة المزدحمة من عناء البحث عن مسكن يعيشون به ، ولكن نجأتى من هذا لم تدعنى جاهلاً بما يقاسيه الآخرون ، فقد زرت بعض الزملاء من مختلف الكليات وشاهدت كيف يعيشون ، فوجدت الكثيرين منهم يعيشون في الحارات والأزقة ، ووجدت الطرق إلى مساكنهم بعيدة عن النظافة ، ورأيت جماعات الذباب توشك أن تطارد السكان ، واحتجت مرة أن أتصل بطلاب من بلدتنا وكان معى عنوانهم ، فوجدتني أتسلق مطلعا ثم أهبط إلى واد سحيق ، وأسير في مناطق عجيبية ، وأسمع عبارات مريرة هي طابع أطفال تلك المناطق ، ثم وجدت « ظلمة » وشجرة توت وأحسست أنى في منطقة تجمع مبادل المدن ومبادل الريف ، وكان ذلك حيث يسكن هؤلاء الطلاب .

ولما انتهيت من دراستى العالية وعينت مدرسا بالأورمان النموذجية ، ذهبت أنا وزميلان لى هما الأستاذ عبد الله حشيش والأستاذ أيوب المسلمى لنبحث عن شقة نسكن فيها معاً ، وقصدنا حى السيدة زينب باعتباره الحى الشعبى الذى يلائمنا الإيجار به ، واتصلنا بسمسار في ميدان السيدة زينب فسألنا عن الإيجار الذى نرغب في دفعه شهريا ، فقلنا له حوالى سبعة جنيهات ، وكان ذلك سنة ١٩٤٥ أى أن الجنيهات السبعة كانت لها قيمة يعتد بها ، ولكن السمسار صاح فينا بأن علينا ألا نفكر في عمارات الميدان والشوارع الكبيرة المتفرعة منه وعلينا أن نتجه للحارات الداخلية ، وكان رأيه سديدا ، فلم نجد مسكناً بهذا الإيجار إلا في حارة نائية حاولت حديثاً أن أتعرف عليها فوجدتها قد أزيلت من الوجود وابتلعها أحد الشوارع الجديدة .

هذا العناء ثبت في نفسى حقاً من حقوق الطلاب في عنقى ، فلما أتيح

لى أن أبنى لنفسى مسكنا أعددت به شقة صغيرة مستقلة ، أضواؤها متلائة ومعها دورة مياه ، وتتبعها حديقة صغيرة — وفرشت هذه الشقة بفراش مناسب ، وجعلتها هديتى إلى طلاب الجامعات من ريفنا لا فرق بين قريب وبعيد ، ولا بين غنى وفقير ، فقد كان بعض الموسرين يفضلون أن يعيش أولادهم فى هذه الشقة ليكونوا تحت رعايتنا وعلى اتصال بنا ، ودفعنا مساعدات مالية منتظمة للطلاب المحتاجين بالإضافة إلى رسوم الجامعات وثمان الكتب ، أما الموسرون فقد قنعوا بالمسكن المجانى النظيف الذى يقع فى منطقة جميلة ، ويضعهم مع طبقة طيبة من السكان •

وتوالى الطلاب جيلا بعد جيل يتعلمون ويتخرجون من مختلف الكليات مرتبطين بهذا المسكن ، وكنا نجد فى جوارهم أنسا وودا •

كم كلفتنا هذه الشقة ؟ الحق أن تكاليفها أقل جدا من فائدتها ، وقد دفعت التكاليف مرة واحدة ، ولكن فائدتها تتجدد على مر السنين ، وياحبذا لو اتجه الموسرون هذا الاتجاه ، لأن هذه الرغبة هى التى دفعتنى لكتابة هذه السطور لأدعو القادرين على تقليد هذا الاتجاه ، ولست أقصد بالقادرين الأغنياء ، فالله يشهد أننى بدأت هذا التصرف وأنا أقرب إلى الفقر منى إلى الغنى ، ولكنى أقصد بالقادرين هؤلاء الذين يسيطرون على أنفسهم ، ويوسعون دائرة التزاماتهم ، ويجعلون فى أموالهم حقا معلوما للعون على طلب العلم •

وأرجو ممن يفعل هذا ألا يتوقع الولاء والوفاء من هؤلاء الذين ساعدتهم ، فلا شك أن بعضهم لا يعرف الولاء ولا يحب الوفاء ، وربما حاول بعضهم فى مستقبل الزمن أن يهرب من هذه الذكرى وأن يتمرد عليها لأنه ظنها تسيء إليه ، إنى أوصى من يفعل هذا أن يتلذذ به ، وأن يتذكر القرآن الكريم الذى قال : لا تريد منكم جزاء ولا شكورا •

إنها متعة أنعم بها حينما أرانى أشركت سواى فى نتائج جهدى ويسرت العلم لطلاب العلم •

الديمقراطية والشواطئ

كثيرون من الناس يهرعون إلى الشواطئ فترة من فترات الصيف بعد جهد طويل طيلة العام ، وأنا شخصياً ممن اعتادوا أن يتخذوا الاسكندرية ملاذا لهم مدة أسبوعين أو ثلاثة كل عام ، أتفرغ خلالها للبحر والطبيعة وأتخفف من اللجان والاجتماعات والارتباطات والتليفون ... ولا أقول إننى أتخلص من العلم فذلك مالا طاقة لى به ، فالعلم عندى هو الهواء وهو الحياة ، بل إننى أصحب إلى الإسكندرية بعض الأعمال العلمية الصعبة التى تحتاج إلى التفرغ لها والعكوف عليها ، وبين جمال البحر وصفاء الجو والبعد عن التزامات القاهرة أستطيع فى الغالب أن أكتب ما أريد .

وقد اعتدنا منذ سنوات طويلة أن ننزل فى منطقة « سيدى بشر » وأصبحنا بمرور الزمن أصدقاء لسكان المنطقة ، فهم يكرمونا ويساعدوننا بكل طاقاتهم ، وساحل البحر هناك جميل ، كان فى الماضى « هادئاً وديعاً » لأن المنطقة التى كنا ننزل بها كانت خاصة لا يدخلها إلا أصحاب الكبائن أو الذين يدفعون بعض الرسوم (ثلاثة قروش للفرد) ، وكانت بجوارها مناطق عامة لا تدفع رسوم على ارتيادها ، وبالتالي كانت هذه المناطق صاحبة حافلة بكل أنواع المرح والصراخ واللعب . ومن الطبيعى أن هناك جماعات تذهب للبحر طلباً للراحة والهدوء ، وجماعات أخرى تذهب إليه للمرح واللعب ، وكان كل فرد يجد طلبته فى مكانها .

ثم جاءت الديمقراطية أو الاشتراكية ، وهللنا جميعاً مرحبين راجين أن نجد فى رحابها ما افتقدناه من قبل ؛ ولكن باسم الاشتراكية المظلومة أزيلت الحواجز بين منطقة ومنطقة بالبحر . وكان هذا مصدر عناء كبير . فكأنك وصلت دار العبادة بالسوق ، أو أزلت الأستار بين الماكينات وقاعات البحث . لقد أصبح البحر ضجيجاً ارتفعت فيه الأصوات ، وزحاما يركب الناس بعضهم بعضاً أو يكادون ، وملاعب كرة من الأمام

ومن الخلف ، تحول بينك وبين الماء وتحول بينك وبين الشواطئ •
وامتلأ الشاطئ بالأوراق والمهمات والمخلفات • وبالتالي لم يعد الساحل
مكان راحة أو مكان تفكير • فاضطرت أن أعتزل الساحل وأن أُلجأ إلى
« كازينو بترو » على الكورنيش لأرى الماء من بُعد ، بعد أن أصبح
عسيراً أن أكون على مقربة منه • وفي مكاني الجديد وجدت كثيرين قد
فعلوا مثل ما فعلت ولم يعد يطيب لهم أن يجلسوا في كبائنهم أو يسعدوا
بصفاء البحر وجماله •

هل من الاشتراكية أن نتصرف على هذا النحو ؟

وهل قضت الاشتراكية بهذه المساواة ؟

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا توجد الدرجات بالقطار والسيارات
العامة ودور الخيالة ؟ ولماذا لا نفتتح الأندية لكل الناس مشتركين وغير
مشتركين ؟ ولماذا ندع الناس متفاوتين في لباسهم وطعامهم ؟ ولماذا نترك
السيارات الفاخرة وبجوارها الأوتوبيسات المكتظة بالبشر ؟

ثم لماذا خصصنا شواطئ خاصة لسكان المعمورة ؟ ولرواد ستانلي
وسان ستيفانو وبوريغاج والنوادي الممتدة على كورنيش الاسكندرية •

إن الاشتراكية كما عرفت من أدق مراجعها هي أن نتيح تكافؤ
الفرص للمواهب والقدرات ، فليس الباب موصداً أمام أي ذكي كما كانت
الأبواب موصدة من قبل ؛ فالكفء يستطيع أن يعمل ويكدح دون عائق
يقف أمامه حتى يصل إلى غايته • والاشتراكية ألا يعيش المتطفلون على
حساب الكادحين ، وهناك في ظل الاشتراكية طبقات لا يمكن الاستغناء
عنها ؛ هناك الوزير والطبيب والمهندس والعامل والخادم • ولكل مكانه
في الهيئة الاجتماعية بحسب مواهبه • ولا يجوز للعامل أن يجلس على
كرسي الوزير • ولكن يجوز له أن يعمل ويبرز مواهبه إن كان موهوباً ،

حتى يصل إلى منصب الوزير. أو أكبر منه في يوم من الأيام أو أن يدفع ابنه إلى هذا الهدف .

هناك في النظام الرأسمالي طبقية ثابتة ؛ فللغنى "أسر" لايتعداهم إلى غيرهم ، وللوزراء أسر ، وللنجارين أو الحدادين أسر كذلك يتوارث الصغير صناعته عن أبيه وهكذا ، ولكن النظام الاشتراكي به طبقية ولكنها متحركة ، فابن الوزير إن أهمل انحطت درجته ، وابن الحداد إن جدّه علت مكانته ، وشغل أسمى المناصب .

كم أتمنى أن نصحح مفهوم الاشتراكية ليعمل كل فرد في نطاق كفاءته ولينال نتائج جهده . وفي ظل الاشتراكية الصحيحة ستوضع الأسس السليمة لحياة تريح الناس جميعاً . وسيجد من يريد الهدوء على ساحل البحر مكانا للهدوء ، ومن يريد ملاعب وصحبا سيجد أمكنة للصخب والملاعب . أما الذى أراه على ساحل البحر بالاسكندرية فشىء بعيد عن كل القيم وبعيد عن كل المبادئ السامية .

نحن وإسرائيل

تهمس بعض الأفواه أحيانا : لماذا لا نعترف بالأمر الواقع ونصالح إسرائيل ؟ لماذا يظل التوتر يسود المنطقة ؟ إلى متى فريق دماء أبنائنا ونوجه أكثر ميزانيتنا للمعركة مع ما يسببه ذلك من خشونة وحرمان ؟ وأسئلة كثيرة من هذا اللون يهمس بها بعض الناس •

وأنا كمؤرخ أحب أن أضع لهؤلاء بعض الحقائق لعلمهم يتدبرون أمرهم بعمق ، وأبدأ فأوضح أن هناك صلحا ومودة بين اليهود وبين أمريكا ، فما هي نتيجة هذا الود ؟ وهناك صلح بين يهود انجلترا وبين باقى سكانها فما هي نتيجة هذا الصلح ؟ وهكذا دواليك •

النتيجة هي أن القلة اليهودية أصبحت تتحكم فى الكثرة الغالبة بأمريكا وبنجلترا وغيرهما ... وذلك عن طريق وسائل الإعلام والدعاية ، لقد ثبت فى الإحصاء الذى أجري سنة ١٩٥٦ الخاص بالصحافة أن اليهود يصدرون ٨١٩ صحيفة ومجلة بمختلف اللغات ، وفى مختلف الأقطار ، وهو عدد يمثل الأغلبية العظمى من صحف العالم ومجلاته ، ولليهود مثل هذا التفوق فى وسائل الإعلام كدور النشر ووكالات الأنباء ، بل والسينما والإذاعة والتليفزيون فى معظم بلاد العالم ، ويسيطر اليهود على الصحافة والنشر بطريق آخر هو طريق احتكار تجارة الورق ، فهم يقبضون أيديهم ويسيطرون حسب استجابة الصحافة لأغراضهم ، ويتسرب بعض الكتاب من أتباعهم إلى الصحف التى لا تخضع لهم تمام الخضوع ، وإذا حدث أن صحفيا عثرف بمعارضة اتجاهاتهم وضعوا العراقيل أمامه حتى يفقد وظيفته أو يخضع لاتجاهاتهم •

فاحتكار اليهود متكامل الحلقات ، فهم يسعون إلى احتكار ما يسيطر على معدة الإنسان ، ويسعون كذلك إلى احتكار ما يسيطر على عقله وعواطفه لذلك كان احتكار الصحافة وشركات الأنباء ودور النشر من

الخطوات الأساسية في هذا السبيل — فعن طريق هذه الوسائل ينشر اليهود ما يناسب مصالحهم ويمنعون من النشر كل ما يعارض هذه المصالح .

وهكذا خضعت القوى الكبرى لليهود عن هذا الطريق ، وهناك طريق آخر يعمل لنفس الغرض وهو المال اليهودي والمرأة اليهودية . وعن طريقهما يصل سلطان اليهود إلى السيطرة على النفوس الضعيفة ، وهناك كذلك الحيل اليهودية التي تغرق الناس في التفكير في الأمور التافهة لتصرفهم عن الشئون الجلية ، ومن هذه الحيل كرة القدم وغيرها من الألعاب الرياضية التي تشد انتباه بعض السذج وتصرفهم عن المشكلات الكبرى ببلادهم .

وقد هُزِمنا أمام جيوش إسرائيل في بعض المواقف العسكرية ، وانتصرنا عليهم في حرب السادس من أكتوبر (١٩٧٣) العاشر من رمضان (١٣٩٣ هـ) ولكن أمريكا لم تتحمل هذا النصر ، فأسرعت بعون واسع لإسرائيل ، ومن العبث أن نطلب من أمريكا ألا تؤيد إسرائيل ، فالمطلعون يقررون أن إسرائيل تمثل ولاية أمريكية في قلب الشرق الأوسط ، والمعاهدات بين أمريكا وإسرائيل تحمل هذا المعنى .

وبالتالي لا نستطيع الاعتماد على الاتحاد السوفيتي الذي ظهر لنا من مواقف متعددة أنه يتجه إلى إضعافنا لنخضع له ونسلمه الزمام .

ولا نستطيع كذلك أن نحارب أمريكا فذلك شيء مستبعد ، ومن هنا كان من الضروري أن ننتهز فرصة الانتصار الذي لم يتم على إسرائيل في حرب رمضان وندخل في مفاوضات نحقق بها بعض أطماعنا ونستعيد بعض حقوقنا ، وطبيعة المفاوضات أنها أخذ وعطاء وليست من جانب واحد ، وفي هذا الأخذ والعطاء كان نصيبنا معقولا ، فقد عادت قناة السويس إلى نشاطها ، واستعدنا بترولنا واستعدنا كل سيئات .

صحيح أن هناك قيودا ولكن لم يكن بد^٥ من ذلك لالتقى ، صحيح أننا اعترفنا بوجود إسرائيل ولكن الحق الذي لامراء فيه أن إسرائيل موجودة أردنا أو لم نرد ، وأن التعبير الذي يقول « إسرائيل المزعومة » شعار أهوج لا يتمشى مع الحقيقة •

وصحيح أن العرب تخلوا عنا وتركونا ننفق على المعركة من أموالنا ونقدم التضحيات من أرواح أبنائنا ، وكانوا يعدون ما يقدمونه لنا من مال كأنه منحة وعطاء وليس مشاركة لهدف مشترك ، وانتهزوا أقرب فرصة ليقطعوا معونتهم ويحاربوا هذا الشعب الذي ضحى بالكثير من أجلهم • ونذكر تاريخيا أن الرسول صلوات الله عليه عقد معاهدات مع يهود خيبر ووادي القرى وتيماء وغدك ، وعقد صلاح الدين الأيوبي معاهدة مع الصليبيين ، فليس هناك ما يمنع من عقد معاهدة الآن ويترك المستقبل لما يخفيه المستقبل •

ويؤخذ علينا أننا وافقنا على تطبيع العلاقات مع إسرائيل واعتقادي أنه لا توجد قوة تستطيع أن تطبّع العلاقات مع دولة تساعد إيران ضد العراق ، أو تضرب المفاعل العراقي ، أو تهاجم لبنان من حين إلى آخر وتحتل أرضه ، وتقتل فيه الأبرياء •••••

لتكن كلماتٍ عن التطبيع ولكن وضعها موضع التنفيذ يحتاج لصفاء وحسن جوارٍ وطيب معاملة ، وذلك لا نجده في إسرائيل •

مصر والاستيراد

إن جيلنا يذكر تماماً يوم كانت بلادنا زاخرة بكل جديد وكل جميل ، وكان الناس في البلاد العربية ، وفي إفريقية ، وكثير من مناطق آسيا ، يفدون لها ليجدوا بها كل وسائل المدنية والرقى وكل مطالب الترف والرفاهية ، وكانت مصر منذ أزمنة بعيدة مشعل العلم والنور ومركز العرفان والخير ، فطالب العلم لا يجد سواها في دول الشرق الأوسط ، والمريض يجيء لها مع الأنين ويعود مع الصحة والسلامة ، والمكتئب الحزين يجد في نسيهما الانطلاق والانتعاش •

وكننت في الشرق الأقصى حيث عرفت أن أثرياء العرب الذين استوطنوا إندونيسيا كانوا يفدون إلى القاهرة لشراء جهاز كل عروس من الأسر الغنية ، وكانت العروس من هذه الطبقة إذا لم تحصل على جهازها من القاهرة لا تكتمل فرحتها ، وتعد نفسها خسرت قسطاً كبيراً من السعادة •

ومرت الأيام وجذعت ظروف وبليتنا بالحرب مع هذا العدو الغادر الخائن ، ووجهنا جزءاً كبيراً من دخلنا للاستعداد لمواجهة (حوالى ١٠٠٠ مليون جنيه سنوياً) وكان لابد من أجل ذلك أن تخلو أسواق القاهرة من مظاهر الترف ، وأن نعيش في شيء من الحرمان النسبى ، وفي نفس الوقت تدفق البترول في كثير من البلاد العربية ، وبينما كنا نسير نحو التقشف من أجل المعركة ، اتجه منتجو البترول إلى البذخ والإسراف فيه ، وبينما خلت أسواق القاهرة أو كادت من وسائل الترف زخرت أسواق « أبو ظبى » و « الكويت » ••• بأحدث ما أنتجه العقل البشرى من وسائل المتع والتعيم •

وحصلت بذلك مفارقات عجيبة ، ففي مصر يعيش المفكرون والمؤلفون في مختلف فروع المعرفة ، ولكن ورق الطباعة وماكينات الطباعة الحديثة قليلة بها ، وغير موجودة أحياناً ، وفي مصر أطباء من أرقى المستويات ولكن صيدليات القاهرة تخلو من بعض الأدوية الضرورية ، وفي مصر

أعظم المهندسين ، ولكن أدوات البناء نادرة ، وفي مصر يوجد الخياطون المهرة للرجال والنساء ، ولكن القماش الفاخر غير موجود

والمصريون يَغْتَشَوْنَ البلاد العربية وبلاد العالم زائرين أو عاملين ، ورأوا هناك ما لم يجدوه بالقاهرة فاتجهوا للاستيراد ، وبالغوا فيه ، فإذا ظهر قماش بالكويت ، اشترت السيدة المصرية منه غسائين بعدد ألوانه ، وهمل الرجل في ملابسه مثل ذلك ، كما اتجهوا لشراء الأجهزة النافعة والأجهزة المسلية على السواء ، وبالغوا في ذلك أيضاً ، وعندما عرّجت قطع الغيار الخاصة بالسيارات اتجه صاحب كل سيارة لشراء رصيد كبير من قطع الغيار قد لا يحتاجه طيلة عمر السيارة ، واتجهوا كذلك لشراء الأدوية ، ولو أن مفعولها قد يبطل قبل أن يحتاجوها .

المهم حصل نَهِمٌ في الاستيراد وفي الشراء من الخارج ، وفي تكوين مخزون كبير دون تفكير عميق في مدى فائدة المشتريات ، إذ أصبح خزن البضائع هدفاً في ذاته .

استيراد الأشخاص ولغير ضرورة :

والعجيب أن الرغبة في الاستيراد تعدت الأدوات والمنتجات المرتبطة بالترف والنعيم ، وأصبحت الرغبة في الاستيراد ذاتية ، حتى إذا وجد بمصر ما يفضل الأشياء المستوردة ، ويتضح ذلك تمام الوضوح عندما نرى استيراد الأشخاص الذين يرتبطون أى ارتباط بفن من الفنون ، فالشباب الذى يحترف الغناء فى أى بلد ، لا يجد كالعاهرة مكاناً لإعلاء شأنه ، والحديث عنه ، وتقديمه للناس ، والشاعر الذى لا يسمع به أحد فى بلده ، يجسد بالقاهرة الندوات تقام إليه ، وكبريات الصحف والمجلات تنشر له وتذيع أمره ، والمفكر المسلم الذى لا تعرفه المكتبة الإسلامية ، تقدمه وسائل الإعلام المصرية على أنه فيلسوف مسلم على الشأن عميق الفكر والبحوث ،

إنه فى تقديرى داء الاستيراد تعدى الأشياء إلى الأشخاص ، وأضر بنا أكثر مما نفع .

العرب الآن وعرب الأندلس

عشت في تاريخ الأندلس فترة طويلة عندما كنت أكتب الجزء الرابع من موسوعة التاريخ ، وقد كنت أغرق في الدهشة ، وأوشك أن أصرخ عندما أرى الصراع يدور بين ملك عربى وملك عربى آخر من ملوك الطوائف والعدو يتربص بالجميع ، ويمد الجميع بالسلاح ، ويتقدم ليجنى الثمار دائما سواء انتصر هذا الملك أو ذاك ، فقد كان العدو يرى انتصار أى ملك عربى انتصارا له واندحار أى ملك فائدة تعود ثمرتها إليه .

كنت أغرق في الدهشة وأنا أقرأ هذه المهازل وهذه الخيبة ، واتساءل كيف اتجه هؤلاء الأوغاد للهو ، وأضاعوا بلادهم ؟ وركعوا تحت أقدام أعدائهم ؟ هؤلاء الأعداء الذين لم يكتفوا بالركوع بل قتلوا الرادعين وأبادوهم ، ألم يدرك هؤلاء أن التاريخ سيدوّن عنهم هذه المخازى وتلك للمواقف المزرية ؟ وأن الأجيال تلو الأجيال ستقرأ هذا التاريخ وتلعنهم على إهمالهم وانحرافهم ؟

ولم أكن أعرف أن الأقدار تخبىء لى أحداثاً أبشع وأقسى ، لا لأسمع عنها ، ولا لأعرف أنها حدثت منذ مئات السنين ، بل لأراها رأى العين وأرى ضحاياها .

إن الصحافة الآن تحمل كل يوم أكثر مما حملت المراجع القديمة عن تاريخ العرب في الأندلس ، إن العرب الآن بين نائم ، ومخدوع ، ولام . وإن كلمتنا هنا محاولة لإيقاظ النائم وتنبيه المخدوع وتوجيه اللاهى إلى الاتجاه الصحيح .

إن الاستعمار وإسرائيل عدوان للجميع ، وإذا كان الثقل يتجه نحو مصر ، ذلك لأنها القلعة التى يمكن أن تقاوم ، وإذا — لا قدر الله — خرت مصر فابتلاع سواها هين سهل ، إن الذين يغريهم الثراء يجب أن يفتبها إلى أن الثراء هو هدف الاستعمار وإسرائيل ، والذين يظنون

أنفسهم بعيدا يجب أن يدركوا أن الوسائل الحديثة قربت البعيد وقضت على المسافات ، والذين يخطر ببالهم أن يعملوا للتطوير ويهملوا المعركة ، عليهم أن يدركوا أن موقفنا الآن مرتبط بالوجود العربى نفسه ، ومع الوجود يمكن التطور والرقى ، وبدون الوجود لا تطور ولا رقى ، ولم ينتظر شعب فيتنام ليتطور ثم يدفع الغاصب ، ولا انتظرت الشعوب التى جاهدت من أجل الاستقلال ، بل مارست حرباً زادت تدميراً لتثبت وجودها أولا ثم يكون من السهل بعد ذلك أن يجيء دور التطور أو التطوير .

والعدو الذى نقاتله لانصفه بالشراسة أو القوة ، وإنما أبرز مزاياه الغدر وتحين الفرص ، إنه عدو يكره ويحقد ، ويطغيه النصر ويتلذذ بالدم ، عدو كثير الأطماع ، واسع الشره ولكنه بجانب ذلك جبان ترعزعه الوقفة الصلبة ، ويهزه الإصرار العنيد فى المعركة ، وذلك حاله على مر التاريخ ، يقسو أمام مَنْ يضعف له ، ويرتعد أمام من يثبت أمامه .

قدر العرب واحد ومن الجهل أن نتناسى ذلك :

وقدر الأمة العربية مرتبط تماما ببعضه ببعض ، ولن يكون هناك استقلال لقطر عربى واحتلال لقطر عربى آخر ، فإما حرية للجميع ، وإما عبودية للجميع ، فالأمة العربية وحدة واحدة ، ومن السذاجة أن يعتقد إنسان عربى أن من الممكن أن ينعم بالحرية إذا امتد الاحتلال إلى أى بلد عربى غير بلده .

وجميع المؤرخين يؤكدون أن احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ كان مبدأ لخطة ترمى لاحتلال العالم العربى كله ، فإذا كانت مصر أو تونس مثلاً . تكثر بما حدث للجزائر وعاشت سنينها بعد احتلال الجزائر فى يسر واطمئنان فإن ذلك عين الغفلة وجهل بالتاريخ البشرى ومحركاته ، ولست أعد الدول العربية بعد احتلال الجزائر إلا فى حالة تخدش وعدم وعى أيقظتها الحقيقة المرة عندما دهمها الاستعمار . ولكن هذه اليقظة جاءت بعد فوات الأوان .

مرة أخرى أريد أن أبرز هذه الحقيقة التي ييسدو أنها تخفى على كثيرين ، وإننى لأحس لا بالحسرة ولكن بالإشفاق عندما أرى عربياً يعتقد أن من الممكن أن ينال السلامة وقد نزل الضر بسواه من العرب ، إنها نظرة سطحية ، نظرة الواهم المخدوع ، إنها فكرة ألقى بها العدو فى عقول بعض الأغرار ليجنى ثمارها وينال نتائجها ، ولنعد إلى التاريخ ليؤكد لنا أن احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ كان خطوة نحو احتلال الشمال الإفريقى كله بوجه خاص واحتلال الوطن العربى كله بوجه عام ، مهما طال الزمن منذ بدأ التخطيط إلى أن تم التنفيذ •

وكمؤرخ أذكر المفكرين العرب بالمحاولات التي أجرتها الدول الاستعمارية لتقسيم العالم العربى عقب احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ ، أذكرهم بمؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ وباحتلال تونس سنة ١٨٨١ واحتلال مصر سنة ١٨٨٢ ومعاهدة فرنسا السرية مع إيطاليا سنة ١٩٠٠ لاقتسام النفوذ بحيث تكون مراكش لفرنسا وطرابلس وبرقة لإيطاليا ، والمعاهد.. المكملة لها سنة ١٩٠٢ واتفاق ابريل السرى سنة ١٩٠٤ بين فرنسا وبريطانيا ، واتفاق أكتوبر من نفس العام بين فرنسا وأسبانيا وميثاق الجزيرة سنة ١٩٠٦ واحتلال المغرب سنة ١٩١١ واحتلال سوريا والعراق وفلسطين سنة ١٩١٨ •

علينا أن نتذكر هذه التواريخ المتلاحقة وأن نتأكد أن طول المدة بين احتلال أول بقعة وآخر بقعة فى الوطن العربى ليس إلا لظروف خاصة لا تغيب عن الفهم الواعى ، وفى ضوء هذا نحذر الذين ينعمون بالاستقلال بأن يومهم آت لا ريب فيه إن لم يجتمعوا بإصرار لتطهير الجسم العربى من هذا الوباء ، ونحذر الذين ينعمون بالغنى بأن غناهم لن يجديهم شيئاً وسيأكله الوباء إن امتد الوباء •

وأقرر كذلك أن بعض الناس يلقون تبعة ما نعانيه الآن على سرعة انهيار الجبهة المصرية سنة ١٩٦٧ ، ويبالغ بعض هؤلاء فيقفون من المصريين

موقفاً قاسياً ، وبعضهم يعود إلى الوراثة فيلقى التبعة على الملك عبد الله وسلوكه سنة ١٩٤٨ ، وخلال السنين السابقة واللاحقة لهذا التاريخ . وبعضهم يرجع أكثر إلى الوراثة فيلقى التبعة على الأمير فيصل الذي اجتمع بوايزمان سنة ١٩١٨ وتعاطف معه ، وبعضهم يلقي التبعة على وعد بلفور سنة ١٩١٧ أو على تقرير خبراء كامبل بنرمان سنة ١٩٠٧ أو على مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ ، ولكن الحق هو أنها حلقات متتالية ومنظمة ، والعدو يشغلنا بأن يلوم بعضنا بعضاً ليعيد " هو لجولة تالية ، وإننا نهتف بالعرب أن يفيقوا قبل أن تتتابع الحلقات .

وقد كان من الممكن أن تتأخر حلقة من هذه عاماً أو أكثر من عام ، ولكنها لا بد آتية مادامت السلسلة لم تحطم ، وينبغي أن ندرك أن خطأ شخص أياً كان هذا الشخص لا يمكن أن يؤخذ وسيلة للاضرار بالمجموع أو لتعطيل الاتحاد لمواجهة الخطر ، فإن ذلك هو أسمى ما يتطلع له العدو . وخطأ فرد هو أقل ما يمكن أن نقع فيه لأن العصمة لله وحده ، بل هناك ما هو أبعد من الخطأ ، هناك احتمال الخيانة يقوم بها شخص أو أكثر من شخص بدافع الأنانية أو التدهور النفسي ، وحتى هذا لا يمكن أن يكون وسيلة ضد الهدف الأسمى وهو الاتحاد ، فعلى الطريق دائماً يقابل السائر أنواعاً من العقبات ويقاس جهد الإنسان بمقدار ما يحقق من نصر على هذه العقبات .

وقد عرف تاريخنا الوسيط بعض الخيانات ارتكبها بعض الحمقى ، ولكن أجدادنا لم يتخلوا عن التعاون بسبب هذه الخيانات بل أوقعوا بالخائن مع استمرارهم في المسيرة حتى حققوا التعاون الكامل وبالتالي حققوا الانتصار .

وعلى هذا فلقاء العرب وحدة واحدة لمواجهة العدو شيء ضروري ووسيلة وحيدة للحفاظ على وجودهم وكيانهم ، وأرجو ألا تقف نقاط الخلاف عقبة دون الوصول إلى الوحدة ، فإنه إذا كانت هناك نقاط خلاف فإن هناك نقاط التقاء كثيرة جداً ويتحتم أن تتخذ أساساً للقاء .

اقتراح عملي لمشاركة العرب في المعركة :

إن من الممكن أن يتعاون أى بلد عربى يتجه اتجاهها اشتراكيا مع أى بلد عربى آخر له نزعة رأسمالية ، ولكن ليس من الممكن أن يعيش أى بلد عربى فى أمن بجوار إسرائيل أيا كان اتجاهه الاقتصادى ، وقد التقت الاتجاهات العربية جميعاً بعد هزيمة ١٩٦٧ وتعاونت مادياً لتعيد بناء نفسها ، ولكن هذا التعاون أراه تعاوناً أعرج ، إنه أشبه بمنحة تقدمها دولة إلى أخرى مع شيء من المن ، والذي أراه أن تكون هناك نسبة معينة من كل ميزانية ، ونسبة معينة من سكان الأقطار العربية ليوقف هؤلاء العرب فى صف واحد بالمعركة وليتفق عليهم من المال العربى ، وتدار المعركة بفكر عربى مشترك ، ويتجدد دفع الرجال من كل قطر إلى الميدان ؛ ودفع المال من كل ميزانية دون تردد حتى تنقشع الغمة .

أسلحة أقوى من الفانتوم :

قد يقول المترددون والخائفون : إن انتصار العرب صعب مادامت أمريكا تؤيد إسرائيل ، تأييداً واسعاً ، أو بالأحرى مادامنا نحارب أمريكاً مع إسرائيل ، ومادامت روسيا مترددة أو متورطة فى دورها الجديد مع أمريكا فلن نمدنا بما نحتاجه من سلاح ؟

وأقول لهؤلاء فى قوة الأب الذى يعلن افتخاره بأنه مستعد أن يلقى بأولاده فى الميدان ، وأن يسخر كل قواه للمعركة ، أقول لهم : إنا معنا سلاحاً أمضى من أسلحة أمريكا وإسرائيل ، ويتحتم علينا أن نستعمل هذا السلاح الذى أثبتت كل التجارب قوته وفاعليته : إنه السلاح الذى يواجه به الشباب الأعزل فى إيرلندا كل قوى بريطانيا ، إنه السلاح الذى واجهت به إندونيسيا وهى عزلاء أسلحة هولندا وكل قوى الغرب عقب هزيمة اليابان ، إنه السلاح الذى صمدت به الجزائر أمام فرنسا إحدى الدول الكبرى التى كانت تعد الجزائر جزءاً منها .

إنه الدم والإيمان والتضحية ، حتى لو استطعنا أن نقتل فرداً واحداً من اليهود نخلير مائة منا ، فإنه ألا نعيش عبيداً خائفين على المباني الضخمة من الغارات ونسمح بتدمير النفوس والتراث والمكانة الاجتماعية والدولية .

ذلك في تقديري هو السلاح ، أما الأغاني التي نحارب بها فسلاح هزيمة ، وأما الهتافات التي نستعملها والشعارات التي نرفع أصواتنا بها فسلاح ضياع ، والعدو يهزمنا بسلاحه مرة وبالكمد مرة أخرى ، فكم من أحرار يموتون هما ونكدأ لما وقعنا فيه ، ثم هو يهزمنا بالزمن ، فآلاف الملايين من الجنبيات التي تنفق للاستعداد بدون معركة هي في الحقيقة سلاح ضدنا لأنها تدع الناس في خيرة وفي حرمان وفي اضطراب .
اقتصادى غير محدود الأجل .

ويوم ندخل المعركة على هذا النحو سنحرك ضمير العالم الذى يتهمنا بالتردد ، ولا يرى — بسبب سكوتنا — أزمة في منطقتنا .

ويوم ننال النصر بهذا الطريق سيكون الفخر لنا جميعاً ، ولن يوجد أناس ينعمون بالحرية على حساب دماء الآخرين وحرمان الآخرين ، ويوم نفعل ذلك سننجو من حساب التاريخ ، الذى أخشى أن يسجل علينا ماسجداً على عرب أسبانيا ، فتموت وتبقى لعنات التاريخ تنصب على الذين عاصروا هذه الفترة وأهملوا ، ولعلنا بذلك نكون قد بلّغنا ، فاللهم اشهد .



اعداء مصر يتظاهرون بالود لها :

بقيت نقطة كبيرة الأهمية ترتبط بالتقاء العرب في مواجهة العدو ، وهذه النقطة هي من مشاهداتى التي تأكدت منها في المؤتمرات العامة التي شرفنى أن كنت أحد ممثلى بلادى بها ، وخلاصة هذه النقطة أن هناك جماعات تتظاهر بالعروبة ، وهم لا يربطهم ولاء للعروبة ، يتظاهرون بحب مصر ليحاربوا مصر ، وقد رأيتهم يقاومون بشدة كل اتجاه يرمى لوحدة

العرب ، وأحسست من تحركاتهم أنهم يقصدون عزل مصر ، وإضعاف مصر ، ويتخذون أساس ذلك كلمات مثل : الرجعية والتقدمية ، أو الرأسمالية والاشتراكية فإذا قلت لهم إن هناك نقاط التقاء مهمة ينبغي أن تتغلب على ما يمكن أن يكون من نقاط الاختلاف ، صاحوا يرجفون ويكيلون التهم لهؤلاء وأولئك ليباعدوا بين دول العرب •

أتمنى أن تكشف هذه الانحرافات ، ولعل الصيحة التي أدلى بها الرئيس أنور السادات في عيد العمال سنة ١٩٧٣ متحدداً المملكة العربية السعودية والمغرب والعراق بين الدول التي تلعب دوراً مهماً في المواجهة الشاملة ، لعل هذه الصيحة تفسك هذه الأصوات التي تهمس في الظلام ، والتي تتخذ من الهزيمة سلعة تبيع على حسابها ، مهما كانت التضحيات المادية والأدبية التي تنزل بالوطن العربي وبدين الإسلام •

إننا نصرخ بأن جماعات لا تدين بالوفاء لوطننا ، ولا تدين بالولاء لديننا ، تريد الشر لهذا الوطن ، والضعف لهذا الدين ، وتتخذ من هذا الوضع القائم وسيلة لها ومن التظاهر بحب مصر أداة لتنفيذ خطتها • فلنكشف هذه الجماعات المنحرفة ، ولنبعداها عن الطريق ، لتعلو كلمة الله •

مراكز الفكر الإسلامى بمصر

ينبغى أن تعيد النظر فى جهودها

ما هى مراكز الفكر الإسلامى بمصر ؟

إننا دون تردد نضع الأزهر فى قممتها ، ثم نضع كلية دار العلوم ، ومعهد الدراسات الإسلامية ، ووزارة الأوقاف ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وجمعية الشبان المسلمين ، والجمعية الشرعية •

وهل هناك مراكز إسلامية أخرى بالعالم الإسلامى ؟

نعم هناك مراكز أخرى عديدة ، ولكن يمكن القول إنها صدى للمراكز الإسلامية بمصر ، وإيها تحاكيها فى مناهجها وطرقها ، وتستعير من مصر أساتذتها غالباً ، ومن هنا كان الحديث عن المراكز الإسلامية بمصر حديثاً يشمل فى طياته كل المراكز الإسلامية بالعالم أو أكثرها •

وأنا واسع الصلة بالمراكز الإسلامية بمصر كلها :

تعلمت فى الأزهر وعلمت به وعضو فى لجنة القرآن الكريم التى ألفتها مجمع البحوث الإسلامية •

وأشغل وظيفة استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم •

وأقوم بتدريس مقارنة الأديان والتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بمعهد الدراسات الإسلامية •

كما أقوم بتدريس هذه المواد بمعهد الإمامة الذى تشرف عليه إدارة التدريب بوزارة الأوقاف •

- وعضو لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية •
- وعلى صلة وثيقة بالشبان المسلمين وبخاصة بفرعها بالزقازيق •
- وعلى صلة وثيقة كذلك بالجمعية الشرعية وبخاصة بمساجدها ومعاهدها
- بضاحية المعادي حيث أعيش •

ومن هنا فإنني أستطيع أن أتحدث عن جميعها حديث عارف خبير وفي الوقت نفسه حديث راغب في الخير ساع إليه •

الأزهر وما يرجى منه :

! . وقد تحدثنا عن الأزهر من قبل ووضعنا حالته وما آل إليه ، وذكرنا أن الكليات الإسلامية به لا تزال تعيش مرتبطة بالماضي وغير متطورة مع الزمن ، وأشهد ويشهد معي عشرات الأساتذة أن خريجى الأزهر الذين نلتقى بهم في معهد الإمامة ، والذين يثبند لهم التعريف بالإسلام والدعوة له في الداخل وفي الخارج أئمة ووعاظا ، هؤلاء غالبا في حالة يرشى لها ، وبعيدون كل البعد عن المستوى اللائق ولا أقول المستوى الرفيع ، وقد يغضب من هذا الكلام من لا يعرفهم ، وقد يغضب منه أولئك الذين لم يفدوا لنا بعد بهذا المعهد ، أما الذين جاءوا لنا وسمعوا منى ومن سواى ، فإنهم أدركوا قصور ما قدّم لهم من فكر حول الإسلام والحضارة الإسلامية • وأشهد الله أن الكثيرين منهم ضحايا الإسرائيليات ؛ يدافعون عنها بحماسة أكثر مما يدافعون عن الفكر الإسلامى السليم ، اذ اختلط هذا وذاك عليهم • وفي كلمة واضحة نقرر إن الدراسات بالمعاهد الأزهرية وبالكليات الإسلامية بالأزهر أقلّ جدّا من المستوى اللائق ، وقد وصلت الحال إلى أن كليات التربية بجامعة طنطا والزقازيق ... رفضت قبول الطالبات الحاصلات على ثانوية الأزهر ، بعد أن ثبت ضعفهن ، إذ كانت نتيجة النجاح هؤلاء في كليات التربية حوالى ١٣ ٪ •

وكم كنت سعيدا عندما تلقيت خطابا باختيارى عضوا فى لجنة القرآن الكريم التى ألفها مجمع البحوث الإسلامية • ولكنى عندما اتصلت بأعمال هذا المجمع هالنى حاله • وأدركت أن دواء ناجعا يتحتم أن يقدم له • وإلا ضاعت الآمال التى تعلق عليه •

كلية دار العلوم بين اللغويات والعلوم الإسلامية :

وكلية دار العلوم حققت الكثير من التقدم فى العلوم الإسلامية • ولكن لايزال موكب اللغويات يهاجم العلوم الإسلامية ويهاجم الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان ويوشك أن يراها علوماً دخيلة ينبغى أن تنكمش ليستطيع الطالب أن يرفع المبتدأ وينصب المفعول به ••••• وتسأل هؤلاء الذين يهاجمون العلوم الإسلامية : ما الكلام الذى سيقوله الطالب ليطبّق فيه قواعد اللغة العربية ؟ ولكنهم لا يجيبون ، كأن القواعد أصبحت هدفا لذاتها ، وهى فى الحق وسيلة يستعملها الطالب وهو يتحدث فى التاريخ الإسلامى أو يتحدث عن التشريع الإسلامى ، ولايزال الصراع قائماً ، وأخشى ما أخشاه أن ينتصر صوت القواعد فيحفظ الطلاب ألفية ابن مالك ويشرحونها ويعرفون بحور الشعر وقوافيه والخبز والخزل ، ثم لا يعرفون فكرا ولا يقرءون شعرا ، بل أخشى أكثر من ذلك ، أخشى أن تقتصر الأصوات التى ترى القواعد غاية ما يثرّجى ، ثم لا يجيد الطلاب هذه القواعد ، وبهذا يخسرون الفكر الإسلامى والقواعد جميعاً ، إن العلوم الإسلامية بكلية دار العلوم أصيلة ، وإن لهذه الكلية طابعا متكاملا خاصا ينبغى الحرص عليه ، فبه وحده أخذت هذه الكلية مكانتها فى مصر والعالم ، وبه وحده تستطيع أن تواصل دورها المفيد •

معهد الدراسات الإسلامية :

أما معهد الدراسات الإسلامية فيؤدى خدمة عظمى لأنه يقبل من يتقدم له من خريجي الجامعات والمعاهد العليا كلها ، ويقدم لهم مجموعة

الدراسات الإسلامية ، وكنت أسمى طلاب هذا المعهد « الهواة » ؛ فهم حاصلون على شهادات عليا • ويعملون كل في تخصصه ، ثم يلتحقون بالمعهد للتعرف على الفكر الإسلامى ، ويمكن أن تتم الدراسة بهذا المعهد بالانتساب للطلاب الذين يعيشون بمنأى عن القاهرة •

وهذا كله يغرى الراغبين فى التعرف على الدراسات الإسلامية بالالتحاق بهذا المعهد ، ويغرى كذلك الطلاب الراغبين فى مزيد من الدراسة بعد الشهادة العليا ، وليست لهم تقديرات تتيح لهم الالتحاق بأقسام الدراسات العليا بكلياتهم ، وكذلك أولئك الذين ليست هناك دراسات عليا فى المعاهد التى تخرجوا منها •

وقد كان لى الشرف أن اشتركت فى التدريس بهذا المعهد عدة سنوات ، فى عهد المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربى مع نخبة من أساتذة الدراسات الإسلامية الذين وضعوا مناهج ممتازة للتدريس بهذا المعهد ، وبعد وفاة الأستاذ الدكتور العربى أسندت قيادة المعهد لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى • ودعانى فضيلته للعمل معه بالمعهد فقبلت ، فالدعوة للإسلام هدف أحرص عليه ، ولا أزال حتى كتابة هذه السطور أعمل فى هذا المعهد العظيم ، والعلوم التى توليت تدريسها به هى التاريخ الإسلامى ، والحضارة الإسلامية ، ومقارنة الأديان ، وكان اقبال الطلاب المنتظمين والمنتسبين على هذه العلوم اقبالا ملحوظا •

معهد الإمامة محاولة طيبة :

ومعهد الإمامة الذى أنشأته وزارة الأوقاف يؤدى مهمة ضخمة إلى أبعد حد ؛ إنه يتلقى مجموعة كل شهر من الأئمة والوعاظ ، وهم فى الحق أوضح دليل على ما وصل له مستوى الدراسة فى الأزهر من ضعف ؛ إن معلومات أكثرهم ضئيلة جداً كما وضحتنا من قبل ، والأحدث تخرجاً منهم أقل معارف من القدامى مما يدل على أن مستوى الانحدار يزيد يوماً بعد

يوم ، وعمل الإمامة والوعظ عمل رفيع المستوى في ذاته ، فهو يضع العالم في موضع المعلم للجماهير ، وكم في الجماهير من مثقفين ومطلعين ، وإذا خسر الإمام الجولة في خطبة الجمعة أو خسر الواعظ الجولة في وقفاتة أمام سامعية فإن الناس يتنحون عنه ، ولا يرون أملاً في علمه أو فائدة من الاستماع إليه ، فلا يبقى أمامه إلا العامة الذين لا يعون ما يسمعون ولا جدوى فيما يعرفون •

قد يشغل خريج الأزهر منصب مدرس بالمدارس الإعدادية ، وهذا المنصب يقى صاحبه الحرج ، فصبيان المدارس الإعدادية قليلو المعرفة ، وهناك كتاب محدد لمنهاج اللغة العربية وضعه نخبة من رجال التعليم ، وليس على المدرس إلا أن يتدارس هذا الكتاب ويشرحه للتلاميذ ، وهذا شيء ممكن بل يسير ، أما عمل الإمام والواعظ فرافع المستوى ، لأنه يلتقى بجماهير مختلفة الثقافات ، وعليه أن يؤثر في سامعية وإلا انفض عنه السامعون •

وقد أدركت وزارة الأوقاف حالة هؤلاء فأقامت هذا المعهد لتقديم دورات تدريبية إليهم • ولكن ما مدى فائدة هذه الدورات ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على فهم طبيعة الدورة ، فالدورة التدريبية مدتها ثلاثة أسابيع ، ويشترك في تقديم المحاضرات بها عدد كبير من الأساتذة ، بل يشترك كذلك رجال الإدارة ليقدموا للوعاظ والأئمة أفكاراً ترتبط بما يزاولونه من أعمال إدارية ومالية ، وتبدأ المحاضرات من الثامنة صباحاً وتظل حتى الثامنة مساءً باستثناء فترة قصيرة في الظهيرة للغداء والراحة فالعمل مرهق للغاية ، وهو عبارة عن دوامة تدور بسرعة ، فأستاذ يخرج ، وأستاذ يدخل ، وتدفق في المعلومات ، بل تضارب فيها أحياناً ، فبعض الأساتذة محافظون وبعضهم متطورون ، بعضهم يدافع عن حديث منسوب لسيدنا رسول الله ويراه صحيحاً وأن رواته عدول ، وبعضهم يرى هذا القول موضوعاً ولا يتمشى مع الفكر الإسلامى الحقيقى.

ولا مع التفكير السليم ، وإن أردت مثالا لذلك قلت لك أحاديث رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، وحديث تردد سيدنا رسول الله بين ربّه وبين موسى ليلة المعراج لتخفيض عدد الصلوات
•••••

وتنتهى الدورة بعد الأسابيع الثلاثة أو أحيانا قبل أن تتم هذه الأسابيع ، وقل لى بربك ماذا يمكن أن يعرف هؤلاء الشيوخ من مدد كهذه ، وليست لديهم مدة للاستذكار ؟ ولا مكتبة يرجعون إليها حيث تلقى المحاضرات ؟ ولا مكتبة ذات بال فى مساجدهم ومقار أعمالهم ؟

كل ما نعمله أننا نحاول أن نفتح أمام الشيوخ منافذ للعلم ، وان نخبرهم أن هناك جديداً مهما فى مجال الدراسات الإسلامية ، وندعوهم للاطلاع حتى يتعرفوا على هذا الجديد ، وليتهم يفعلون •

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية :

ونصل الآن إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، واسمع مرة أخرى هذا العنوان العظيم « المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » ...
لاشك أن هذا العنوان يهزّك هزّاً ، ولاشك أن الصورة التى ترسمها له كبيرة ومثيرة ، ومن أجل هذا كنت سعيداً كل السعادة عندما تلقيت خطاباً فى مطلع الستينات باختيارى عضواً فى لجنة « التعريف بالإسلام » ، وهى لجنة مهمة جداً من بين لجانها كما يتنبىء بذلك اسمها ، ولكن يبدو أن الأسماء بهذا المجلس ليس لها مدلول دقيق ، ولهذا فإنى أريد أن أعرفك بهذا المجلس :

سلطات هذا المجلس كانت فى يد السيد الأستاذ محمد توفيق عويضة ، وهو شاب مهذب رقيق ، كان من قبل أحد الضباط بالجيش ، وهو يتولى السلطات الكاملة بالمجلس كسكرتير عام له يعاونه بعض الإداريين •

وبالمجلس لجان تحمل عدة أسماء : الخبراء — الحديث — التعريف

بالإسلام .. ويختار الأعضاء لهذه اللجان بمعرفة السكرتير العام نفسه أو بترشيح من وزراء الأوقاف ، وفي لجنة التعريف بالإسلام التي أشرف بالانتساب إليها مجموعة من صفوة الأساتذة والمفكرين ، وقد هزغنى اسمها عندما وقع على الاختيار لعضويتها ، وكنت من أسبق الأعضاء بها ، وكان عددنا لا يتجاوز أصابع اليدين ، وطلب الأعضاء منى أن أعد تقريراً لتسير عليه اللجنة فى عملها ، فرحت أبحث وأدرس ، ووضعت تقريراً حافلاً ، فقد أخذت الأمر مأخذ الجد ، وقلت إن التعريف بالإسلام يكون بالكلمة المقولة والكلمة المكتوبة ، وحددت اللغات التي تكتب بها الكلمة أو تقال ، والأشخاص الذين يكتبون عن الإسلام أو يتحدثون عنه ، كما حددت الموضوعات والأماكن التي ينبغى أن تغمرها هذه الأحاديث والكتب بالداخل والخارج .. وعرض هذا التقرير الحافل على اللجنة ، فتمارسه فى عدد جلسات ، حذفت منه وأضافته إليه ، ثم أقرته .

تسألنى : ماذا حدث له بعد ذلك ؟ فأقول فى إيجاز : غمره النسيان ولم نعرف عنه أى شىء ، كأنه كان هدفاً وصلنا له وآثرنا السلامة بعد ذلك ، وأصبح هذا النسق هو خط العمل بهذه اللجنة ، فموضوعات تثار وتقارير توضع ، ومناقشات تدور ، وقرارات أو ليكن تسميتها اقتراحات تحدد . وترفع للسكرتير العام ويطوئها النسيان بعد ذلك تماماً . لا متابعة ولا مراجعة ولا نتائج ، وقد أصبح عدد أعضاء هذه اللجنة حالياً حوالى الخمسين ، وأصبحت تضيق بهم الحجرة الرحبة غنية الأثاث التي يجتمعون بها ، ومع هذا فالعمل هو العمل ، أو قل إن عدم العمل المنتج ، هو دستور العمل بها .

ومن أعمال هذه اللجنة فحص بعض الكتب التي يتقدم بها أصحابها لتطبع على حساب المجلس ، ويحول كل كتاب (والأجدر أن نسميه مشروع كتاب) إلى لجنة لفحصه وكتابة تقارير عنه ، وتلقى التقارير فى اجتماع اللجنة ، ويدور نقاش طويل قد يستغرق جلسة أو جلستين وتقبل اللجنة

الكتاب بعد ذلك أو ترفضه ، ولو قارنا الجهد الذى يبذل والمكافآت التى تصرف للأعضاء فى هذه الجلسات لأدركنا أن ذلك يفوق الكتاب بكثير ، ثم إن الكتاب الذى يُقبَّل يأخذ دوره بين قائمة الكتب التى يطبعها المجلس تبعاً لإمكانياته ، وتجربتي فى الكتاب الوحيد الذى طبعه المجلس لى باللغة الفرنسية أنه صدر بعد خمس سنوات من إقراره ، وكنت خلالها غيرت رأيت فى كثير مما كتبت به منذ سنوات .

ومن أجل إحساسى هذا نحو المجلس وأعماله توقفتُ عن حضور الجلسات فلم أجد جدوى فى مواصلة الجهد لغير طائل ، ولكن أملى فى مستقبل أنصر لهذا المجلس ، وحرصى على لقاء رفاق العمل فى لجنة التعريف بالإسلام جعلنى أحضر الجلسات مرة كل شهر أو كل شهرين ، بدل الحضور كل أسبوع ، فالجهد الضائع عمل لا يرضى الله ولا يرضى الضمير .

وهناك مؤتمرات إسلامية يدعى لها المجلس الأعلى ، ويمثل السيد السكرتير العام وفد مصر فى هذه المؤتمرات ومعه بعض الإداريين ، قلما صاحب معه بعض العلماء ، ولا شك أنه من الأجدر أن يكون وفد مصر من الباحثين المسلمين الذين يستطيعون أن يتكلموا بعمق فى الدراسات الإسلامية ولا بأس أن يكون معهم الأستاذ محمد توفيق عويضة رئيساً للوفد ليباشر بعض المهام السياسية أو التنظيمية .

ويصدر المجلس مجلة « منبر الإسلام » كل شهر ، ومن الممكن أن تصبح أكثر عمقاً وأصالة ، ويقدم مجموعات مما يطبعه من كتب لبعض البلاد الإسلامية وبعض المكتبات الإسلامية ، وليست هذه هى البضاعة التى يرمى من المجلس ولو رأى المجلس صناديق الكتب التى يرسلها ثم لم تفتح فترة طويلة ، واسطوانات الصلاة التى لا يصلح أحد تبعاً لها ... لو رأى المجلس ما يعمل وما يمكن أن يعمل لتوقف وقفة تصحيح ووقفة إصلاح ، ولو قارن المجلس أعماله بأعمال المجالس المماثلة التابعة للأديان الأخرى لأحدث حركة تغير شاملة ، وليته يفعل .

وبعد ، فعندما ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وبها الدراسة السابقة كان وقعها شديدا على الأستاذ محمد توفيق عويضة ، وقد كنت أطمح أن تسهم كلماتي في إصلاح الأحوال بالمجلس ، وكما وصفت الداء وصفت الدواء ، ولكن الأستاذ محمد توفيق عويضة لم يتعود أن ينقده أحد ، أو أن يتحدث أحد عن المجلس بغير الثناء ، ولهذا ضاق بكلماتي ، وهدد وزمجر ، ولكني أرحته من ذلك فكل مايسطيعه كان أن يفصلنى من عضوية لجنة التعريف بالإسلام ، ففصلت نفسى ، وتوقفت تماما عن حضور الجلسات ، وتم بعد ذلك تغيير فى المجلس ولم أصبح عضوا به والحمد لله .



وفيما يلى موقفان جديان عن هذا المجلس :

المجلس وموسوعة جمال عبد الناصر

للفقه الإسلامى

من أهم الأعمال التى أقدّم عليها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية اخراج موسوعة للفقه الإسلامى أسماها « موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامى » وحفّل هذا العمل بأخطاء تتصل بالتخطيط وبالتنفيذ والمتابعة ، ففشل هذا العمل فشلا تاما بعد أن أنفق عليه مئات الألوف من الجنيهات ، وفى تقرير شامل عن هذا العمل كتبت ما يلى :

الموسوعات

بين النظرية والتطبيق

ألزمتنى دراساتى أن أطلع على مجموعة من الموسوعات العربية والانجليزية ، ومن الموسوعات العربية التى اطلعت عليها :

دائرة معارف وجدى (١٠ أجزاء) ودائرة معارف البستانى التى أخرج منها بطرس البستانى ستة أجزاء فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم حاول تلاميذه ومريدوه إكمالها بعده ، ومثل الموسوعة العربية الميسرة (مجلد واحد) .

ومن الموسوعات الانجليزية التى اهتمت بالاطلاع عليها :

The Encyclopaedia of Islam

The Encyclopaedia of Religions and Ethics

The Encyclopaedia Britannica

The Encyclopaedia of Education

وكان واضحا أن الموسوعة تكون أحيانا مطلقة فتحتوى خلاصة لما يدخل فى دائرة العلم الإنسانى مثل الموسوعة البريطانية أو الأمريكية

أو الفرنسية ، وتكون أحياناً مرتبطة بفرع واحد من فروع المعرفة مثل
موسوعة التربية التي ذكرناها من قبل أو موسوعة العلوم الاجتماعية •

وتسير الموسوعات على الترتيب الأبجدي ، ويتجه الاهتمام في
الموضوعات إلى ذكر موجزٍ مركّز للنقطة موضوع البحث ، ثم تقدّم
مراجع لمن يريد مزيداً من التوسع ، ويطلب أن يوقع الكاتب على الموضوع
الذي يكتبه ليتحمل مسؤولياته العلمية والأدبية •

وقد كان للمسلمين دور كبير في كتابة الموسوعات ، فقد وضع الفارابي
كتاب « إحصاء العلوم » الذي كان قمة في البحث والدراسة ، ووضع
النويري موسوعته الكبيرة « نهاية الأرب في فنون الأدب » في ثلاثين مجلداً ،
ثم وضع عدد كبير من المسلمين كتب التراجيم التي تعد نوعاً من الموسوعات
ويقول عنها Von Grunchebaum : « إن مجموعة كتب التراجيم التي أنتجها
المسلمون لشيء يدعو إلى الدهشة والإعجاب لكثرتها ودقتها ، وما جمعتها
من مادة رائعة ، وإن علماء الغرب في العصور الوسطى ليس لديهم مايقارن
بنتائج معاصريهم من العرب في هذا الميدان » •

وفي الحقيقة إن مجموعة كتب التراجيم لتمثّل جانباً غنياً في الأدب
العربي ، وهي بجانب كثرتها منظمة تنظيمياً دقيقاً ، فلأطباء تراجيمهم
الحافلة ، وللاُدباء والأعيان معاجمهم ، وللشعراء والعلماء والفقهاء طبقاتهم
وسيرهم ، وهناك بجانب — هذا التوزيع العلمي — توزيع زمني مثل
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، والضوء اللامع في أعيان القرن
التاسع ، والكواكب السائرة من تراجم علماء المائة العاشرة ، وخلاصة
الأثر في تراجم علماء القرن الحادي عشر ، وسلك الدرر في ذكر أعيان
القرن الثاني عشر ، وهكذا •

وقد كوّن الأزهر الشريف لجنة لكتابة موسوعة لألفاظ القرآن الكريم كان لى شرف عضويتها ، وقد اتخذنا لذلك الخطوات التالية :

١ - جمع كلمات القرآن الكريم •

٢ - ترتيبها ترتيباً أبجدياً •

٣ - ربط كل كلمة بموضوعها ، فهناك كلمات يتحدث عنها مؤرخ ، وكلمات يشرحها الأطباء أو الجغرافيون أو علماء الجيولوجيا وهكذا

٤ - ذكرنا ضرورة الاختصار غير المخل في شرح هذه الكلمات بحيث لا تتجاوز الكلمة صفحة واحدة ، فالذى يكتب عن غزوة بدر يكتب أهم عناصرها ويوقع باسمه ويذكر أهم المراجع التى يمكن أن يرجع إليها من يطلب المزيد من المعلومات ، وهكذا ، لتكون الموسوعة فى متناول الجميع ، وحتى تؤدى دورها فى سرعة إعطاء القدر الكافى من الفكر للباحث •

وتوقف العمل فى هذه الموسوعة ويقال إن حكومة العراق بعثت تطلب أن تتبنى هذا العمل وتثقف عليه ، ثم حدثت الخلافات السياسية التى أوقفت سير العمل ، ولهذا ينبغى أن ترصد مصر لهذا العمل الجليل ما يستحقه من جهد ومال •

تلك فكرة سريعة عن الموسوعات ، ولكن لى علاقة بموسوعة (تحت التأليف) هى موسوعة الفقه الإسلامى ، وهذه الموسوعة هى التى دفعتنى لكتابة هذا المقال ، وموسوعة الفقه الإسلامى يقوم بإخراجها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وكانت تسمى « موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامى » فلما انتهى عهد جمال عبد الناصر سُميت « موسوعة الفقه الإسلامى » وقد حصلت على نسخة منها ، ويشهد الله أننى سررت غاية السرور عندما حصلت عليها معتقداً أنها ستقدم لى عوناً كبيراً فى الدراسات الفقهية التى كثيراً ما أحتاج إليها ، وما إن حصلت عليها حتى عكفت على

الاطلاع عليها دون تأخير ، وسرعان ما صُدِّمْتُ صدمة قوية لا أعتقد أنني صدمت مثلها عند قراءة أى كتاب من قبل .

ماذا فى موسوعة الفقه الإسلامى ؟ .

إننى سأضع أمام القارئ الإحصاء دقيقاً ينبوع عنى فى الحديث عن هذه الموسوعة ، ولكنى أبدأ بأن أُمهد لذلك بأن أذكر أن المكافآت كانت تدفع للباحثين حسب عدد الكلمات والصفحات بالإضافة إلى مكافأة الجلسات التى كان يحصل عليها نفس الأشخاص ، وبسبب ربط المكافآت بالصفحات حدثت فى هذه الموسوعة مزالق خطيرة أعرضها على القارئ فى هذا الإحصاء الناطق :

أولاً — صدر من الموسوعة ١٥ جزءاً من القطع الكبير ويقع كل جزء فى حوالى ٤٠٠ صفحة .

ثانياً — هذه الأجزاء كلها لم تشمل إلا نصف حرف الألف فقط وبدقة إلى الألف مع العين (كلمة إعادة) .

ثالثاً — استغرق العمل فى هذه الأجزاء عشرين عاماً .

رابعاً — للرغبة فى كثرة الكسب امتد الحديث عن الكلمة الواحدة فشمل مئات الصفحات أحيانا ، ونماذج ذلك كثيرة منها كلمة إجارة التى استغرقت من ص ١٩٩ إلى صفحة ٣٣٠ بالجزء الثانى ، وكلمة إسكان من ص ٥ إلى ١٦٢ بالجزء التاسع ، وكلمة اشتراط من ص ١٣٩ إلى ص ٢٦٩ بالجزء الحادى عشر ، وكلمة إسهاد من ص ٣٦ إلى ص ٣٦٨ بالجزء الثانى عشر ، وكلمة إعادة التى استغرقت الجزء الخامس عشر كله .

خامساً — للرغبة فى الإسراع بالكسب نُقلت كلمات كثيرة جدا من موقعها الطبيعى إلى حرف الألف فكلمة « آبق » كان مكانها الطبيعى كلمة « رق » ولكن جىء بها إلى الجزء الأول لسرعة الكسب ، وجاءت كلمة

« الاشتباه في الطهارة » بحرف الالف ، ومكانها الطبيعي كلمة « الطهارة » في حرف الطاء ، حيث يتحدث الفقهاء عن الطهارة ، ثم يتحدثون عن الاشتباه فيها ، و خلقت كلمة إسهاد ومكانها الطبيعي « الشهادة » في حرف الشين ، وغيرها كثير جدا .

سادسا — إذا كانت هذه الأجزاء قد استغرقت ٢٠ عاما فمعنى هذا أن الموسوعة تحتاج إلى حوالى مائتى عام لتكتمل أو بلفة أخرى إلى عدة أجيال من المفكرين .

سابعا — إذا كان نصف حرف الالف قد استغرق ١٥ جزءا فمعنى هذا أن الموسوعة ستكون في حوالى ٢٠٠ جزء وهو قدر يجعل الاستفادة منها غير ممكنة ، ويحتاج إلى حجرة كاملة لاستيعابها .

ثامنا — إن النفقات لاتمام هذه الموسوعة ستكون باهظة جدا بدون أية فائدة ترجى منها .

وكل هذه المزالق نتجت لأن التخطيط للموسوعة لم يكن سليما ، فقد كان من الطبيعي أن تعد أولا الكلمات التى تدرس في هذه الموسوعة وأن ترتب ترتيبا دقيقا ، ثم أن يحدد قدر من السطور لكل كلمة بحيث لا تزيد الكلمة عن صفحة واحدة أو صفحتين على الأكثر مع إعطاء مراجع لمن يريد مزيدا من التفاصيل .

وأخيرا فنحن نسأل : من المسئول عن ضياع هذا الجهد وهذا المال ؟ وهو سؤال لا نحب أن نجيب عنه ، فلنحاول أن نغضب أحدا أو نشهر بأحد ، ولكنها قضية دينية وطنية التزمت أن أعرضها فقط لعلنا نعود للموضوع بإصلاح خطته ، وإصلاح أدائه حتى لا نستمر في عمل يأكل الجهود والأموال ويغضب الله ولا يرضى أحدا على الإطلاق ،

وتسألنى ما الطريق للإصلاح ؟

والإجابة التي لا تعرف المواربة هي أن نهمل الأجزاء التي طبعت تماماً فليس فيها ما يغنى على الإطلاق ، ونطلب من الله العوض للجهد الذي بذل بدون تخطيط سليم ، ولئات الألوف من الجنيهاً التي أنفقت على غير جدوى ، ونطلب من الله المغفرة لجيل من الشيوخ انتقل أكثر إلى رحمة الله ، ونبدأ في العمل من جديد بطريق سليم وتبعاً للخطة التي أوردناها ، أو لخطة أحسن منها ، على أن تتم الموسوعة كلها فيما لا يزيد عن عشرة أجزاء ، ويمكن أن يكتمل هذا العمل في مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات على الإطلاق عندما نتبع التخطيط الدقيق والعمل الذي يراد به وجه الله .

وماذا يقول الباحث عندما يتذكر أن هذا العمل قام به رجال الدين وانفق عليه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ؟ وإذا ضعف هؤلاء عن إخراج عمل ديني سليم فإلى من نلجا ؟

ولكن الأمل لا يزال موجوداً ، والخير كذلك لا يزال موجوداً ، والفشل في عمل يجب ألا يلاحقنا ولا يخيفنا ، فالنجاح ممكن لو حسنت النيات ، وهناك بلا شك نوايا كثيرة حسنة .

هل نحاسب الذين قصرُوا أو نتركهم لحساب الله ؟ الإجابة ليست لي بل هي لك أيها القارئ وللدولة .

كلمة واحدة نعلنها وهي أنه لو أن هذا المجلس أقيم لوجه الله .
لوضع على قمته متخصص في الشئون الإسلامية ، وكان الأمل في استقامة الحال أوسع وأعمق .

موقف آخر

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

هذا الموقف تبرزه وثيقة نشرها كاتبها الأستاذ ابراهيم سعادة
رئيس تحرير أخبار اليوم في ١١/٩/١٩٧٦ وهاك نصها :

نائب الوزير

وقرار رئيس الوزراء !

صدر قرار جمهورى بتنظيم مهرجان إسلامى مصرى فى واشنطن ،
مشاركة من مصر فى احتفالات مرور ٢٠٠ سنة على استقلال الولايات
المتحدة الامريكية ، وتضمن القرار الجمهورى أسماء أعضاء الوفد الذى
يضم عددا من أساتذة الدين وأربعة من الصحفيين والاذاعيين لتغطية هذا
المهرجان .

وكننت أحد أعضاء الوفد الصحفى ممثلا عن أخبار اليوم • وتلقيت
دعوة بالسفر والاقامة فى واشنطن لمدة ١٠ أيام على حساب الخزانة
المصرية • وأسندت رئاسة الوفد الكبير الى محمد توفيق عويضة الامين
العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ونائب وزير الاوقاف المصرية ،
ورئيس اللجنة العليا لرعاية أبناء مصر فى الخارج •

وبالفعل سافر توفيق عويضة ومعه طاقم مكتبه إلى الولايات المتحدة
قبل افتتاح المهرجان بعدة أيام • أما باقى الوفد فقد حددوا له السفر
ليلة افتتاح المهرجان • وقبل ساعات من سفر الوفد المصرى صدر قرار من
ممدوح سالم — رئيس الوزراء — بإلغاء الرحلة والاكتفاء بسفر ٣ فقط من
أساتذة الدين حتى لا تتكبد الدولة مبالغ طائلة لا داعى لها فى مرحلة
التكشف التى نمر بها •

وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد • ولكن محمد توفيق عويضة لم يسكت • اعتبر هذا بمثابة تحدٍّ لهيئته ومركزه •

واعتبر توفيق عويضة أن القرار الجمهورى لا يلغى الا بقرار جمهورى آخر • ورأى أن يتجاهل القرار الوزارى ويتمسك بتنفيذ القرار الجمهورى !

وبالفعل اتصل عويضة بأعضاء الوفد الاعلامى (٣ صحفيين رجالا واذاعية واحدة) وقال لهم ان مدير مكتبه سوف يلتقى بهم ويخطرهم بما قرر ان يفعله •

وجاء مدير مكتب عويضة لزيارتي فى مكتبى بأخبار اليوم • وفوجئت به يقدم لى تذكرة صادرة من شركة الخطوط الجوية العالمية الامريكية • للسفر من القاهرة الى واشنطن والعودة ، وخطابا الى أحد فنادق العاصمة الامريكية بالاقامة المجانية الكاملة لمدة ١٠ أيام • ولم ينس مدير مكتب عويضة أن ينبهنى الى أن هناك بدل سفر بالدولار سيكون فى انتظارى فور وصولى إلى الأرض الأمريكية !

وكانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لى • قلت لمدير مكتب عويضة ان الرحلة الغيت بأمر من رئيس الوزراء • وقد انتهى الامر بالنسبة لى منذ تلك اللحظة • وقمت برد بدل السفر الذى صرفته أخبار اليوم عن مدة سفرى واقامتى فى الولايات المتحدة •

وفوجئت بمدير مكتب عويضة يقول ان القرار الوزارى لايلغى القرار الجمهورى • واننا نريد أن نؤكد هذه الحقيقة بالاصرار على سفر الوفد الاعلامى الى الولايات المتحدة والاقامة بها لمدة ١٠ أيام كما جاء فى نص القرار الجمهورى •

وعبثا حاولت افهام مدير مكتب عويضة ان الرحلة فقدت الآن الغرض منها • فقد انتهى المهرجان منذ أسابيع • وعاد عويضة وأعضاء

(م ٢١ — رحلة حياة)

مكتبه الى القاهرة بعد أن حضروا افتتاح المهرجان • فما الداعى اذن
لسفر الوفد المصرى الصحفى إلى أمريكا ؟

ولم يفهم مدير مكتب عويضة أو على الأصح لم يشأ أن يفهم فالمطلوب
هو سفر عدد من الصحفيين على حساب الدولة لا لشيء الا ليعرف رئيس
الوزارة أن قراره لا يعترف به الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون
الإسلامية !

واعترضت لمدير مكتب عويضة عن قبول الدعوة • ورفضت ان اتسلم
تذكرة الطائرة المدفوعة الثمن من خزانة الدولة • وأفهمته صراحة أن المسألة
انتهت بالنسبة لى بعد قرار رئيس مجلس الوزراء مباشرة •

وعاد مدير المكتب يلح مرة أخرى ويؤكد لى ان باقى زملائى الصحفيين
وافقوا على السفر وانهم تسلموا بالفعل تذاكرهم وهناك من سافر والباقى
فى طريقه الى السفر قريباً !

ولم أراجع أمام هذا الاغراء • فاذا كان أحد الزملاء — أو جميعهم
كما قال سكرتير عويضة — قد تسلم التذكرة وقبل الدعوة فهذا شأنه
ولا يلزمنى أنا فى شيء •

وانتهت المقابلة عند هذا الحد • وحمل مدير مكتب عويضة أوراقه
وانصرف •

ورأيت أن أكتب هذه القصة بكامل تفاصيلها •

ان الهدف السابق من وراء هذا السفر هو تغطية المهرجان المصرى
الإسلامى فى واشنطن • وقد انتهى الآن هذا المهرجان • فما الهدف اذن
من سفر الصحفيين إلى الولايات المتحدة ؟

ان الدولة فى حاجة الى كل دولار • الى كل فرنك • الى كل جنيه •

ورغم هذا فهناك من كبار رجال الدولة من لا يهتم أبدا بعزقة آلاف الجنيهات بأعلى وأعز العملات الصعبة .

ان ما فعله توفيق عويضة لا يجب أبدا أن يُسكت عليه .

ولنا هنا سؤال بسيط هو : كيف استطاع نائب وزير أن يقف من رئيس الوزراء هذا الموقف ؟ هل هي عملية سحرية ؟ أو أن الموازين قد قلبت ؟

ابراهيم سعده

جمعية الشبان المسلمين :

ولننتقل خطوة أخرى للشبان المسلمين ، وكان الناس يقولون إن جمعية « الشبان المسلمين » أعيد تخطيطها لتملأ الفراغ الذي كانت تشغله جمعية « الإخوان المسلمين » ولكن الحق أن الشبان المسلمين لم تملأ هذا الفراغ بعد ، وأكثر ما تقوم به جمعيات الشبان المسلمين بعض المحاضرات في مناسبات مختلفة كما أنها تقيم حفلا سنويا تقريبا ، تتلأ فيه الأضواء ، ويقدم بعض الصبيان باسم المسلم الصغير لتلاوة بعض ما يحفظون من القرآن الكريم .

إشارة سريعة نقدمها هي أن هناك جمعية مسيحية اسمها « جمعية الشبان المسيحيين » ولست أعرف أي الجمعيتين أقدم ، وأيتهما اقتبست تسميتها من الأخرى ، ولكن الذي أعرفه أن جمعية الشبان المسيحيين لها نشاط واسع ؛ يشمل بيوت ضيافة ، وحلقات رياضية ، ورحلات في الداخل والخارج ، واجتماعات فكرية وأدبية ... ، وقد جذبت هذه البيوت لها مجموعة كبيرة من الشبان المسيحيين ، وتعدتهم للأسف فأخذت تجذب بعض الشبان المسلمين لهدف أو لآخر .

ليت جمعية الشبان المسلمين تعيد النظر في موقفها ونشاطها .

الجمعية الشرعية :

لنبدأ حديثنا عن الجمعية الشرعية بهذه الرسالة التي تلقيتها من أحد قراء هذا الكتاب وهو الأستاذ أحمد مقلد ، ثم لنا بعد ذلك تعليق قصير عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الكبير الدكتور / أحمد شلبي

السلام عليكم ورحمة الله •

كتاب (رحلة حياة) كتاب عظيم سيصبح في المستقبل مرجعا هاما بل هو من الآن مرجع من المراجع الهامة ، وهو يثير القارئ ويشوقه أن يقرأه كله من أوله لآخره ؛ من الصفحات الأولى التي فيها بيان لكتب الأستاذ المؤلف ، فالصحائف التي فيها محتويات الكتاب فالمقدمة ، حتى آخر سطر فيه حيث تقول : وليكن ذكرك مسك الختام كما كان مطلع الافتتاح •

ولكن لى كلمة قصيرة جدا بالنسبة لعظم الكتاب ، وهى مهمة عندى وعند كثيرين من الذين يهتمون بقراءة كتب السيد الدكتور المؤلف ، فإنكم ذكرتم من مراكز الفكر الإسلامى جمعيات الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، وذكرتم للمقارنة الشبان المسيحيين ، ولم تذكروا شيئا عن الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية التى أسسها المرحوم الشيخ محمود خطاب السبكي منذ ستين عاما تقريبا وكان يقوم رحمه الله بالوعظ والتجوال فى أنحاء البلاد وحده للتعريف بالدين الصحيح خاليا من البدع والخرافات ، وانضم إليه عدد كبير من العلماء ، وقامت الجمعية بإنشاء قسم للوعظ سبق الأزهر فى هذا المجال ، ومازال قائما للكن ، وكان يضم حوالى مائة واعظ قاموا بنشر مبادئ الدين الصحيحة بالحكمة من غير تشدد ولا رجعية ولا تعصب ، ووضعت لهم الجمعية نظاما محددا

يسيرون عليه ، وكان مركز هذه الجمعية في مسجد بقرية الخيمية وهو أول مسجد أسسته الجمعية ، كما ألحقت بهذا المسجد مكتبة حافلة بالكتب الإسلامية في الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية ، وغيرها •

وكانت هذه المكتبة ومازالت مفتوحة للاطلاع ولتيسير الحصول على الكتب •

كما أنشأت الجمعية شركة المنسوجات الوطنية ، وقامت الجمعية بدعوتها هذه في هدوء حتى أصبح لها في كل حي من أحياء القاهرة فرع بما في ذلك الأحياء التي كان التجول فيها محرماً كالترجمان والقلاية والمحمرة وعشش شركس والشيخ على ، وأصبح فيها بمساعدة أهلها فروع الجمعية ، وتحول الكثيرون من قطاع طرق عاطلين ، إلى مسلمين يدعون للإسلام الصحيح بين أهليهم وجيرانهم ، وهدى الله بهم ناسا كثيرين •

وأصبح للجمعية الآن أكثر من ألف مسجد ، وأصبح من وعاظ الأزهر وعلمائه وأساتذة الجامعات والقضاة والمستشارين ورؤساء المحاكم والوزراء من يعتنق مبادئ الجمعية الشرعية •

وإن الثورة الدينية والاجتماعية التي قامت في مصر منذ نصف قرن لمحاربة بدع الجنازات وزيارة القبور وبدع الموالد والزار والاحتفال بالأعياد غير الإسلامية كلها أثر من آثار دعوة هذه الجمعية •

ونحن الآن أحوج مانكون إلى هذه الدعوة التي تعمل على نشر مبادئ الإسلام الخالية من البدع والدجل والخرافات التي شوهت معالم الإسلام وأدت إلى أن اختلط على الناس السنة والبدعة ، وإن الكلمة التي وردت في كتاب رحلة حياة عن الإخوان المسلمين لهي كلمة عظيمة حقاً ... فواعجباه أن يذكر هذا عن جماعة لم تدم إلا فترة قصيرة بالنسبة للجمعية الشرعية ولم تذكر كلمة واحدة عن الجمعية الشرعية من قلم رجل يعتبر إماما من أئمة العلم في عصرنا هذا ، في حين أن كثيرين من أعضاء

الجمعية الشرعية المتخرجين من دار العلوم والمنتشرين في ميدان التربية والتعليم يهتمون بقراءة كتب الدكتور المؤلف ويحثون تلاميذهم على قراءتها •

وسيادة المؤلف يقرر في كتابه (رحلة حياة) أنه على اتصال واسع بالمراكز الإسلامية كلها ، ولم يذكر عن هذه الجمعية شيئاً وهي التي تنتشر فروعها في القاهرة وفي جميع محافظات الجمهورية ، ولها أيضاً فروع في كثير من البلاد العربية كسوريا والأردن والسودان ، وقد اتصلت الجمعية ببعض مراكز الفكر الإسلامي بالهند وباكستان ليتزودوا بمبادئ الجمعية وينشروها في بلادهم •

وإذا كانت اللحية والعمامة ذات الذؤابة شعاراً لأعضاء هذه الجمعية فإن الكثيرين من أعضائها والمنتمين إليها ليست لهم لحى ولا عمائم فليس هذا الشعار إجبارياً ولو أن في التحلى بهذا الشعار اتباعاً للسنة وفيه إشارة للتألف كما يفعل الآن جماعات المنظمات العالمية من أنها تتخذ لها شارة موحدة حتى يتعارف أفرادها ولو اختلفت جنسياتهم ولغتهم وهو مانراه في جماعة الكشف والرواد وغيرها •

فأرجو وألح في الرجاء أن يذكر السيد الدكتور المؤلف هذه الحقيقة عند إعادة طبع هذا الكتاب ويأجبذا لو أفرد سيادته كتاباً خاصاً يحدثنا فيه عن الإسلام من غير بدع ولا خرافات مسجلاً فيه مجهود الجمعية الشرعية في هذا الشأن •

أطال الله لنا في عمر المؤلف حتى يحقق للعلم ما يرجوه من نفع للأمة .
أحمد مقلد

لقد نشرت هذا الخطاب الجليل كله لعل ذلك يرضى الحقيقة ، ويرضى
أخانا في الإسلام الأستاذ أحمد مقلد ، ولعله يقيلى من عثرتى أن خلا
كتابى فى طبعته الأولى من جماعة كهذه لها جهود رائعة لخدمة الإسلام
والمسلمين ، وغير بعيد من منزلى بالمعادى يقع مسجد الفتح ، وهو أحد
المؤسسات الشاهقة التى تتبع هذه الجمعية المباركة ، وهذا المسجد يعيد
للمواقع صورة حلية لمسجد سيدنا رسول الله ، فهو باختصار مركز حافل
لخدمة البيئة ومساعدتها ، ويمكن أن نسميه « مجتمعا » إذ به كل الوسائل
التي تساعد الإنسان فى حياته ؛ فهو يحوى مسجدا ومستشفى ومكتبة ،
ويتبعه مسجد دينى ، وتقام به دروس لمساعدة التلاميذ فى الامتحانات ...
وغير ذلك ، فهو مركز إشعاع ومنازة هدى وخير ، وهو مثال من أمثلة
متعددة ونماذج كثيرة .

فتحية القائمين بهذا العمل الجليل فى هذه الجمعية ودعاء أن يثيب
الله مؤسسها العظيم .



والآن ... بعد أن تعرفنا على المراكز الإسلامية بمصر ، نحب أن
نسأل : هل وقفت هذه المراكز مرة لتحاسب نفسها ؟

هل استعرضت هذه المراكز نشاطها وتدارست مدى نجاحها ومدى
فعاليتها ؟

هل طورت هذه المراكز نفسها مع الزمن ؟

لست أريد أن أجيب بالنفى ، لأن الأمل فى التطور يدفعنى إلى الرفع
والإنابة ، وأرجو لهذه المراكز الفكرية كل نجاح ، وأتمنى أن تقف من حين
لآخر وقفة حساب تنطلق بعدها إلى أسنى الأهداف لخدمة الإسلام
والمسلمين .

وإذا قارنا دراسة الطب منذ ربيع قرن بدراسة الطب الآن ، أو فعلنا مثل ذلك في الرياضة والموسيقى ، فإن النتيجة رائعة والتطور مذهل ، وكان ينبغي أن يكون هناك في الدراسات الإسلامية تطور بهذا النسق ، أو ربما أكثر من هذا النسق ، لأن الانكسار الفكرية في الماضي لم توقف تطور الطب بمقدار ما أوقفت تطور الدراسات الإسلامية •

وإذا رأينا ما أنتجه العقل الحديث في مجال مقارنة الأديان والتشريع المقارن والحضارة الإسلامية لرأينا أن تطوراً كبيراً قد حدث في نطاق الفكر الإسلامي ، ولكن هذا التطور لم يدق بعد كثيراً من أبواب مراكز الفكر الإسلامي بمصر ، أو قل إن بعض الأبواب موصدة أمام هذا التطور ولا تفكر فيه •

وقد انطلق المبشرون والمستشرقون انطلاقاً مسعوراً لمقاومة الإسلام وإثارة الضباب حوله ، ولابد من تربية جيل من الدعاة ، فمن الملاحظ أن المبشر يعرف الكثير عن الإسلام ، ويتلمس الهنات فيه ، ويجيد لغات متعددة ، وعنده طاقة من الصبر ، وهواية الاتصال بالجمهير وإقناعهم برأيه ، وهذه المزايا غير موجودة عندنا فليس عندنا دعاة بالمعنى الصحيح ، وهذه الكلمات تكتب وهناك محاولات لإنشاء معهد أو معاهد للدعاة ونرجو لها التوفيق • وألا يقف الروتين الإداري في طريقها أو يعرقل سيرها •

ثلاثون عاما مع ثورة يوليو

هذه الكلمات تكتب في الأيام الأخيرة من شهر يوليو سنة ١٩٨٢ ، وفي هذه الأيام تقسوم احتفالات بمرور ثلاثين عاما على ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، واكثر الهيئات اهتماما بهذه الاحتفالات الحزب الوطنى الديمقراطى الذى كان يسمى هيئة التحرير ، فالاتحاد القومى ، فالاتحاد الاشتراكى ، فمنبر الوسط ، فحزب مصر ، وأخيرا الحزب الوطنى الديمقراطى الذى اقام احتفالا بهذه المناسبة ، ألقى فيه رئيس الجمهورية الرئيس محمد حسنى مبارك خطابا حافلا ، أنصف فيه عهد ما قبل الثورة ، ذلك العهد الذى حاولت الثورة أن تسوّد صفحته ، وأن تعتبر نفسها واضحة الأساس لتاريخ مصر ، وتحدث الرئيس كذلك عن الأزمة الاقتصادية بصدق ، وأبرز ما تعانيه البلاد من متاعب اقتصادية ، وكان الرئيس السابق (محمد أنور السادات) قد أعلن في أعياد الثورة في العام الماضى أن الاقتصاد المصرى قد انتصر على المشكلات وأن الميزانية فيها فائض هذا العام !!! ومع الحزب الوطنى هلت الصحافة القومية كذلك بهذه المناسبة وأسمتها عيداً .

وإذا تركت الحزب الموقر والصحافة التى تسمى قومية ، وعدت إلى ذاكرتى ومذكراتى ماذا أجد في المقارنة بين عهد ما قبل الثورة وعهد الثورة ؟

أقد عاشرت الثورة من أول يوم وسجلت الأحداث حولها من يوم إلى يوم في جزأين من أجزاء « موسوعة التاريخ » هما الجزء التاسع والعاشر من هذه الموسوعة ، وعشت عن طريق الدراسة والتدوين عهد ما قبل الثورة ووجدت أحداث ذاك العهد في الجزء الخامس من هذه الموسوعة الذى يشمل تاريخ مصر من مطلع الإسلام حتى قيام الثورة .

ماذا نرى لو أجرينا مقارنة تاريخية دقيقة بين ثلاثين عاما تبداً

من تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ إلى قيام الثورة وبين ثلاثين عاما بعد الثورة ؟

أولا — كان للانجليز بدون شك نفوذ عظيم في مصر قبل الثورة ، ولكنه بدون شك أيضا بدأ يتناقص قليلا قليلا مع قيام الحياة النيابية ، ثم مع معاهدة ١٩٣٦ ، ثم مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث وقف محمود فهمى النقراشى يصفهم في مجلس الأمن بأنهم قراصنة ، وحيث ألغى الزعيم مصطفى النحاس سنة ١٩٥١ معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد وأوقف تماما نشاط المعسكرات الانجليزية في منطقة القناة وعين عبد الفتاح حسن جميع العمال المصريين في وظائف بالدولة .

ويفخر المتسرعون من أتباع الثورة بأن الثورة قضت على نفوذ الانجليز في مصر ، والحق أن نفوذ الانجليز في العالم كله قد تقلص بعد الحرب العالمية الثانية وبعد ظهور العملاقين « الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي » فتداعى سلطان الانجليز في كل مكان وأصبحت الدولة التي كانت لا تغيب عنها الشمس محصورة تقريبا في الجزر البريطانية ومثل هذا حدث لفرنسا وبلجيكا والبرتغال ولهولندا ، فمن الخطأ التاريخي أن ننسب للثورة مفخرة إخراج الانجليز والقضاء على نفوذهم بمصر ، والذي يدعى ذلك انسان لا يعرف التاريخ .

هذا جانب من القول عن النفوذ الأجنبي في مصر قبل الثورة ، فماذا يرى من يرصد التاريخ حول النفوذ الأجنبي الذى فرض على مصر في عهد الثورة ؟ هل كان للاتحاد السوفييتي مثلا نفوذ في فترة ما على مصر ؟ لقد قرر أنور السادات ذلك ، واقتخر بالقضاء على هذا النفوذ سنة ١٩٧٢ .

ثانيا — بقرر التاريخ أن ملكا مستبدا كان يعيش في القصر الملكى قبل الثورة ، وكان يباشر سلطاته بدكتاتورية مقيتة ، وهذا شيء لاشك فيه ، ولكن الذى لاشك فيه كذلك أن القصر ظل بعد الثورة يباشر نفس النفوذ وبطريقة أعنف بواسطة جمال عبد الناصر وأنور السادات ، وقد

خلق الرجالن هبئات وأحزابا وقوانين كلها قيود وكلها ضغط على الانسان
المصرى والإنسان المصرى لا يمكن أن يفرق بين مستبد يلقب ملكا
ومستبد يلقب رئيسا للجمهورية .

ثالثا — يسخرون من أحزاب ما قبل الثورة ، والذي يفعل ذلك جاهل
بالأمر أو خائف من الحقيقة . فأحزاب ما قبل الثورة كانت غالبا نابعة من
الشعب . ولكن أحزاب ما بعد الثورة صنعها كلها الحاكم ، ولا تمثل الرأى
العام من قريب أو من بعيد . وكلنا يذكر واقعة الانتقال الجماعى والهجرة
من حزب مصر إلى حزب الزعيم ^(١) ولم يسمح ولى الأمر حتى الآن أن
يقيم الشعب حزبا جديدا يعبر عن إرادته واحتكر قضية قيام الأحزاب أو
وضع القوانين التى تعوق قيام حزب لا يرضى عنه .

خامسا — إن الرصد التاريخى للانتخابات يقرر أن رئيس الوزراء
يحيى إبراهيم الذى أجرى الانتخابات سنة ١٩٢٤ سقط فى الانتخابات
أمام شاب صغير كان مرشح الوفد ، أما انتخابات ما بعد الثورة فكان
من المحتم أن تكون نتائجها فوق ٩٩ ٪ لصالح الحاكم أيا كانت اتجاهات
الناس وميولهم *

سادسا — كانت فى مصر صحافة حرة بدون شك قبل الثورة . وكان
عددنا عظيمًا ، وانكمش هذا العدد تماما ولم يبق إلا صحافة قليلة العدد
من جانب على الرغم من تضاعف عدد السكان ، وتسيطر الدولة عليها وتعين
رؤساء تحريرها وكبار رجالها من جانب آخر ، أما ادعاء أن الصحافة سلطة
رابعة أو عاشرة فكلام لا مدلول له .

سابعا — من الناحية الاقتصادية كان الجنيه المصرى أغلى من الجنيه
الانجليزى قبل الثورة ، ثم انهارت قيمة هذا الجنيه بعد الثورة حتى
أصبح ايسر أقل من الجنيه الاسترلينى فحسب ، بل أقل من الدولار .
أما عن ديون مصر فى عهد الثورة فقد فاقت كل خيال .

(١) من بيانات فايز حلوة بالعدد ٣٠٠ من مجلة أكتوبر .

ثامنا — دخل الجيش السياسة بقيام الثورة واستطاب الجيش حياة السياسة وترفها ، ومن المعروف أن الجيش اذا دخل السياسة فسدت السياسة وفسد الجيش •

وباسم هذه السياسة العرجاء رصد التاريخ هزائم مريرة نسبت للجيش المصرى فى عهد عبد الناصر ؛ هزيمة ١٩٥٦ وهزيمة اليمن ١٩٦٢ — ١٩٦٧ وهزيمة ١٩٦٧ واحتلت إسرائيل منطقة سيناء أكثر من مرة وتوقفت قناة السويس أكثر من مرة ولعدة سنوات وسقط عشرات الآلاف من المصريين قتلى وجرحى نتيجة سوء التخطيط والادارة •

تاسعا — فى اجراء مقارنة بين مصر وبين بعض الدول الأخرى . ولا نختار اليابان أو المانيا أو نظيراتها لأن الخيال لا يلعب بنا ، بل نختار إندونيسيا وهى قطر كثير العدد (١٥٠ مليون) وكثير المشكلات (آلاف الجزر وملايين الصينيين الذين يسيطرون على جانب كبير من الاقتصاد) أو نختار الباكستان (٩٠ مليون) ولها حروب كثيرة مع الهند وملايين اللاجئين ، فى هذه المقارنة تشيل كفة مصر ، ففى إندونيسيا والباكستان — وكنت غيها حديثا — استقرار اقتصادى عظيم ونظافة وطرق مرصوفة الى قمم الجبال ... وهو شىء لا ننعيم به فى مصر •

عاشرا — وأخيرا وليس آخرا الحزب الذى أقامه أنور السادات ، لماذا يظهر به اللصوص والمرتشون وتجار المخدرات ؟ ولماذا يظهر «مُحافظ» يَتَّهَمُ بتهم مريرة مخجلة ، بل وزراء نفوح حوالهم الشائعات ؟ ومنَ الذين سرقوا مجوهرات القصور وهى ثروة مصرية هائلة اختفت فى عهد الثورة ؟

كلمة أخيرة ، إن الانسان هو أعلى ما فى هذا الكون ، وله سخر الله ما فى السموات وما فى الأرض فماذا فعلت الثورة به ؟ وما تاريخ المعتقلات فى هذه الثورة ، لقد عاش أنور السادات يتغنى بأنه أغلق تماما المعتقلات، التى فتحتها عبد الناصر ، ولكن اتضح أن ذلك كان ضد أعماقه وميوله ، ومن أجل ذلك انفجرت طبيعته قبيل نهايته ففتح المعتقلات على أوسع

نطاق ، ودفع لها خصومته من رجال السياسة والصحافة والدين والاعلام والفكر ، جنباً الى جنب مع بعض المنحرفين ، ولم يعبأ بالأعمار ولا بالأقدار فكان النشفي ظاهرة بارزة في هذا التصرف .

إن معتقلات عبد الناصر وما جرى فيها من أهوال مما هو بعيد عن القيم والأخلاق والإنسانية لشيء تقشعر منه الأبدان ، وقد اندفع انور السادات في أيامه الأخيرة لتقليد سلفه ، ولكن العمر لم يتسع له ليكرر التنكيل والتعذيب ، وبالتأكيد لم يوجد قبل الثورة ما يماثل أو ما يقرب من فظائع معتقلات هذه الثورة المشنومة .

إننا نهتف بولى الأمر أن يُعَنَى بالإنسان المصرى ، وأن يعطيه حقه كاملاً ، وأن يؤلّف من المصريين وحدة وتجهّتها بحيث لا يحس بعض الشعب أنه مهلولوب الحقوق ، وبعد ذلك يتقدم لتوحيد العرب ، أو توحيد المسلمين ، أو توحيد دول عدم الانحياز .

ونتهف بولى الأمر كذلك أن يعيد مصر إلى الاستقرار لتصبح الثورة تاريخاً كثورة ١٩١٩ وليست واقعا مستمرا ، ونرجو أن نسجل للحاضر مفاخر عجز الماضي عن تقديمها . كما نرجو أن يكون الاحتفال بثورة يوليو المشنومة هذا العام هو آخر احتفال بها .

الاسرائيليات والجمود
وصربى اعلنها على الجبرتين

إن تكويني وثقافتى ، وحنى للإسلام وولائى له ، واعتراى بأفضاله على شخصيا وعلى البشرية جميعا ، كل هذا ألزمنى أن أبذل أقصى الجهد لخدمة الدراسات الإسلامية التى تخصصت فيها ، وتخليصها من الإسرائيليات والجمود ، ومن هنا كان لزاما على أن أفكر فى كل قضية من القضايا الإسلامية ، فإن كان هناك نص صريح بذلت الجهد لفهمه وربط القضية به ، وإن لم يكن هناك نص بذلت الجهد لأجد حلا للقضية فى نطاق الإطار الإسلامى ، ويشهد الله أننى ما تكلمت كلمة ولا كتبت حرفا إلا ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى ، وإلا لرفع كلمة الله جل وعلا ، ولكن ذلك طالما جرت على كثيرا من المتاعب من بعض الجامدين .

صحيح أن جماهير المثقفين يقبلون على فكرى ويرضونه ، ويقتنون كتبى بملاحقة منتظمة ، ولكن هناك جماعة الجامدين الذين يحاربون الفكر ولا يريدونه ، والذين يقفون فى وجه كل جديد .

وكثيرون من المسلمين يقولون إن باب الاجتهاد مفتوح ، ويقنعون بهذا القول ولا يجتهدون ، فإن اجتهد أحد منهم هاجمه الجامدون دون تفكير ودون روية .

الإسرائيليات والجمود :

ويقول الباحثون إن الإسلام أصيب بعقبتين عطلتا تقدسه ، وأوقفنا تطوره ، وهاتان العقبتان هما : الإسرائيليات من جانب ، وجمود كثير من الفقهاء من جانب آخر . وعن هؤلاء الجاهدين يقول الإمام محمد عبده : إن الإسلام محجوب بالمسلمين .

وقد أعلنت الحرب على الجبهتين ، وحققت نصرا عظيما ،

ولكن جبهة الجامدين استغلت فسدى سلطات إدارية ، بعد أن عجزت عن الحوار العلمى ، ولا زلت أصارع والنصر إن شاء الله لكلمة الحق .

وإذا كان المسلمون يتحرّزون من الإسرائييات فإنهم لا يتحرّزون من الجامدين ، وبخاصة أن هؤلاء يظهرون بمظهر الورع والحفاظ على التراث ، وفى ظل الحفاظ على التراث توقّف هؤلاء الجامدون عند فكر لا يتجاوزونه ، وساعد على ذلك عقم طريقة التدريس التى سيطرت على العالم الإسلامى بواسطة الأزهر أو أمثاله من الجامعات الإسلامية الأولى فى الماضى ، وهذه المعاهد أدّت بلا شك خدمات جليلة للإسلام ؛ شرحت قواعده ، ونقلت مبادئه إلى ملايين الناس فى مختلف البقاع ، ولا ينكر أحد دورها وما أدّته من خدمات للإسلام والمسلمين ؛ لكن نشاط هذه الجامعات كان كافيا فى الفترات الأولى من فترات التاريخ الإسلامى ، ولم يتطور مع الزمن ، ثم جاء العهد الحاضر حيث اتضح قصور هذا النشاط عن مسابقة الأحداث كما سنرى .

ثم إن الكثير من العلماء السابقين وجهوا جلّ اهتمامهم لشئون العبادات وعلاقة الإنسان بربه ، وذكروا فى ذلك تفاصيل كثيرة ، ولم تنل المعاملات من جهودهم قدرا كافيا ، وجدّت فى المجتمع الإسلامى شئون مختلفة فى نواحى السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية والثقافية ، ولم يكن لأكثر هؤلاء خبرة فى هذه المجالات فأعرضوا عنها دون أن يضمّثوها إلى نطاق الدراسات الإسلامية ، مع أنهم يعلنون أن الإسلام دين كل زمان ومكان ، وأنه دين متطور يشمل كل نواحى الحياة .

ومما ساعد على حركة الجمود أن المعاهد السابقة كان يجلس فيها الشيخ معلما لتلاميذه فترة طويلة أو قصيرة ، فإذا ضعف عن العمل أو مات أخذ أحد تلاميذه مكانه ، وقدم لطلابه ما سمعه من شيخه ، وهكذا دواليك ، دون أية إضافة أو تجديد .

ثم إنهم جميعا كانوا إلى عهد قريب يعتمدون على الكتب التى كتبت

في عهد ماضية ، بأسلوب غير أسلوب العصر ، ومنهج غير منهج العصر .
ومن هنا كانت الدراسات الإسلامية واقفة في حيز محدود
دون حركة أو اجتهاد أو تأليف ، وقد استمر ذلك إلى حوالي
منتصف القرن العشرين ، أي أن جيلنا عاصر هذا الوضع وضاق به
من الشيوخ ، ومن الكتب التي كتبت بأسلوب غير أسلوب العصر ، وبفكر
خالٍ من النقد والمقارنة وحسن الأداء .

الإسرائيليات تتسرّب للفكر الإسلامي :

وقبل أن نسير مع هؤلاء الجامدين ونعطى أمثلة لمواقفهم نذكر أن
الإسرائيليات تنبعت لمكانة هؤلاء الجامدين ، فاستطاعت أن تفرس فيهم
بعض مبادئها بطريقة أو بأخرى ، وفزّرت مبادئ الإسرائيليات عقول
بعض هؤلاء الجامدين ، فأخذ هؤلاء موقف الدفاع عن هذه المبادئ
التي هي في الحق بعيدة عن الإسلام ، ومناهضة لمبادئه ، وسنعطى كثيرا
من الأمثلة على ذلك فيما بعد .

عيوب جديدة عطلت الاجتهاد :

ثم ظهرت الدول الإسلامية المستقلة وكثر عددها ، وأخذ الحكام
مكان الصدارة فيها ، فحدثت عيوب أخرى غير عيوب الجمود
والإسرائيليات ، وتضافرت العيوب القديمة مع العيوب الجديدة لكبح
حركة الاجتهاد والفكر والتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

ما هذه العيوب الجديدة التي ظهرت في الميدان ؟

الإجابة نقدمها بصراحة فيها يلي :

١ — الاهتمام بإرضاء الحكام :

إنني أقول بملء الفم على مسئوليتي أمام الله وأمام الناس إن من
أبرزها تبعية كثير من العلماء للحكام ، ومحاولة إرضائهم ، لدرجة أنه
يَقِلُّ جدا أن وقف عام يستنكر قرارا أصدره الحاكم ، وما أكثر

القرارات التي تخالف مبادئ الإسلام ، كالمصادرات العشوائية التي عرفتھا مصر في عهد عبد الناصر ، وكالاستيلاء على أموال الناس بدون حق ، وكتحديد إيجارات المساكن والأطيان بدون عدالة ، حتى أصبح إيجار الشقة في الزمالة شهريا لا يشتري نصف كيلو من اللحم ، وأصبح إيجار الفدان لا يصل ولا يقرب من عشر ما ينتجه الفدان ، وكثير من العمارات السكنية والأرض الزراعية يملكها فقراء يعانون الجوع الآن ، أما المساكن والزراع فقد أصبحا من بين الأغنياء ، ومرّ الزمن وهذه المظالم لا تزال كما هي ، على الرغم من مرور عهد السادات ، وعشر سنوات من عهد حسنى مبارك !!

والعجيب أن قانون العلاقة بين المالك والمستأجر كان قد أعدّ سنة ١٩٩٠ وكان على وشك أن يقدم لمجلس الشعب لنظره ، ولكن كلمة واحدة من الرئيس حسنى مبارك أوقفت هذا الأمل ، لقد قال « مشّ وقته » فتراجع كل شيء ، وليس يعرف الإنسان متى يجيء وقت الإنصاف بعد مظالم استمرت حوالى أربعين عاما .

إن دعوات المظلومين لا تهدأ ، فلعل حسنى مبارك يحسّ بها .
ولا يقصد بالقانون الجديد إلا العدالة ، والعدالة يجب ألا تتأخر .

بل وصل الأمر إلى القبض على الأبرياء وتعذيبهم بل وقتلهم ، وعلماء الإسلام في العصر الحديث صامتون ، وأحيانا يباركون هذه التصرفات التي لا يعرفها دين ولا قانون ، وإذا كانت مصر قد فاض بها الظلم في عهد الثورة العسكرية المشؤومة ، فإن أكثر الدول الإسلامية عانت مثل ما عانت مصر أو بعض هذا العناء .

وكلمة حق هي أن علماء المسلمين في الماضي لم يقفوا من الحكام هذا الموقف ، بل كان العلماء موثّل أشعوب وملاذ المظلومين .

٢ — وظائف يلوِّح بها الحكام للعلماء :

ومن العيوب التي ظهرت حرصُ بعض العلماء والمفكرين على وظيفة مينة ، والتضحية من أجلها بكل القيم والمبادئ ، وقد عرّف الحكام هذه النقطة من الضعف في نفوس العلماء والمفكرين فأبقوا بعض المناصب الكبرى في أيديهم ، يلوِّحون بها لمن يسيل عليها لعابهم ، فمنصب شيخ الأزهر في يد الحاكم وحده ، ومناصب رؤساء الجامعات في يد الحاكم ، ومناصب المحافظين كذلك ، فإذا وصل الواحد منهم سنّ المعاش لوح الحاكم له بمنصب في القطاع العام أو مكان في مجلس الشورى وهكذا ... واستسلم عدد من العلماء لذلك ، فلم يقفوا موقف رفض أو معارضة لاتجاه الحاكم .

٣ — عدم الرغبة في مواصلة البحث :

ومن هذه العيوب عدم الرغبة أو عدم القدرة على مواصلة البحث والدرس ، وقد اتضح لي هذا الوضع عندما نشرت في صحيفة الأهرام بحثاً عن حلّ شهادات الاستثمار ، فقد اتصل بي عدد من العلماء بذكرون أنهم اقتنعوا برأى وأن أدلتى واضحة . ولو عني هؤلاء بالبحث والدرس بإخلاص ، لوصلوا بسهولة إلى النتيجة التي وصلت لها .

٤ — لتظاهر بالورع :

ومن هذه العيوب التظاهر بالتقى والورع ، فالذي يقول مثلاً إن شهادات الاستثمار حرام يتعدّد في نظر الجماهير أكثر تقى وورعاً من الذي يقول بحلها ، أو هكذا تتخيل هذه الطائفة من الشيوخ .

ويشهد الله أن بعض من قالوا بحرمة شهادات الاستثمار كان لهم سلوك يتنافى مع الورع في كثير من المواقف ، وكثير منا يعرفون ذلك .

وفي إحدى المرات صرخ واحد في وجهي بأن شهادات الاستثمار حرام حرام حرام ، وأن الذين يتعاملون بها آثمون ، وقلت له إن كثيرين من العلماء من أمثال فضيلة الشيخ شتلوت وفضيلة الشيخ عبد الوهاب خلافاً

وفضيلة الشيخ عبد الرحمن عيسى وفضيلة الشيخ على الخفيف وفضيلة الشيخ يس سويلم وغيرهم قالوا بطلها ، فلماذا أنت مَحْصِرٌ على تأثيم المتعاملين بهذه الشهادات ؟ وكان عليك كمفكر إسلامي أن تفرح إذ وَجِدَ طريق يحمي هؤلاء المتعاملين من الإثم والعذاب .

ولم يستطع هذا الشخص أن يجيب .

والجواب في الحقيقة يكمن في سلوكه هو ، فإنه يربح ربحاً وفيراً لانتسابه إلى مؤسسة تنافس شهادات الاستثمار .

وعن هذه العيوب التي اشترك فيها الحكام والعلماء لا تزان معنا دراسات قدّمها بعض الباحثين الجديرين بالتقدير ومن هؤلاء الأمير شكيب أرسلان الذي يقول إن أكبر عوامل تقهقر المسلمين هي :

١ — فساد أخلاق الأمراء والحكام الذين أعطوا أنفسهم حرية التصرف على نحو استبدادي على أساس مفاهيم خاطئة بأن هذه الشعوب ليست إلا خدماً لهم ، وقد بلغوا في ذلك غاية الظلم والعنف ، فكانوا يقضون على أي رجل حرّ يحاول أن يردّهم عن استبدادهم أو يكشف عنه .

٢ — ضعف العلماء وتزلّثهم للأمراء ، ومحاولة تبرير تصرفاتهم ، والفتوى بقتل كل راي حرّ بحجة أنه خارج عن الجماعة .

٣ — الجامدون من رجال الدين الذين يقاومون التطور والتجديد بدافع الجهل أو التعصب والحسد ، والذين ينظرون إلى الإسلام على أنه دين عبادة فقط وليس نظاماً ومجتمعاً حضارةً (١) .

ومن هذه الدراسات ما كتبه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي الأستاذ بكلية اللغة العربية عن « عوائق التجديد » وهو يذكر أن تخلف العالم الإسلامي يرجع إلى الأسباب التالية :

(١) الأمير شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون ص ١٣٤ والأستاذ أنور الجندي : « الإسلام في معركة التغريب » ص ٣٢ .

١ — تمسك ملوك المسلمين وأمرائهم في العصر الحديث بحكمهم الاستبدادي ، ومن فكر منهم في الإصلاح لم يتجاوز الإصلاح العسكري دون أن يفكر في إصلاح طريقة الحكم ، وقد كان الحكم الاستبدادي أسوأ الفساد في العالم الإسلامي ، وبهذا لا يمكن أن ينجح إصلاح مع بقائه ، لأن الإصلاح حينئذ يقوم على أساس فاسد ، فالحكم الاستبدادي يبعد بين الحاكم والرمية فلا يتعاطف الحاكم مع الشعب ، ولا يقبل الشعب على الحاكم .

٢ — إن جمهور علماء الدين مضوا على جمودهم فلم يتنبه منهم إلى الإصلاح الديني إلا نفر يفتك على أصابع اليد الواحدة ، أما جمهور العلماء فقد ظلوا على جمودهم وتبعهم جمهور العامة ، فتوقف النشاط الذهني وساد الجمود .

٣ — إن ملوك المسلمين وأمرائهم قاوموا الحركات الإصلاحية الدينية ونظروا لها على أنها ثورة عليهم من القائمين بها ، واخذوا يحاربونها بكل قسوة ، فلقى المصلحون ما لقوا من تعذيب وسجن وقتل (١) .

ذلك هو وضع بعض علماء الإسلام بين الإسرائيليات والجمود والأطماع ، فماذا حدث لي شخصيا في هذا المجال ؟

لقد قلت آنفا وأشهدت الله أنني لم أقل كلمة ولا دوّنت كلمة إلا بعد فحص ودراسة ، وإلا ابتغاء وجه الله ، ولحاولة خدمة الفكر الإسلامي ، وشجعني القراء على ذلك إذ أقبلوا على كتبي إقبالا أسمى من أن يخطر ببالي ، وكان السر في هذا الإقبال أنني لم أدوّن ما قاله السابقون دون مراجعة ، بل فكرت في كل موضوع ، وفي كل سطر ، وبحثت ،

(١) المجددون في الإسلام ص ٥٧٧ وما بعدها بإيجاز .

وتدارست ، واستشرت ، وترددت ، حتى إذا استقر رأيي على شيء
دوتته ، ورفعت به صوتي ، وصفقت جماهير المثقفين لأرائي ، فقد كانت
هذه الآراء معبرة عما يدور في كل ذهن صافٍ ونفس بريئة ، وأحسّ
الكثيرون أنني أدوّن ما يدور بخاطرهم ، ولكن الذين لا يعملون ولا
يحبون أن يعمل الناس وجدوا فيما قلت فرصة للهجوم ، وكان الجمود
أو الحقد هما الدافع لهذا الهجوم ، فأنا لم أقل إلا ما يخدم الإسلام ،
وأنا دائما أهيل إلى جانب الحرص ، وأن يكون رأيي وثيق الصلة بكتاب
الله جل وعلا وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي نطاق تفكير الأفاضل
من السابقين •

لعل القارئ الكريم يريد أن يعرف نماذج من آرائي ، وهذا حق
القارئ ، وإن كنت هنا أعرض نماذج قليلة من القضايا التي تحدثت فيها ،
وأوجز الكلام عنها ، وأشير إلى كتبتي التي أوردت فيها تفاصيل هذه
الموضوعات وسواها ، ليعود لها القارئ إن أراد مزيدا من التفصيل •

١ — قضية شهادات الاستثمار :

وقد أفضت في شرحها من سنة ١٩٦٩ حينما كنت عضواً بوفد مصر في « كوالالمبور » عاصمة ماليزيا ثم شرحت رأيي في كتابي « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » ووضعت الفرق بين الربا وبين شهادات الاستثمار ، فالربا فيه استغلال لحاجة المحتاج ، وفيه ضياع المواساة والإحسان ، وفيه تسليط طبقة الأغنياء على الفقراء ، وفيه إضعاف الاقتصاد ... وليس هناك شيء من ذلك في شهادات الاستثمار ، واعتمدت على كبار المؤلفين كالرفر الرازي وابن تيمية وقد قالوا بذلك في مواقف تشبه « شهادات الاستثمار » كما اعتمدت على الامام محمد عبده الذي قال بذلك في صناديق التوفير ، وقال بهذا الرأي عدد كبير من الأئمة الباحثين في العصر الحديث أوردت آراءهم .

ولم يقبل رأيي عدد من الشيوخ ، فقد كانت لهم مصالح في عدم الأخذ بحل شهادات الاستثمار ، وثاروا ، ولكن كلمة الحق رجحت بعد طول جهاد ، وأعلن مفتي جمهورية مصر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي سنة ١٩٨٩ حل شهادات الاستثمار ، ولم يتركه الجامدون وإنما هاجموا ، بل هاجموا الدكتور عبد المنعم النمر لأنه أيده ، وقالوا عنه « إنه المحرّض الأول للفتاوى الطنطاوية » ، وذلك هبوط بمستوى البحث والنقد (١) .

إن الربا حرام قطعا ، بل هو من أشنع ما حرّم الله ، ولكن ما الربا ؟ لقد قال الرسول في ذلك : لا ربا إلا في النسيئة ووضّح الإمام الرازي أن في الربا عيوباً خلقية واجتماعية واقتصادية ، وذكر أبو الأعلى المودودي أن الربا يرتبط بالآثرة والبخل وتحجر القلب ، وقطع الأواصر في المجتمع إذ يكون فيه عوز شخص وفقره فرصة يغتنمها شخص آخر للاستغلال ... (٢) وشهادات الاستثمار لا تدخل أبداً في هذا النطاق .

(١) انظر العدد التاسع من مجلة « الاعتصام » : الصادر في

ديسمبر ١٩٨٩ .

(٢) انظر كتاب « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » للمؤلف .

٢ - الإسراء والمعراج :

ذكرت في الجزء الأول من « موسوعة التاريخ الإسلامى » وفى كتابى عن « الإسراء والمعراج » أننى أومن إيماناً كاملاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسرى به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، وأنه عُرِج به من بيت المقدس إلى السموات العلا ، إلى سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى ، وأن القرآن الكريم جاء بذلك فى مسورتى الإسراء والنجم ، ونكرت أننى أومن أن ذلك كان بالروح والجسد ، وأن الله سبحانه وتعالى تجلّى على الرسول وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات فى اليوم والليلة •

وهكذا أيها القارئ الكريم تجدنى شديد الاتجاه الجانب المحافظ ، فكثير من فقهاءنا يرون أن الإسراء ثابت بالقرآن الكريم ، ولكن المعراج ثابت بالحديث الشريف ، ولكنى أثبتتهما جميعاً بالقرآن الكريم ، وبعض الباحثين قالوا بأنها رحلة بالروح ولكنى أكدت يقينى بأنها بالروح والجسد ، واستشهدت بانتقال عرش بلقيس فى لمح البصر من اليمن لفلسطين •

فماذا كان موضع الخلاف بينى وبين الجامدين والراغبين فى نامش الأخطاء ؟

إن الخلاف يكمن فى قضايا جانبية نوجزها فيما يلى :

ذكر هؤلاء حديثاً عن أن الرسول صعد مع جبريل عليه السلام ، وأخذ جبريل يقف مع الرسول أمام كل باب من أبواب السماوات السبع ليدق جبريل الباب ، وكان الملك حارس الباب يسأل : من الذى يدق ؟ ومن معك ؟

فهؤلاء يعدّون الملك مثل البشر ، لا يترى من يقف خلف الأبواب ، وكأن السماء بها أبواب صلبة كأبواب الدنيا ، وهى تفتح فقط عند اللزوم •

وذكر هؤلاء أن الصلوات التي فرضت كانت خمسين صلاة في اليوم والليلة وان موسى « احتبس محمدا » (وتعير احتبس ألمح فيه روح الاسرائيليات ، وكان من الممكن أن يقال يستقبل أو واجه) واستكثر موسى الصلوات الخمسين وقال لرسولنا : أنا أعلم بالناس منك ، أرجع إلى ربك فأسأله التخفيف ، وأخذ يعيده عشر مرات حتى أصبحت الصلوات خمسا فقط ، وهكذا تخيل هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى موجود في مكان معين ، وأن موسى في مكان آخر ، وأن محمدا أخذ يروح ويغدو بين المكانين • وتخيّل هؤلاء مساومة تنزل العدد من ٥٠ إلى ٤٥ ثم إلى ٤٠ ثم إلى ٣٥ وهكذا ، تعالى الله عن ذلك •

ووضع هؤلاء الفقهاء العلل التي تبيح أن يكون موسى أعلم بالأمة العربية من محمد العربي الذي كان آنذاك في الثانية والخمسين من العمر ، وكان قد مضى على بعثته اثنتا عشرة سنة ، وهما قاله هؤلاء الفقهاء في التعليل لذلك أن موسى عانى من بنى إسرائيل فهو أعلم بصعوبة البشر ، ونسى هؤلاء أن بنى إسرائيل لا يمكن أن يقاس عليهم ، فهم الذين قاتل عنهم القرآن الكريم « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » (البقرة ٧٤) وتوعدهم الله جل جلاله بأنه « ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » (الأعراف ١٦٧) جزاء لما ارتكبوا من الاثم والعدوان •

وقد قرّر العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز (١) أن الأموات جميعا بما فيهم الأنبياء لا يخرجون من قبورهم إلا يوم البعث ، واستشهد بقوله تعالى « ثم انكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » (المؤمنون ١٥ - ١٦) ، وبقوله عليه الصلاة والسلام : أنا أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة ، فكيف خرج موسى من قبره وراح يستقبل الرسول ويرشده •

(١) التحذير من البدع ص ٦ - ٧ •

وذكر الحديث الذي يتمسك به هؤلاء الفقهاء أن موسى عندما رأى محمد يرتفع عنه في السماء بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : هذا الغلام الذي بثّعتُ بعدى يسبقني في الدرجة ... وكلمة « غلام » عن رسولنا لا تليق به قامه ، وجو الحسد لا يليق بالأنبياء .

ولم أر أن هذه النصوص هي من الحديث الشريف ، وتأكد لي أنها من الإسرائيليات التي اندست في الفكر الإسلامي ، وأخذ الفقهاء يدافعون عنها ، وهناك دراسات أوسع عن هذا الموضوع أوردتها في المرجع السابقة ، واعتمدت على رأى قوى قال به كثير من العلماء في مقدمتهم العالم الجليل الشيخ عبد الجليل عيسى رحمه الله ، والعالم الجليل الشيخ محمد الغزالي أطال الله في عمره .

والعجيب أنه وجد من الناس من تقولوا عنى كما شاء لهم خيالهم ، فبعضهم لم يقرأ أبداً ما كتبتّه عن هذه القضية ولا عن غيرها ، ولم يسمع منى كلمة عنها ، وكل ما سمعه هو أن للدكتور أحمد شلبي رأياً في الأسراء والمعراج ، فدفعه خياله لمريض للاعتقاد بأننى أنكر الأسراء والمعراج ، وكتب ضدى على هذا الأساس . غفر الله له .

٣ — صحيح البخارى :

ومناقشة حديث ورد فى البخارى فتحت بابا جديدا يقول إننى أشكك فى الأحاديث ، ومعاذ الله أن أقف ضد أحاديث الرسول ﷺ ، فأنا مدين فى دراساته فى الحضارة الإسلامية لفيض من الأحاديث الشريفة ، وأحفظ منها المئات منذ نعومة الأظفار ، ولكن المسألة مسألة قول معين يراه البعض حديثا ولا أراه حديثا عن الرسول ، وصحيح البخارى موضع تقديرى . ولكن يجب ألا ننسى القول السائد عبر التاريخ وهو أن البخارى أصح كتاب بعد كتاب الله ، أى ليس مثل كتاب الله الذى تفضل الله فنعهد بحفظه (انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) والتعبير « أصح كتاب بعد كتاب الله » يعطى فكرة أن من الممكن أن يكون به « ليس صحيحا ، سواء كان ذلك خطأ من الإمام البخارى وهو ليس بمعصوم ، أو كان من دسّ الإسرائيليات على الكتاب بعد عصر البخارى فى طباعته المتعاقبة ، والدليل على الدس أن الأحاديث المطعون فيها كما يقول الإمام العاملى هى ستون حديثا ، وجميعها عن أنبياء بنى إسرائيل ، وليس بينها حديث عن التشريع أو الأخلاق ، وقد أوردت بعض هذه الأحاديث فى كتابى عن « الاسراء والمعراج » وهناك كثيرون من الأئمة ناقشوا البخارى وعلقوا على عمله ، ورفضوا عصمته ومن هؤلاء :

- ١ — الجياني فى كتابه الأوهام الواقعة فى صحيح البخارى
- ٢ — ابن عبد البر فى كتابه الأجوبة المربعة عن المسائل المستغربة من البخارى •
- ٣ — البلقيني فى كتابه الإفهام بما وقع فى البخارى من الإبهام
- ٤ — ابن خلف فى كتابه التعديل والتجريح لرجال البخارى
- ٥ — العاملى فى كتابه الكشكول

ولكن الجامدين يريدوننا أن نعامل البخارى كما نعامل القرآن الكريم ، وهيهات أن نسوى بين الاثنين •

٤ — عمر السيدة خديجة عند زواج الرسول بها :

في كتابي عن « الرسول في بيته » تحدثت عن عمر السيدة خديجة عند زواج الرسول بها ، وليس في هذا الموضوع آية كريمة أو حديث شريف ، وإنما هي أفكار من صنع المسلمين والباحثين ، وهذا يجيز لى بكل تأكيد أن أذكر رأيي بين هذه الآراء ، ولكن الجامدين كانوا عبدة لأقوال السابقين ، ولم يشأ هؤلاء أن يفكروا ، وحاولوا أن يحرهونا التفكير ، فهاجم بعض منهم رأيي في هذا المجال .

ماذا قلت عن ذلك ؟

أورد فيما يلي نص كلامي من ص ٢٨ — ٣٠ من الكتاب المذكور :

تختلف الآراء حول عمر السيدة خديجة عندما تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيرى بعض المؤرخين أنها كانت في الأربعين من عمرها ، وحجتهم في ذلك أن السيدة خديجة تزوجت قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه مرتين ، فلما مات زوجها الثاني مرت علىها فترة كانت ترفض فيها الزواج ممن تقدموا لها .

وواضح من ذلك أن الذين قالوا بهذا الرأي لم يقدموا دليلا حاسما لقبوله ، وأن المسألة مجرد استنتاج .

أما الرأي الذي نراه فهو أن السيدة خديجة كانت في حوالي الثامنة والعشرين من عمرها ، ونعتمد في هذا الرأي على عدة عوامل :

١ — لو كانت السيدة خديجة في سن الأربعين لما سمحت لها مكانتها وشرفها أن تعرض نفسها للزواج وبخاصة من شاب لم يتزوج من قبل ، ويصغرها بحوالي خمسة عشر عاما ، أي أنه في عمر أولادها .

٢ — لو كانت في سن الأربعين لما استطاعت أن تنجب ستة من الذكور والإناث للرسول صلى الله عليه وسلم ، فالمرأة في مثل هذه السن قد لا تنجب ، أو تنجب طفلا أو طفلين وتتوقف .

٣ — ثم إن السيدة خديجة أنجبت للرسول صلى الله عليه وسلم ابنها « الطاهر » في الاسلام أى بعد أكثر من خمس عشرة سنة على الأقل من زواجها ، ومعنى هذا أنها أنجبت وهى فى السادسة والخمسين أو السابعة والخمسين ، وواضح جدا أن المرأة لا تنجب فى مثل هذه السن إلا نادرا ، لأن سن اليأس عند المرأة يبدأ قبل ذلك ، وبخاصة فى الجزيرة العربية حيث يبدأ الرشد فى سن مبكرة ، ويبدأ اليأس مبكرا كذلك .

٤ — وليس زواجها مرتين ورفضها الخطاب بعد ذلك دليلا على وصولها سن الأربعين ، فالفتيات فى الجزيرة العربية كن يتزوجن آنذاك فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، وقد تزوجت حفصة بنت عمر ابن الخطاب من خنيس بن حذافة ، ولما مات زوجها تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان عمرها عند زواج الرسول بها ثمانية عشر عاما ، وتزوج الرسول صلوات الله وسلامه عليه عائشة وهى فى مطلع العقد الثانى من عمرها .

ولو فرضنا أن السيدة خديجة تزوجت زوجها الأول وهى فى الرابعة عشرة ، أو فى الخامسة عشرة وبقيت معه ثلاث سنوات ومات وهى فى الثامنة عشرة ، ثم تزوجت بعد عام من زوجها الثانى ، وبقيت معه ثلاث سنوات أيضا ، فإنها تصبح فى الثانية والعشرين من عمرها عندما مات زوجها الثانى .

هـ — أما عن الخطاب الذين تقدموا لها وردتهم فنذكر أنه كان من عادة العرب أن يسرعوا بزواج الأراامل حفظا لهن من متاعب الحياة ، فإذا كانت السيدة خديجة ردت اثنتين أو ثلاثة أو أربعة فإن ذلك يمكن أن يكون خلال عام واحد أو عامين .

وعلى هذا فالتقدير الذى نراه صحيحا هو أن السيدة خديجة كانت أسن من الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل ، وقد رحب الرسول بها فى هذه السن لأنه كان محتاجا إلى امرأة فيها حكمة ولها تجربة •

وقد قال بهذا الرأي ابن كثير (السيرة النبوية ١ : ٢٦٤) والأستاذ عباس العقاد (فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٢٠) وقد أضفت إلى قولهما بعض الشروح والتحقيقات كما سبق •

ماذا فى هذا الكلام حتى يثور الجامدون ويصيحوا ضده ؟

لقد فكر السابقون فقالوا ما قتالوا ، فهل يحرم علينا أن نفكر كما فكروا ؟ إنه مرض الجامدين الذين وصفناهم أنهم لا يعملون ولا يحبون أن يعمل الناس •

٥ - نهاية السيد المسيح على الأرض :

في كتابي «المسيحية» قدّمت دراسة طويلة موثقة المصادر عن أن السيد المسيح عليه السلام بعد أن نجا من الصلب استوفى أجله ومات كما يموت الناس ، ورفعت روحه إلى بارئها مع أرواح النبيين والصدّيقين والشهداء .
وهبّ الجامدون يقولون إن المسيح رفع نفسه بجسده وروحه وملايسته ، وتسالهم : إلى أين ؟ إن الله سبحانه وتعالى في كل مكان أو ليس له مكان كما يقول علماء التوحيد ، « وسع كرسيه السموات والأرض » ، فإلى أين رفع المسيح ؟

وما القول في قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء ، عند ربهم ، يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » . « فقولته تعالى أحياء ، والعنصرية في قوله « عند ربهم » و « يرزقون » . « كلها للروح ، أما جسد الشهيد فقد وُرى التراب أو لاقى قدّره إن كان قد استشهد في البحر أو وسط الحرائق .

وقال السيد رشيد رضا إن المسلمين يقلدون المسيحيين في قولهم إن المسيح رفع بجسده وروحه ، فالمسيحيون يعتقدون أن المسيح ابن الله ، نزل للتكفير عن خطيئة البشرية ، وبعد الصلب والدفن قام من قبره وعاد إلى أبيه .

ويحذّر السيد رشيد رضا المسلمين من هذا القول الخاطيء .

كبار المسيحيين يرون أن الذي رفع هو الروح :

وقد أتيت لي فرصة لأسأل مجموعة من كبار القسس بالفاثيكان سؤالاً مهماً ، قلت لهم :

إن سؤالاً يرتبط بالعقيدة المسيحية ، فأنتم تعتقدون أن المسيح ابن الله نزل للتكفير عن خطيئة البشر ، ودخل رحم مريم ، ووُلد ، وعاش في فلسطين ، وأكل مما يأكل الناس ، وشرب مما يشرب الناس ، وقدّم دعوته للناس ، ثم صُلِبَ حتى مات ، ودفن ، ثم خرج من القبر بعد بضعة أيام وعاش مع الحواريين فترة ، ثم رفع إلى السماء .

والسؤال هو : هل الذى نزل من السماء ودخل رحم مريم كان لاهوتا أو ناسوتا ، أى هل كائنا إلهيا أو إنسانيا ؟ وبلفظة أوضح : هل كان روحا أو جسما ؟ والاجابة لابد أن تكون إنه كان روحا دخل رحم مريم وحملت به السيدة العذراء ، ثم ولد ، فهل الذى يصعد للسماء هو الذى نزل من السماء أى الروح ، أو الذى يصعد للسماء هو جسم المسيح الذى تربى فى فلسطين كما يقربى الناس ؟

ولم أتلق جوابا من هؤلاء القسس آنذاك ، ورفع السؤال إلى القيادات المسيحية ، ثم تلقيت بعد حين على عنوانى بالكلية نسخة من النشرة المسيحية الرسمية (IRF) .

The International Religious Foundation

عدد يناير وفبراير سنة ١٩٨٨ وعلى الصفحة رقم «٢» من هذه النشرة جاء ما يلى عن نهاية المسيح ثم عودة روحه لا جسمه للحياة بعد الدفن ، ومعنى عودة روحه للحياة هى — كما ورد فى النشرة — عودة تعليماته وإرشاداته عن طريق الحواريين ، وفيما يلى هذا النص مصورا من هذه النشرة .

To Be Born Anew

Christ was "put to death in the flesh, but made alive in the spirit." (1 Peter 3:18) This leaves no doubt that Christ's resurrection was not the revival of his body but of his spirit.

"It is the Spirit that quickeneth; the flesh profiteth nothing; the words that I speak unto you, they are spirit, and they are life." (John 6:63)

It is obvious that Christ's resurrection was the revival of his spirit, his words, his teaching. The story of his rising on the third day after crucifixion means the revival of his teaching. It means that his teaching which had lost its life and died when he died on the cross revived among his followers on the third day, and became Christianity.

To Be Born Anew

« Christ was put to death in the flesh, but made alive the spirit, This leaves no doubt that Christ's resurrection was not the revival of his body but of his spirit.

"It is the Spirit that quickeneth, the flesh profiteth nothing : the words that I speak unto you, they are spirit, and they are life.

« It is obvious that Christ's resurrection was revival of his spirit, his words, his teaching. The story of his rising on the third day after crucifixion means the revival of his teaching. It means that his teaching which had lost its light and died when he died on the cross, revived among his followers on the third day, and became Christianity.

وترجمة هذا النص هي :

عودة الحياة

« المسيح قُتِلَ جسماً ولكن روحه لم تمت ، وهذا يؤكد أن بعث المسيح لم يكن إعادة الحياة لجسمه ، بل إبراز روحه للوجود والخلود .

إنها الروح التي تنشط ، أما الجسم فلا قيمة له ، وكلمات السيد المسيح نابغة من روحه التي لم يتطرق لها الفناء .

وإنه لمن الواضح أن بعث المسيح كان تجديدًا لنشاط روحه ، ونشاط توجيهاته وتعليماته ، وقصة بروزه في اليوم الثالث بعد الصلب معناها عودة الحياة لتعليماته ، معناها أن التعليمات والارشادات التي فقدت طريقها عندما مات المسيح على الصليب نشطت من جديد بين حواريه بدءاً من اليوم الثالث لصلبه ، وكوّنت المسيحية » .

وهكذا قنع المسيحيون بأن الذي رفع هو الروح ، وهم بذلك يعودون للعقل الذي سَخِرَ من رفع إنسان بجسمه وروحه ، والعجيب أن بعض المسلمين لا يزالون على تقليدهم للمسيحيين في موضوع رفع السيد المسيح بجسمه وروحه ، مع أن قادة المسيحية تنازلوا كما رأينا عن هذا الاتجاه المزيّف ، ولا شك أن عقلاء المسلمين قالوا بهذا الرأي السليم منذ عشرات السنين ومئات السنين ودونت آراءهم في كتابي « المسيحية » . ولكن الجامدين لم يرضهم اتجاهي في قضية نهاية المسيح على الأرض .

هل المسيح حقا هو ابن الله نزل للتكفير عن خطيئة البشر ؟

ونظل مع الفكر المسيحي ، أو قل مع الإسرائيليات التي حرّفت المسيحية بواسطة « بولس » اليهودي الأصل ، نظل مع هذه الإسرائيليات فنقول :

إن الوثيقة المسيحية التي عرضناها أثبتت أن المسيح دُفِن وأنه لم يخرج من القبر بعد ذلك ، وذلك يجيز لنا أو يحتّم علينا أن نقول إن هذا يعني ضمناً أن المسيح ليس ابن الله ، وأنه لم ينزل من أعلى ، فلو كان ابن الله حقا ونزل للتكفير عن خطيئة البشر لعاد إلى أبيه بعد قضاء الغرض من نزوله ، ولكن عدم عودته معناه عدم نزوله فليس من المعقول أن يُدفن ابن الله ، وهو شيء قررناه بالتفصيل في كتابنا « المسيحية » وهو الجزء الثالث من أجزاء سلسلة مقارنة الأديان . وليست المسألة إلا كما يقول الفكر الإسلامي : وخلاصة هذا القول أن الله سبحانه وتعالى أودع في رحم السيدة مريم قوة جعلها تحمل بالسيد المسيح قال تعالى : « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » (التحريم الآية ١٢) وبهذا فالله واحد والمسيح عليه السلام نبي من أنبياء الله .

٦ — المسيح الدجال أو المسيح الدجال :

المسيح الدجال عكّم على شخصية ذاعت عند الكثيرين من المسيحيين والمسلمين ، ويعتقد المسيحيون أنه شخص سيأتي آخر الزمان ليقود قوَى الشر ضد قوى الخير ، وقد ورد ذكره في رسالة للقديس يوحنا الأولى (الإصحاح الثانى : الفقرة ١٨) « منشورات دار المشرق ببيروت » .

ويقول الأستاذ أحمد عطية الله (١) : إن المسيح الدجال شخصية أسطورية لا سند لها من القرآن أو الحديث الصحيح ، يقولون إنه يظهر آخر الزمان ، وينشر ضلالاته بين الناس فيتبعه خلق من الكفار والمشركين والمنافقين ، وهو رجل دميم الخلقة يثير فزع الناظر اليه ، ويمتطى حمارا يجوب به وجه الأرض ، ويعتبر ظهوره من أشراط الساعة ، وتنتهى حياته في بيت المقدس بعد أن يعم فسادّه الأرض .

والموضوع كله خرافى وأسطورى ، ولا حقيقة له ، فيجب أن ترفضه الجماهير ولا تستمع اليه ، وإذا ادّعى أحد أن هناك حديثا عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن المسيح الدجال ، فليس هذا الحديث إلا مختلقا ، وهو من وضع الإسرائيليات التى تعمل جاهدة للتضليل .

وكم من ملايين السنين يحتاجها راكب حمار لينجوب الأرض وينشر ضلالاته ؟؟

(١) القاموس الإسلامى : الجزء الثانى .

٧ — المهدي المنتظر :

خرافة أخرى من الخرافات التي ظهرت في العالم الاسلامي ، ووقف الجامدون حيالها بين مؤيد أو صامت ، وتعرضنا لها بالتفنيد مع العلماء الذين هاجموا هذه الخرافة .

والمهدي المنتظر خرافة أو بلغة الانحراف الذي شاع هي « الرجعة » أي أن يعود المتوفى بعد فترة للحياة ، وقد قال بها عبد الله بن سبأ ونسب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه سيعود بعد فترة للحياة ، فهو ليس أقل من عيسى الذي قال الجامدون إنه — كما ذكرنا من قبل — عاد للحياة ، وخرج من القبر ، ورفع بجسمه وبروحه للسماء ، وقال عبد الله بن سبأ عن علي كرم الله وجهه أنه أيضا لم يموت ، وإنما اختلف ، وسيمود لا محالة .

ولما مات محمد بن الحنفية سنة ٨١ هـ ، وهو ابن الامام علي من زوجة من بنى حنيفة ، أنكرت فرقة « الكيسانية » أنه مات ميتة تامة وقال شاعرها « كثير عزمة » شعرا يفيد أنه تغيب وعنده غسل وماء وأنه سيخرج ليستعيد مجده ويهزم أعداءه .

.....

وسبط لا تراه العين حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يثرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

ولما سقطت الدولة الأموية ظهر من يقول بظهور المهدي وهو رجل « سفياني » سيعيد أمجاد الدولة الأموية .

وينسب « المهدي » كذلك للدولة العباسية ، ويقال إن الخليفة المنصور العباسي سمى ابنه « المهدي » ليعيد أمجاد آل البيت وليقضي على أعدائهم .

هذا وللقضية جذور مسيحية ، فقد قال المسيحيون إن عيسى عليه السلام عاد للحياة بعد الصلب ، وخرج من القبر ، وعاش فترة منع الحوارين ، ثم صعد للسماء والحواريون يرونه وقد أثبتنا من قبل زيف هذه الفكرة .

على أن عقيدة « المهدي المنتظر » ذاعت وشاعت عندما لجأ لها الشيعة الإمامية ، والقصة هي أن الحسن العسكري كان الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية ، واقتب العسكري لأنه كان يعيش في سامراء مدينة العسكر ، وكان له ابن وحيد اسمه « محمد » وقد ولد هذا الابن سنة ٢٥٥ هـ وتوفي الحسن العسكري وابنه محمد في عام واحد هو سنة ٢٦٠ هـ ولم يتفق الشيعة الإمامية على إمام جديد ، فالإمامة عندهم بالوراثة ، وقد انقطع نسل الإمام موسى الكاظم زعيم الاثنى عشرية بعد وفاة الحسن العسكري وابنه الوحيد في عام واحد هو سنة ٢٦٠ هـ ولهذا لجأ زعماء الشيعة الإمامية إلى القول بأن الطفل محمد لم يمت وإنما نزل سردابا كان يصل بين بيت أبيه وبين المسجد ، واختفى الطفل منذ ذلك التاريخ ، وسيظهر يوما ليملا الأرض عدلا ونورا بعد أن مثلت ظلما وجورا ، وقد زرت ذلك السرداب وقصصت قصتي مع المشرف عليه الذي تقدم لهم له هبات سخية لإشرافه على المكان الذي يقال إن الإمام اختفى فيه ، والذي ينقل تعليمات الإمام لأتباعه والعارفين بفضله .

وقد اعترف لي هذا المشرف عندما عرف ثقافتى بأن القضية ليست إلا خرافة ، ويمكن للقارئ أن يطلع على ما دونته عن هذه القضية في المراجع التاريخية .

وكان هذا الموقف من زعماء الشيعة الإمامية حرصا على أتباعهم أن ينفرط عقدهم ، أو أن يتجهوا إلى طائفة أخرى من فرق الشيعة .

وحرصا من الشيعة أن يثبتوا هذه العقيدة الباطلة اختلقوا الأحاديث لتقويتها ودعّمها .

والعجيب أن القول بمهدي منتظر تسرب من الشيعة إلى أهل السنة ، وكان أهل السنة أو بعضهم متأثرين بما شاع من أحاديث حول هذا الموضوع ، وينبغي أن نقرر أن أهل السنة عندما قالوا بالمهدي المنتظر لم يقرروا أنه محمد بن الحسن العسكري ، بل اتجهوا إلى القول بمهدي منتظر دون أن يحددوا شخصه . ويقول الأستاذ عبد المتعال الصمدي (١) إن المسلمين بعد أن انتشر فيهم انحراف الحكم ، وبتعدّ عن العدالة ظهرت فيهم فكرة المهدي المنتظر ، وقد اختلط عند هؤلاء المهدي المنتظر بالمجدد المنتظر .

ويقول الدكتور عبد المنعم النمر (٢) معلقا على قول أهل السنة بأنهم ينتظرون المهدي المنتظر : إنها عنوى من الشيعة أصيب بها أهل السنة معتمدين على أحاديث ثبت ضعفها وأنها موضوعة .

ويقول الأستاذ أحمد أمين (٣) : إن فكرة المهدي المنتظر كانت مؤامرة شنيعة أفسدت عقول المسلمين .

الخميني والمهدي المنتظر وصورة من الضلال :

ولا يزال الشيعة يقولون هذا القول المنحرف ، وقد بالغ « الخميني » في الانحراف إلى درجة تهزّ الإيمان ، فقد قال في مناسبة ذكرى الامام المنتظر ما يلي :

لقد جاء الأنبياء جميعا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم ، ولكنهم لم ينجحوا ، حتى النبي محمد خاتم الأنبياء ، والشخص

(١) المجددون في الاسلام ص ٥٨٦ .

(٢) الشيعة - المهدي - الدروز ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٣ .

الذى سينجح فى ذلك ويترسى قواعد العدالة فى جميع أنحاء العالم ،
ويقوم الانحرافات هو المهدي المنتظر (١) .

وكان هذا من الخميني صورة واضحة من الانحرافات الشيعية .

وفى الهند ظهر ميرزا غلام أحمد القادياني الذى ادعى مرة أنه
المسيح المنتظر ، وادعى أخرى أنه المهدي المنتظر ، وادعى ثالثة أنه
نبي من الأنبياء ، وما أيسر الادعاءات لمن لا يقيم وزنا لفكر ، ولا يحترم
عقله ولا عقول الناس .

وهناك كتاب مهم فى هذا الموضوع هو « لا مهدي منتظر بعد الرسول
محمد خير البشر » ، للفضيلة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس
المشئون الدينية والمحاكم الشرعية فى دولة قطر وهو كتاب يبرز بطلان
هذا الإدعاء الذى يضر كثيرا ولا يفيد فى شئ .

وأخيرا فليس هناك « مهدي منتظر » وليكف الجامدون عن هذا
المقول الذى يخلق الضعف والاعتماد على خرافة ، وإذا كنا نريد نهضة
فلنعتد على أنفسنا فى وضع أسسها دون انتظار خرافة لتحقيق لنا ما
نتمنى ، إن أعداء الإسلام يهمهم أن ننام وأن تطول غفوتنا فى انتظار
هذا المهدي الذى لن يجرى .

وليت الجامدين يقرءون ما يكتبه الثقات ليكشفوا عن تخدير المسلمين
بمثل هذه الخرافات .

بقى أن أذكر حكاية حدثت لى سنة ١٩٩٠ فقد جاء إلى مكتبى بالكلية
طالب متورم الجسم ، تبدو عليه البلاهة وسألنى : هل تتكر ظهور
المهدي المنتظر ؟

(١) نقلا عن د . عبد المنعم النمر : الشيعة - المهدي - الدروز ص ١٧٧ .

فقلت : نعم إننا لسنا محتاجين لمهدي بعد القرآن الكريم واحاديث الرسول الصحيحة ، وعلينا أن نعمل ونكدح لنعيد إلى حياتنا ازدهارها ورقبها دون انتظار لن يأتى بطائل •

فقال الطالب عن نفسه : وما رأيك أنتى المهدي المنتظر •

وأحسست أنتى أمام شخص أبله ، فحرصت على التخلص منه ، وذكرت لسه أنتى مشغول فلتيتركنى إلى عملى ، ولكن الشخص تشبث بكلام مضطرب ، وذكر أن ولادته لم تكن طبيعية ، وأن طفولته كانت توحى بأن له مهمة عظمى سيقوم بها •

وزحزحته عن حجرة مكتبى بكل الحيل ، وقد كان نموذجا من النماذج التى ادعت هذا الادعاء المزيف •

٨ — وهناك عشرات أو ربما مئات من هذه النماذج دونتها فى موسوعة التاريخ الإسلامى وموسوعة الحضارة الإسلامية وسلسلة مقارنة الأديان ، فليعد لها من يشاء •

الجامدون يمثلون الدول أحيانا :

وامتد نفوذ الجهود إلى السلطة أحيانا ، ووقع على الضر من السلطات الأنتى أفكر لخدمة الإسلام ، وسأقدم فيما يلى بعض ما نزل بى من أضرار بسبب هذا الجهود :

١ — أرسل لى ناشر من « دى » يطلب مائة مجموعة من « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » وأرسلنا له المجموعات التى طلبها ، وعرضت الكتب على شيخ ليسمح بدخولها للبلاد ، فرفض لأن الجزء الثالث منها يتحدث عن الإسراء والمعراج على ما وصفت ، وعادت الكتب للقاهرة مع تكاليف الإرسال والعودة على حسابنا والأمر لله •

والحق أن الضر الذى نزل بنا كان أقل جدا من الضر الذى نزل بإخواننا فى الإمارات العربية المتحدة ، فقد حرمهم هذا الشيخ من الحصول على هذه الكتب بسهولة ، وألزمهم بجهدا كبيرا ليحصلوا عليها

من خارج الإمارات ، ودخلت هذه الكتب كل بيت تقريبا ولكن بعد محاولات للحصول عليها من هنا وهناك ، بل إنى أقسم أن بعض أهل الإمارات اتصلوا بى تليفونيا يطلبون الأجزاء المائة ، ولما أخبرتهم أنها لم تكمل بعد ، طلبوا منى الإسراع فى استكمالها .

وهكذا حاول هذا الشيخ أن يمنع ضوء الشمس ولكن الشمس ملأت الكون على الرغم منه .

٢ — وتلقيت رسالة رسمية من وزارة الثقافة فى « أبو ظبى » لأزور دولة الإمارات وألقى بعض المحاضرات ، وأقرر أن المحاضرات نجحت نجاحا عظيما ووجدت إقبالا هائلا من الناس ، وكان ضمن النشاط الذى دُعيت له أن أجيب على أسئلة فى الإذاعة عن طريق « التليفون » وجلست فى الاستوديو ووضعت السماعة على أذنى وجرت أحاديث مهمة من الذين لم يتيسر لهم حضور المحاضرات فى العاصمة ، وكان ذلك بناء على طلبهم وإلحاحهم ، ولأقت هذه الفكرة كل النجاح ، وطلب الكثيرون تكرارها ، وذهبت للاستوديو يوما آخر وبدأنا العمل ، وكان بين الأسئلة سؤال عن شهادات الاستثمار ، فتبرع موظف مصرى فى « أبو ظبى » كان يهمل أن تكون له حظوة عند بعض رجال الدين الذين كانوا يرون تحريم التعامل فى شهادات الاستثمار ، فاتصل هذا المصرى الرخيص بأحد رجال الدين ، وكان لرجل الدين « الشيخ عبد العزيز » مكان فى الدولة ، فأصدر أمره بإيقاف هذه الإذاعة .

ومرء الزمن وقال مفتى جمهورية مصر العربية بهذا الرأى ، وأصبح من العبث الوقوف أمام كلمات الحق ، وبدل أن يناقشنى الإنسان المصرى الرخيص أو الشيخ عبد العزيز استعمل الشيخ سلاح القوة ضد سلاح الفكر والأمر لله .

٣ — وأنا أنشر كل كتيب عن طريق مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ولكن لظروف خاصة وافقت على نشر كتابى « الرسول فى بيته : زوج مثالى — وزوجاته — وأولاده — وأحفاده — وخدمه » فى المملكة الأردنية

الهاشمية طمعا في سعة التوزيع وسرعته ، وذلك لأهمية هذا الكتاب التي سأتشير لها بعد قليل ، والمهم أن أصول هذا الكتاب عُرِضت على شيخ في وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالأردن ، فرفض هذا الشيخ الموافقة على نشر هذا الكتاب من أجل ما ورد به عن عمر السيدة خديجة ، ومن أجل أنني لم أقل « صلى الله عليه وسلم » عقب كل مرة يَرَدُّ فيها بالكتاب اسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مع أن الصلاة والتسليم وردتا ثلاث مرات أو أربع مرات في كل صفحة من صفحات الكتاب ، وواضح أن هذا الشيخ لا خبرة له بتأليف الكتب ، وأنه لم يكتب صفحة واحدة في حياته ، ولكن للأسف معه نفوذ على المؤلفين ، وهكذا نجد فاقداً الإبداع يسيطر على من يعملون في مجال الإبداع .

وتركنا الأردن ونشرنا هذا الكتاب أروع نشر في عاصمة عربية أخرى والأمر لله .

وهذا الكتاب له قيمة كبيرة هندی ، فقد كان وسيلتي في المباشرة للردِّ على افتراءات سلمان رشدی ، وهذا الرجل لا وطن له ، فلم يعد هندية ولا أصبح بلونه ومشاعره إنجليزيا ، وهو كذلك لا دين له ، فهم يَهْدُّ بهجومه وخياله المريض مسلما ، ولا عرف المسيحية ، والرجل الذي لا وطن له ولا دين له إنسان فارغ الرأس يقول ما لا يعنى .

وقد تحدث هذا الرجل عن أسرة الرسول ، وكان كتابي هذا ردًّا غير مباشر عليه ، لأنى لم أورد آراءه وأردُّ عليها حتى لا يكون في ذلك إذاعة لاضلالاته ، وإنما تكلمت عن الموضوع كلاما مستقلا .

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب ، ولكن الرجل الأردني منع ظهوره هناك وكأنه كان يتخيل أن في يده مفاتيح النشر ، حسابه على الله ، وأبعد هذا الرجل بعد فترة عن وظيفته ، وجاء رجل آخر مستنير ، على الثقافة ، فقرر الترجيب بالكتاب ، ودخل الكتاب مطبوعا إلى المملكة الأردنية الهاشمية .

٤ — وتُشعِنِي وزارة الأوقاف بمصر بتقديم محاضرات للأئمة لترفع مستواهم الفكرى ، ولهذا نظمت الوزارة لهم برنامجا سُمِّي « التدريب الراقى » ونَدَبَت للقيام بهذا العمل مجموعة من العلماء والمفكرين ، وقد شرفنى أن كنت واحدا منهم ، وقد تلقيت فى هذا الشأن خطابا من الأستاذ الدكتور محمد على محبوب وزير الأوقاف يطلب منى الاشتراك فى هذه الدورات بإلقاء محاضرات عن « الحضارة الإسلامية » .

ورحبت بهذا العمل رجاء أن أخدم دينى ووطنى عن طريقه ، ثم لأسدد بعض ديونى للأزهر الذى نلت فيه جانبا كبيرا من الثقافة التى اشتغلُتها فى العهد الحاضر .

ورحت بكل الجهد والأمل ألقى محاضرات فى الحضارة الإسلامية التى يمكن القول بعيدا عن أى صلف أو كبر أننى الوحيد الذى كتبت فيها كتابة شاملة فى عشرة مجلدات على نسق جديد لم يشاركنى فيه كاتب آخر . وكان طبيعيا أن يسألنى بعض الأئمة عن رأى الذى شاع فى قضية الإسراء والمعراج أو فى قضية المهدي المنتظر وغيرها من القضايا التى تكلمت فيها والتى ذكرتها أو ذكرت بعضها فى هذا الكتاب ، وكنت أجيب بما أعرف ، وأشرح وجهة نظرى تماما .

وأقرر أن كثيرين جدا من الأئمة استقراحوا لكلامى وامتدحوه ، ووثَّقوا بى علاقاتهم ، ولكن لا يخلو الحال من أفراد جامدين لم يكونوا مستعدين للتحول عما ألفوه من الاتجاهات الإسرائيلية واتجاهات الجمود التى غَدَتْ نفوسهم ، وأصبحتْ فى تقديرهم هى الأساس للفكر الإسلامى ، وأن محاولة تصحيحها ليست إلا هجوما على الفكر الإسلامى ، وشكا هؤلاء للمشرفين على الدورات ، واستجاب لهم — للأسف — هؤلاء المشرفون ، فلم أَدْعَ لاستئناف المحاضرات فى الموسم التالى .

وأنا فى الحق لم أخسر شيئا نتيجة لذلك ، وإنما كَسَبْتُ وقتى

وجلست أكتب وأواصل الحراسة والتأليف ، ولكن خسر هؤلاء فكرا قد لا يجدونه في محاضرات أخرى •

ليت المشرفين تحققوا من القضية ، ولكنهم استجابوا لرأى الجامدين دون فكر أو روية ، ومما يذكر أننى ظلت ألقى هذه المحاضرات على الأئمة أكثر من خمس عشرة سنة ، وكنت — وأنا أسجل هذا — حظيّا عند الأئمة والمشرفين السابقين ، ثم جاء زمن ألقى الزمام فى الإشراف إلى جماعة من الجامدين الذين لا يعملون ولا يحبون أن يعمل الناس •

وأقرر أننى لم أشكّ للوزير أبدا ولا لغيره ، فالعلم فى تقديرى يستعنى إليه كما تعلمنا من شيوخنا فى العصور الزاهرة •

هـ — هذه نماذج من الضر الذى مسنى ، ولكن هناك ما هو أشد ، فمعروف أن أهم المصادر المالية التى يعتمد عليها أستاذ الجامعة المصرى هى السفر للخارج معارا أو زائرا ، أما الإعارة فلم تكن لى رغبة فيها ، فقد قررت عقب عودتى من إندونيسيا — التى سافرت لها بعد أن فصلنى جمال عبد الناصر من الجامعة — أن أبقى فى القاهرة أكتب لكل العرب ولكل المسلمين ، وكنت زاهدا تماما فى الإعارة ، وفيما تجلبه من مال ، ولهذا لم أتقدم قط لها •

ولكن الأستاذ الزائر عمل أستريح له ، فهو مدة قصيرة لا تؤثر على عملى العلمى بالقاهرة ، وهو فرصة لأعرض أفكارى فى التاريخ الإسلامى الذى جددت فى منهجه تجديدا واسعا ، فأصبح شاملا لكل المسلمين وليس مقصورا على العرب وحدهم كما كان من قبل ، كما أصبح ممتدا حتى الآن فلا تتوقف دراسته عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وجاء هذا العمل فى عشرة مجلدات كبيرة •

وكذلك أعرض أفكارى فى الحضارة الإسلامية التى بفضل الله لم تسبق لها والتى جاءت فى عشرة مجلدات أخرى •

وكذلك أعرض أفكارى عن مقارنة الأديان ، ذلك العلم الذى كتبت فيه أربعة مجلدات لا يكاد يوجد غيرها فى المكتبة العربية بعد ما كتبه الشهرستانى وابن حزم .

ثم فى منهج البحث الذى يتمثل فى كتابى « كيف تكتب بحثا أو رسالة » الذى ظهرت طبعته الثانية والعشرون .

كنت فعلا أرغب فى أن أكون استاذًا زائرًا من حين لآخر لهذه الأسباب ، وربما لأن هذا العمل يمنح بعض المال الذى يساعد على تغطية تكاليف الحياة لأستاذ لم يذهب قط لإعارة .

ولكن تأثير الجمود حال دون دعوتى لهذا العمل ، وكان زملائى وتلاميذى يجوبون البلاد معارين وأساتذة زائرين إلا أنا .

لقد تفضل الله فلم يجعلنى فى حاجة مالية لهذا العمل ، ولكن ماذا لو كنت محتاجا من الناحية المالية ؟ إذن " كان على " أن أختار بين معاناة الحاجة أو أن أتخلى عن فكرى وأعيش كما يعيش الآخرون على درب السابقين دون أية إضافة أو تجديد ، وما كان أيسر ذلك على " .

إننى أعرف كثيرين يقولون ما يرضى أصحاب النفوذ ، ويطوون كل كلمة لا ترضى هؤلاء مهما كان فيها من خير للفكر أو للناس ، خشية أن توقف تدفق الذهب إلى جيوبهم ، إننى فى الحقيقة أرى هؤلاء .

والعجيب أن الذين يهاجموننى لما قلت فى الإسراء والمعراج ، ولراى عن عمر السيدة خديجة عندما تزوج الرسول صلوات الله عليه بها ... هؤلاء ينسون أكثر من مائة كتاب ألقتها وهى جميعا تبرز روعة الإسلام ، وتقدمه بلغات مختلفة للمجتمع البشرى ، ما أقسى هؤلاء وما أشد ظلمهم أن يتركوا الخير كله ثم يهاجموننى لاختلافى فى الراى فى قضية ليست من الأصول بين مبادئ الإسلام .

وينبغي أن يكون واضحا أن هؤلاء الجامدين لم يقفوا هذه المواقف منى وحدى ، بل إنهم يتتبعون كل مجتهد ليهاجموه ، لقد تتبّعوا الإمام الفذّ محمد عبده وأنزلوا به الضرّ ، وتتبعوا الإمام العالم الشيخ محمد الغزالي ، الذى يعمدّ في تقديرى وتقدير الكثيرين العالم الأول في عصرنا الحاضر ، هذا الرجل العظيم تعرض — بسبب اجتهاده — لأقسى مما تعرضت له من نقد وهجوم ، وكان الذين هاجموا من الصفوف الأخيرة في موكب الفكر الإسلامى ، وقد رأينا فيما سبق أن فضيلة المفتى الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى هُوجم لبعض آرائه ، وهُوجم معه الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر لأنه أيّده فيما قال .

فالجامدون — للأسف — يرون أن رأيهم هذا الرأى الوحيد ولا يسمحون لغيرهم أن يخالف رأيهم مهما كانت أدلته .

والجامدون للأسف الشديد يحاربون منّ خالفهم من المسلمين أكثر مما يحاربون أعداء الإسلام .

أيها القارئ الكريم :

هذا فصل جديد من فصول حياتى أضيفه للطبعة الرابعة ، وهو لا يشمل كلّ ما عانيتُ وإنما يشمل بعضه فقط ، ولعلّى في طبعة قادمة أضيف صورا أخرى من العناء واست هنا أشكو ، وإنما أصف لونا من ألوان الحياة يسود في بلادنا الإسلامية ، وانحنى لله أن ذلك الضر الذى نزل بى كان ضعيف التأثير أو عديم التأثير ، وأن الفيض من الله كان واسعا في كل مجال ، والله وحده هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأشهدك يا رب أن هذا القلم سيظل عميق الإخلاص للعمل ، متفانيا في خدمة الإسلام والمسلمين .

وماذا بعد ؟

لقد سارت رحلة الحياة هذا الشوط الفسيح ، وقابل زورق الحياة كثيرا من العواصف والأنواء ، ولكن عناية الله أنقذت الزورق من كل ضرر ، وجعلت الريح رخاء وبركة .

وقد وصفتُ قضايا الحياة التي عشتها وصفا موضوعيا ، رجاء أن تكون هذه المرحلة ذات ثمار طيبة للقارىء بما حوت من جهد وجهاد ، ويشهد الله أن الخير كان رائدى فى كل كلمة كتبتها أو فكرة أثرتها ، فاللهم أسألك أن تنفع بما كتبت ، فإنه ذوب قلبى وعصارة عقلى .



وإذا كنتُ قد وصفت ما رأيت ، وعرضت مشاهدى وتجارب الماضى فلمست أعرف شيئا عن المستقبل ؛ إنه فى طيات الغيب ، وأكن ثقتى فى الله وإخلاصى الكامل للدين والوطن تطمئنى أن أدخل بسلام غمار الأيام القادمة ، وأطوى فى أمن أحداث المستقبل ، فكن يا رب معى وأنا أخطو هذه الخطوات ؛ إننا ندعوك ونرجوك ، فاقبل الدعاء والرجاء .

وليكن ذكرك مسك الختام كما كان مطلع الافتتاح .

ISLAMIC CIVILIZATION

10

MY LIFE JOURNEY

BY

AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,

Ph. D. Cambridge University,

Professor

of Islamic History and Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Fourth Edition (1990)

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبي

- تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبردج (إنجلترا)
- زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية .
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الإنجليزية والاندونيسية .
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية وقسم حاضر — منتدبا وزائرا ومعارا — في جامعة الأزهر ، وعين شمس ، واندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة العربية السعودية ، وليبيا ، وفي معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات انديولوجاسية .
- مؤلفاته (غير المكتبة الاسلامية) تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الحادية والعشرون من بعضها ، وأهم هذه المؤلفات :
- ١ — موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة اجزاء .
- ٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة اجزاء .
- ٣ — مقارنة الاديان في اربعة اجزاء .
- ٤ — كيف تكتب بحثا او رسالة .
- ٥ — المكتبة الاسلامية لكل الاعمار :
- ١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن ، للأولاد والشبان والسيدات والرجال .
- ٦ — ISLAM : Belief Legislation Morals
- ٧ — History of Muslim Education
- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية والتركية ، والاندونيسية والماليزية والفرنسية والفارسية .